مجلد ٤ — عدد ١٥
ديسمبر ١٩٤٦



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



مدونة جوستنيان

في الفقه الروماني

ألفه فقيه القياصرة في قسطنطينية
الأمبراطور جوستنيان
ونقله الى العربية امام القضاة في مصر
معالى عبد العزيز فهمى باشا

أخرجته
دار الكاتب المصرى

في طبعة ممتازة
وتجليد أنيق

الثمن
١٥٠ قرشا

البريد المسجل ١٠٠ مليما
وللخارج ١١٢



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein





محـرم ١٣٦٦ ديسمبر ١٩٤٦

السنة الثانية مجلد ٤ — عدد ١٥

ما وراء النهر [1]

وكان النهر يملى عليه حديثاً عجبا ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصبًّا ، وإنما يرونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحـد أن يقول : من أين يأتى ؟ ولا إلى أين يجرى ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ماعرفوا من أمر الأنهار الأخرى فى الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، سايروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مدناً وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغابات فى الشرق والغرب لتحجب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضا ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب فى بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلوكا .

ولم يكن هذا هو الشىء الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجبا ؛ فقـد عرف الناس أحد شاطئيه وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنبسط فيه السهول الخصبة المأهولة والصحارى الجدبة المقفرة من الشمال . فأما شاطئه الآخر مما يلى الجنوب فقد جهله النـاس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ، ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر وعلى أمد منه غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع فى السماء ، وتبعـد فى فى الارتفاع حتى لا يكاد البصر يبلغ قممها إلا فى كثير من الجهد والمشقة .

(١) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

والثانى أن العبور إلى هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولا ورعباً ؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا منذ أقدم العصور ، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون ، وهم من أجل ذلك لا يفكرون فى العبور إليه بل لا يتحدثون فى العبور إليه إلا فى كثير جدًّا من الحذر والتحفظ والاحتياط . ولعلهم لا يذكرونه بالتصريح وإنما يذكرونه بالإشارة والإيماء ، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو الشديد من شاطئه الشمالى المعروف ، وآثروا أن يقيموا مدنهم وقراهم على آماد بعيدة منه قد قدِّرت تقديراً . وما أكثر المدن والقرى التى اتخذت بينها وبين النهر حواجز كثافا من الشجر ، كأنما كان الناس يكرهون حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذى يليهم ، لا نستثنى منهم إلا أهل هذه الربوة التى أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً ؛ فقد كانوا لا يخافون النهر ولا يرهبونه ولا يكادون يحفلون به ، إما لأنهم كانوا من عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يحفل بما يحفل به الناس ، وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم على ما يتاح لهم من لذات ، وإما لأنهم كانوا أذكى قلوبا وأنفذ بصائر من أن يقفوا عند ما تقف عنده العامة .

ومن يدرى ! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالا أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدهم عما يُقبل الناس عليه من ألوان التفكير .

وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يُعْنَى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسراره ويتعمق دقائق أمره . ولكن للشعراء مذاهب فى البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلا ؛ فلم يكن شاعرنا يتتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه ، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر ، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شئ من فراغ بأن يجلس فى هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدِّقاً فيه مطيلا النظر إليه ، يسأله ويلح فى السؤال ، ويستمليه ويسجل ما يملى عليه .

وكان النهر بخيلا بأسراره ، ضنيناً بدقائقه وحقائقه حتى على هذا الشاعر ، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء ؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شىء من هذه الألغاز لم يرجع النهر عليه جوابا ، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى ، كانت الشمس تفضى بها إليه فى رسائلها الطوال التى كانت تقرؤها عليه منذ يسفر الصبح إلى أن يظلم الليل ، والتى كانت النجوم تفضى بها إليه فى

رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتى كان القمر يرسل بها إليه ضوءه الهادئ المستقر بين حين وحين ، والتى كان النسيم يُهديها إليه فى الليل مرة وفى النهار مرة أخرى ، والتى كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحيانا ، ويخفق بها البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه الهادئة المطمئنة من بعض النجوى .

وكان الشاعر يجد فى هذه الأحاديث متاعا ، ويسجل منها أطرافاً يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا حيناً وسخروا أحياناً .

وهو فى هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقّى أحاديثه ، بعينيه حينا إذ يرقب صفحته المضطربة فى هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ يسمع هذا الخرير الهادئ الذى يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التى طلبها إليه ، وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعوّد أن يفعل فى كل يوم ، وإنما يقف صامتا أول الأمر ؛ ثم يقول : ما ينبغى أن يطول انتظار مولاى لك يا سيدى ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد أُنسيت أن أنبئك بأنه كلفنى أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمى حتى أسعى إليه بعد قليل .

قال الخادم : لا تبطئ يا سيدى ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة إلى لقائك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدرى ! ولكنى أعلم أنه أنفق آخر الليل فى مكتبه ذاهباً جائيا ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكدوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهى .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أنبئ مولاك بأنى سأرقى إليه بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئا ، ولكنه يدير فى نفسه أن هذا الرجل محقق يؤثر حديث الأنهار على حديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه

وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم فى يده كأنه يستمليه، فلم ير بدًّا من أنه ينصرف متباطئا وفى نفسه كثير من الغيظ.

وليس من شك فى أن حديث النهر كان أحسن موقعا فى نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذى لم يكن ينبئه بشىء جديد. فهو يعلم أن لذلك الفتى المترف خطوبا لا تنقضى، بعضها يحدث فى القصر نفسه، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجنحة والدور، وبعضها يحدث فى القرية المقيمة فى أسفل الربوة، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أماكن قريبة أو بعيدة، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيراً ما تشغل صاحب القصر وتثير فى نفسه ألوانا مختلفة من الشعور.

فهو مرة راض عنها ومبتسم لها، يرى أن ابنه فتى قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبث. وهو مرة ضيق بها منكر لها، يرى أن للهو حدوداً لا ينبغى أن يعدوها الفتيان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب، وهو مرة ساخط أشد السخط ثائر أعنف الثورة، يرى أن ابنه قد أسرف فى تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب. وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجه وإنما يشيع هذه النتائج من حوله، ويريد أهلَ القصر جميعاً على أن يثوروا كما ثار ويسخطوا كما سخط، ويُرهق امرأته من أمرها عسراً، يحمّلها أوزار هذا الفتى الذى لا يعرف القصد، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغى أن تقف عنده من الحدود.

يردّ ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته، ولم تعرف كيف تنشئه، ولم تستطع قط أن تمتنع عن تدليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير

ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه فى خطيئة من الخطايا، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه، يريد أن يُشرك الناس جميعاً والأشياء جميعاً فيما يجد. فهو يتجهم للزائرين ويلقاهم بوجه عابس بغيض. ويتحدث إليهم من طرف اللسان؛ وما يزال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطرهم إلى أن يسألوه عن أمره. فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التى يحدثها ابنه الطائش المفتون، ومضى فى أحاديث لا آخر لها، يجد فى ذلك تسرية عن نفسه، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم.

ولكن لا بد مما ليس منه بد؛ فقد ينبغى أن نقبل الأصدقاء على علاتهم ليقبلونا على علاتنا، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن.

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى ونزواته وأحداثه التى يحدثها هنا وهناك ، لمكانه القريب من صاحب القصر . فأى غرابة فى أن يفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان ، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منـه ويقول له ! وأى غرابة فى أن يُعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه فى غير رقة ولا لين ! أليس يكفيه مايسمع من السيد ! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث !

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة ، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً . فقـد كان النهر عصيًّا أبيا ، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه . وكان فى تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألوانا من رسائل اختلسها من ريح الشمال ، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا ، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم فى بعض القلوب من لهيب الحزن والأسى ، وما يزهر فى بعضها الآخر من الذكريات ، وما يساور بعض النفوس من يأس يحبب عبور النهر إلى الأحياء الآمنين ، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروّعا مخيفاً .

وكان الشاعر يستمع لهذه الرسائل ، ويستمتع بما فيها استماعا حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التى لاتنقضى وقدرتهم التى لا تمتد إلى أمد بعيد ، كما يلائم حبهم للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة ، وكما يلائم مايشيع فى قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التى تعجز عن استبقاء الأشياء فتحتفظ بذكراها ، ومن هذا الضعف القوى الذى يأبى أن يسلم الذكرى للنسيان ، فيستبقيها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من بؤس كثير .

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر فى طى هذه الرسائل الإنسانية الممتعة المحزنة ، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع . فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الذاوية الذابلة ! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشـعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس ! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التى تـكون بين أمواج النهر متحدثة

بأنباء الشرق ذلك الذى لم يصل إليه أحد، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذى لا يصل إليه أحد.

ولكن النهر كان يأبى دائما أن يقرأ على الشاعر أو يملى عليه شيئاً غير ما يريده هو. وكان الشاعر يجد فى هذا الإباء والامتناع ما يشقيه ويرضيه فى وقت واحد: يشقيه لأنه يبعده عما يحب، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه. وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا! ولو خُيِّر الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن، وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل. ولكن الشاعر لم يكن مخيرا فى شىء. ومتى خُيِّر الشعراء وأصحاب الفنون فى شىء! إنما هم عبيد الطبيعة، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس، وتخيل إليهم أو يخيلون هم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها فى صيغهم الفنية المألوفة شعرا أو رسما أو نحتا أو تصويرا أو غناء أو إيقاعاً.

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطارىء يطرأ أو طارق يطرق. وليس كل الطوارىء يمكن أن يدفع فى يسر. وليس كل الطارقين يمكن أن يردّ فى لين أو عنف. وقد استطاع الشاعر أن يرد الخادم حين همّ أن يصرفه عن النهر، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذى وضع يده فى رفق على كتفه ونشر فى الجو ضحكا عريضاً وهو يقول فى صوت متقطع: هأنتذا! تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه. متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة!

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل المنظر رائع الطلعة معتدل القامة حاد النظرات، قد امتلأ قوة ونشاطا، وظهر على وجهه المشرق شىء من الجد الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك العريض الذى كان ينشره من حوله فى كثير من التكلف.

ولست أخفى على القارىء أنى حائر أشد الحيرة فى أمر هذا الفتى، كما أنى حائر أشد الحيرة فى أمر أهل الربوة جميعا؛ فكلهم يلح علىّ فى أن أجد له اسما يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس. وكلهم يلح علىّ فى أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عُرفت أسماؤهم التى تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من هذا

الوجود الوهمى الذى يشبه العدم ، إلى وجود إلا يكن واقعا كل الوقوع فهو شئ بين بين ، أقرب إلى الواقع منه إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال . وكلهم يلح علىّ فى أن القدماء الذين عاشوا بين النهرين فى بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطئين حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا الرأى يذهب بهم إلى شئ من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على الجدران حظها من الحياة وحقها فى القربان ؛ لأنها تظل حية بعد موت أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها .

فللأسماء خطرها إذن ، ويوشك الرجل الذى ليس له اسم ألا يكون موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون بى من كل وجه مطالبين بأن أسميهم بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغى أن تسألنى كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون على نحو خاص لا يسمعه أحد غيرى . ولو أنى منحتهم أسماءهم لكان من الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذنىّ إلى أذنيك .

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذى استطعت أن تتصوره من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستانى الذى سميته عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تتبين إلى الآن شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون الإنصاف حين يطالبوننى بأن أسميهم بأسمائهم . ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعنى عقلى الضئيل ، ولا خيالى الكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنى أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسمهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلىّ ؛ فقد أنبأتك أن هذه القصة لم تقع أحداثها فى مصر ، ولا فى بلد متاخم أو مجاور لمصر ، كما يقول الناس فى هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت فى أسبانيا ، لا لأنها وقعت فى أسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها فى أسبانيا خطوب وأهوال ، بل لأن أسبانيا هى الأرض التى تبنى فيها قصور الخيال والتى وجدت فيها تلك الربا التى ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوة بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنى قد أردت بهم شراً وعرضت لهم من قريب أو من بعيد .

فإذا عاهدنى القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيمان فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة فى مصر ولا فى البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا مصريين ولا عرباً ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدى إلى كل واحد اسما يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذى يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود فى نفسه ليس شيئاً يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغى لك أن تظن أنى أمزح أو أداعب حين أغض من قيمة الوجود ؛ فلست أنا فى هذا مبتدئا ولا مبتكراً ، ولست فيه بدعا من الناس . وما أكثر الفلاسفة ، والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شراً أى شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جناية لا ينبغى أن يجنيها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترف هذا الإثم ، ولم يتورط فى هذه الجناية .

ولو سمع لى أشخاص القصة وقبلوا نصحى لهم ومشورتى عليهم ، لما طمعوا فى الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا علىّ بهذا الإلحاح فى أن تكون لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها ؛ ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحمق . وليس أدل على حمقه من طمعه فى الوجود وطموحه إليه وحبه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحمق فأبوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنسمّ الشاعر راغباً ، ولنسمّ الفتى نعيما ، فأما أبوه فلنرجئ تسميته إلى أن نلقاه فى مكتبه ذاك الذى اتخذه لنفسه سجنا منذ آخر الليل .

قال الفتى للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودِّعك ، فقد أزمعت السفر قبل أن يُقبل الليل ، وعزيز عليّ أن أحرم هذه الساعات الحلوة التى أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدنى من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص عليّ من طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذى لم تنبئنا به ولم تهيئنا له ، ولم يقدِّم القصر بين يديه هذه المقدمات التى تعودت أن تسبق سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفى سخرية مرة : فإنها المأساة ياسيدى ! إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغضبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسد فى حياة القصر كل شىء .

قال الشاعر : وما ذاك .

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيح لهم من تجاوز الحدود . يرون ذلك سائغاً حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراماً حين يتصل بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإنى لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدّرت من غير شك أن قد حدث فى القصر حدث ؛ فأنت لم تلق أبى فى حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء كما تعودت أن تلقاه فى كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنقلا بين زهره وشجره ، ملحًّا على بستانيه بالأمر والنهى والسؤال والاستقصاء ، حتى إذا أجهد سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه وتشددت أنت عليه فى أن يريح نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا الجوسق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأنفقتما سائر الضحى فيما تحبان من الحديث .

ولا شك فى أنك قد أنكرت تخلف أبى عن موعده ، واحتجابه عن أخص الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنبائه أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب فى مكتبه ، وأنه طاب أن اوجّه إليه متى أقبلت ، وقد غاظنى أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين

يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعونا الجمال إلى أن نستمتع به فى هذه الحديقة الرائعة النادرة ؛ فلم أسع إليه وإنما سعيت إلى النهر ، وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فإن استطعت أن ترقى إليـه الآن فافعل ؛ فهو فى حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزلته ويبدد عنـه هموماً ثقالا . وما أظن إلا أن حاجته هذه ستتصل وتتصل، فسأسافر حين يُقبل الأصيل . ولـكنى إن أسافر وحدى اليوم فسيتبعنى بعد أيام قوم نبتْ بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدى ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختـلاط العقل .

ثم سكت لحظة كان يعبث فى أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدّم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل فى الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً . ولـكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشىء ، وجعل ينظر إلى الدخان وهو يتلوى تلوياً خفيفاً فى الهواء ، ثم قال فى صوت هادىء لايخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبى إلى الآن مستأنيا حليما .

قال الشاعر : أمفصح أنت لى آخر الأمر عما تريد ، ومعرض أنت عن هذه الألغاز ؟

قال الفتى فى صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أن أبى قد طردنى من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردنى وحدى وإنما طرد معى قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟

قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أرض عن شىء ، وإنما ازددت جهلا إلى جهل وحيرة إلى حيرة . فكيف أقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيم كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجدّ الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازل هو أم جاد ؟

قال الفتى : فإنى لا أعلم أن الناس يتمازحون بالطلاق .

فوجم الشاعر حين وقعت هذه الـكلمة فى نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الـكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان فى صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا .

قال نعيم : إلى أقصى غايات الخطورة ! سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وما ينبغى أن أقول : سرتُ بعض سيرته فى سنه التى بلغها الآن ؛ فقد يجب أن يكون الأبناء حراصاً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون عن الآباء ، ولكننى على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان فى سنى ، وأخطأنى التوفيق فلم يتح لى أن أخفى عليه كل شئ ، وما كاد يظهر على بعض ما فعلت حتى ثارت ثائرته ، فأنكر وسخط ، وأغرق فى الإنكار والسخط ، ثم ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله فى ذلك . فقيل له حين تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعوّد أترابه أن يفعلوا وما كنت تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شئ يشبه أن يكون جنونا فأقسم جهد أيمانه لا رآنى الليل فى قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان الأصيل ، وسيلحق بى غيرى بعد يومين أو بعد أيام ؛ فقد ينبغى أن أهيئ الدار لاستقبالهم فى مستقرنا الجديد .

وهمّ الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيما مضى فى حديثه فقال : إنك رفيق والدى منذ صباه وشريكه فى هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقى من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه لم يُقبل على بعض لذاته كما أُقبل أنا على لذاتى ؟ وهل تعلم أنه وفق دائما لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم أنه كغيره من الناس لها أثناء شبابه وجدّ ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته فى اللهو أحيانا ، فأنكروا عليه فى رفق ، ونصحوا له فى حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً .

قال الشاعر فى شئ من العنف : حسبك ! فما ينبغى أن تقضى على أبيك .

قال نعيم : فهذه هى الجملة التى نسمعها دائما : ما ينبغى أن نقضى على آبائنا ، وما ينبغى أن نخالف عن أمرهم ، وما ينبغى أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين . ولكن أواثق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئاً بالقياس إلى أبنائهم يلائم هذه الخصال التى فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث عن أحكام التربية

والأخلاق والدين ، وحدثني عن هفوتك هذه التي هفوتها فجرّت علينا كل هذا البلاء العظيم . أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك في القرية خطوب ؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب ؟

قال نعيم : وما عسى أن تكون الخطوب التي تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله ، فهو يغدو ويروح لا همّ له إلا نفسه وإلا لذاته القريبة والبعيدة ، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه ! وما أكثر ما يعبث الفتيان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها في السماء ! إنما هي فتاة من أهل القرية راقني منظرها وفتنني سحر لحظها ، فصبت إليها نفسي ، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم . لم أتحرَّج أنا ، ومتى تحرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ! ولم تتحفظ هي ! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد سادتها !

قال الشاعر مروّعا : حسبك ، حسبك ! لستَ سيداً وليست أمة ، وإنما امتزت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعي ، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها : غررتها فاغترت لك ، وما كان لك أن تخدعها ، وما كان لها أن تنخدع .

قال نعيم : ولكني خدعتها فانخدعت .

قال الشاعر : فأنت تجني الآن ثمرة هذا الظلم .

قال نعيم : فإني أود لو أعلم أنكم لا تظلمون أهل القرية ، ولا تعنفون بهم ، ولا تشتطون عليهم ، ولا تظلمونهم ألوانا أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذي اقترفته خطراً ، ولا أهون منه شأنا ، ولا أضعف منه تأثيراً في حياتهم كلها .

إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتفرضون عليهم الحرمان ، تكلّفونهم ما تكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجته ، أخذتم خير ما تثمر الأرض على أيديهم فآثرتم به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريتهم تلك التي توشك أن تكون قطعة من الجحيم ، وأنتم لا ترون بهذا بأساً ، ولا تجدون في أنفسكم منه حرجا . ولو استطعتم أن تزدادوا ظلماً لهم وإثقالا عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه ، ولكنكم تعصرونهم حتى لا تتركوا فيهم معتصراً ، ثم لا تجدون في أنفسكم إلا الرضا ، ولا تحسون في قلوبكم إلا الطمأنينة . تقبلون على هذا مصبحين ، وتقبلون على هذا ممسين ، وتنعمون بثمره هذا بين الصباح والمساء ، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح .

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة فى استثمار الأرض لكم ورفع ثمرات الأرض إليكم، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فانخدعت، وحين غريتها فاستجابت للإغراء.

إنى ياسيدى لا أجحد أنى تجاوزت حدود الخلق والدين، واقترفت إثما من الحق علىّ أن أمحو آثاره، ولكنى فى سبيل هذا كله لم أظلم ضحيتى وحدها، وإنما ظلمت معها نفسى، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه: قدمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنونا من الهدايا، رفعتها إلى نفسى أو نزلت إليها، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة، وإنما كنت عاشقاً خليلا، وكانت عاشقة خليلة. وأنت شاعر ياسيدى تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً.

حدثنى عما تقدمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخرونهم فى غير رفق ولا لين، وفى غير محبة ولا مودة، وفى غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم، وحين تستأثرون من دونهم بثمرة ما يبذلون من جهد، وما يحتملون من عناء.

إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى، ولكنها تنبت الغنى لكم، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً، وبؤسا، وحرماناً. وإنكم لتعلمون ذلك وتقبلون عليه عن تعمد له ورغبة فيه، لا تتحرجون ولا يخطر لكم أن تتحرجوا؛ فإن لامكم فى ذلك لائم أو عابكم عليه عائب دعوتم بالويل والثبور وعظائم الأمور، ونظرتم إلى أنفسكم كأنكم الضحايا، وإلى لائميكم والعائبين عليكم كأنهم الأعداء المغيرون. فما لكم لا تحلون الحلال كله ولا تحرمون الحرام كله، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرمون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحل الله ولا ما حرم!

ثم حدثنى أواثق أنت بأنكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لكم الفرص ما تحرمون على غيركم؟ أواثق أنت بأن أبى إنما يسخط علىّ غيرة على الحق وغضباً للحرمات ورعاية للخلق والدين؟ أما أنا فما أرى أنه يسخط علىّ إلا ضنًّا بى أن أنزل إلى مكانة دون مكانتى، وخوفاً علىّ أن أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الإباء. ولو قد حدثته بأنى أريد أن أتخذ هذه الفتاة لى زوجا لجن جنونه وضل ضلاله. وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ إلا لأنه أشفق أن أتحدث

إليه هذا الحديث . وآية ذلك أنه لم يلمني ولن يلومني حين رآني وحين يراني أداعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة كأسرتنا الممتازة . إنه يراني لذلك كفؤا ، ويرى هذه الأسر موضعا لصهره ؛ فليس عليه بأس أن رآني أقع في شرك هذه الفتاة أو تلك ، ولعله يسعى ويدبر الأمر لأقع في شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة تُصْهِر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وفتى كريم يقترن بفتاة كريمة . كل هـذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تنعمون إن انتهت إلى الخير ، ولا تبتئسون إن انتهت إلى الشر من حق الشباب أن يمضي في طريقه التي قسمت له ، ولـكنهم تمايزوا بين الطرق التي قسمت للشباب ، فللأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطراقة طويلة لم يكد الشاعر يتنبه إليها ؛ لأنه كان مغرقا في الذهول منذ اندفع الفتى في حديثه هذا الجريء العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسماً للشاعر وهو يقول : عُدْ إلى نفسك أو أَعِدْ نفسك إليك ، فليس في الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جداً مما تظن إني خدعت خديجة ابنة الحذّاء فانخدعت ، ودعوتها فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبي ولا ثار ، ولـكان من اليسير أن نرضي الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضي أباها ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هي ، ويلتمس لها الزوج من طبقتها هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها في كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسي موقعاً خاصاً ، واستقر حبها في قلبي استقراراً مكيناً ؛ فلست أرى من الاقتران بها بداً . ولم أتحدث بذلك إلى أبي ، ولـكنه أحس ميلي إليه وتفكيري فيه . نهاني عن هذه الفتاة فلم أنته ، وأغراني بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لإغرائه في نفسي صدى ، ثم أنذر فلم يغن النذير ، وحذّر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التي قالها ، وفعل فعلته التي فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفا إني كنت أبحث عنك لأودّعك قبل الرحيل . وهذا حق ، ولـكن هناك حقاً آخر لم أقله لك ، وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضاً . وبعد فإني سأسافر إذا دنا الأصيل ، وسيتبعني قوم آخرون ، ولكن هناك قوما آخرين

قد سبقونى إلى السفر ، وسألقاهم فى العاصمة . ولن يمضى الأمر بينى وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكنى سأتخذ خديجة لى زوجا . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيها ولا لين .

وهمّ الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شىء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لايلوى على شىء قائلا : لاتتكلف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما تمت عليه ؛ فإنك لن تبلغ من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبذل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداده مترفقاً به لتلقّى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول .

وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لايخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فانه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلا ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسبابا وفتحت له أبواباً .

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعاً وانحنى على الشاعر فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى على شىء .

وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شىء يشبه الدوار لكثرة ماسمع ولثقل ماسمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يلقى نظرة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلا ، ثم يرقى إلى القصر متباطئا وقد أنسى عادته الحبيبة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .

طه حسين

[يتبع]

فى أفق السياسة العالمية

أمريكا والشرق الأقصى

ترك جورج واشنجتون بطل الاستقلال الأمريكى قبل وفاته، وصية سياسية لخلفائه، كانت الدعامة الأولى لمبدأ منرو، ولسياسة العزلة التى اعتنقها الشعب الأمريكى وارتبط بها سياسيوه حتى أوائل الحرب الأخيرة. فقد قال واشنجتون — فيما قاله فى خطبة الوداع — محذراً مواطنيه عواقب الاشتباك فى السياسة الأوربية: «إن لأوربا مصالح معينة لا تربطنا بها أية رابطة وإذا ربطتنا فمن بعيد جدًا، وستنشأ من هذه المصالح مشاكل وخلافات متواصلة تشتغل بها أوربا، وهى فى جوهرها مسائل غريبة عن مصالحنا كل الغرابة». ولقد حرص الأمريكيون على تنفيذ هذه الوصية حرصاً يدعو حقًا إلى الدهشة؛ فقد كانت تربطهم بدول أوربا أواصر القرابة فى الجنس واللغة والدين، ومع ذلك فإنهم فى سياستهم لم يولوا وجوههم قط صوب أوربا؛ فلم يشتركوا فى حروب نابليون ولا حضروا مؤتمر ڤينا أو واحداً من المؤتمرات التى تلت. حتى إذا ما قرر أحد هذه المؤتمرات المنعقد فى ڤيرونا سنة ١٨٢٢ أن تتدخل فرنسا بالقوة لقمع الثورة فى أسبانيا على الملك فرديناند السابع، خشيت الولايات المتحدة أن تكون هذه الحركة مقدمة لتدخل فرنسا أو غيرها من الدول الأوربية الكبرى فى شؤون المستعمرات الأسبانية، التى أدركتها الثورة أيضاً فى الوقت نفسه على اسبانيا، وأزمعت إعلان استقلالها عنها. وحينذاك أعلن رئيس الولايات المتحدة جيمس منرو بالاتفاق مع كاننج الوزير الانجليزى مبدأ منرو الشهير الذى أغلق باب العالم الجديد فى وجه الاستعمار الأوربى، وجعل من أمريكا منطقة حراما على دول أوربا، ومن شؤونها حقًا سائغاً للولايات المتحدة دون غيرها.

على أن الولايات المتحدة إذا كانت قد نفذت وصية واشنجتون فيما يخص أوربا، فإنها رنت ببصرها نحو المحيط الهادى غربا، وما برحت تهتم بشؤونه وشؤون سواحل آسيا فى الشرق الأقصى إلى الآن وقد يبدو للناظر إلى الخريطة

لأول وهلة أن ما يفصل أمريكا عن آسيا عبر المحيط الهادى لا يقل عن ضعف المسافة بين أمريكا وأوربا . وهذا حق ، ولكنك إذا دققت النظر تبين لك أنه لا يفصل إقليم الشكا التابع للولايات المتحدة عن سيبريا التابعة لروسيا فى المنطقة المتجمدة الشمالية إلا بوغاز بيرنج وعرضه لا يزيد على ٥٦ ميلا. ولا تزيد المسافة بين جزر الوشيان التابعة للولايات المتحدة أيضاً وشبه جزيرة كمتشكا شرق سيبريا سوى بضع مئات من الأميال .

وكان أول عهد الولايات المتحدة بالتدخل فى شؤون الشرق الأقصى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ؛ إذ أرسلت الحكومة إلى اليابان الكومودور برى Perry فى سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٤ على رأس قوة بحرية عمادها عشر سفن وألفا رجل ، وطلب إلى «الشوجن» رئيس حكومة البلاد إذ ذاك عقد معاهدة تجارية تجيز للسفن الأمريكية وللتجار الأمريكيين الإقامة ببعض الثغور اليابانية ، وتسمح بقبول قناصل يمثلون الحكومة الأمريكية فى هذه الثغور ، فقبلت اليابان هذه العروض بعد تردد ، وكان هذا فاتحة العلاقات الدولية بين اليابان والخارج ؛ إذ ما لبثت روسيا وانجلترا وهولندة وفرنسا أن حذت حذو الولايات المتحدة وطالبت بمثل هذه المزايا لمواطنيها . وفى هذه الأثناء أو قبلها بقليل كانت الحكومة الإنجليزية قد تدخلت بالقوة فى شؤون الصين وأجبرت حكومتها على فتح خمسة ثغور للتجار الأجانب ، وكانت الولايات المتحدة أسرع الدول إفادة من هذا الامتياز .

وما دعا الأمريكيين إلى ارتياد المحيط الهادى والزج بأنفسهم وسط شعوب شرق آسيا إلا غريزتهم التجارية ، ورغبتهم فى ألا تفلت من نفوذهم هذه المناطق البكر ، الشاسعة فى مداها ، الغنية بمواردها الكامنة ، الآهلة بمئات الملايين من الناس.

وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة كانت تزهد فى التوسع والاستعمار ، ولا تريد أن تتشبه بدول أوربا الكبرى ، فيكون لها أسواق تسيطر عليها وأساطيل تجوب البحار ، وقواعد تلجأ إليها عند الحاجة وتمدها بالغذاء والوقود ؛ فقد اجتازت الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر مرحلة التطور الصناعى ، وبلغت مصنوعاتها ومنتجاتها من الوفرة والجودة درجة دعت القوم إلى البحث عن ميادين جديدة لتصريف الفائض منها ، فلم تلبث أن وجدتها فى الشرق الأقصى . وعلى ذلك جعلت تقوّى مركزها فى المحيط الهادى تدريجا

فاشترت من روسيا سنة ١٨٦٧ شبه جزيرة ألسكا فى الشمال الغربى من كندا ، وفى سنة ١٨٩٣ ضمت إليها جزيرة هوايى . وفى أوائل القرن العشرين قامت الولايات المتحدة بحفر قناة بناما لتصل بين المحيطين الأطلنطى والهادى وتقرب بينهما المسافات البحرية ، وقد عقدت مع جمهورية بناما اتفاقا يضمن لها احتكار منطقة القناة لنفسها دون غيرها .

وفى نهاية القرن التاسع عشر حدث أن اشتد الجفاء بين أسبانيا والولايات المتحدة بشأن جزيرة كوبا التى كانت تابعة لأسبانيا وثائرة عليها ، وكانت الولايات المتحدة تريد أن تحررها من ربقة التبعية الأسبانية حتى تأمن جانبها وتدخل فى نطاقها الأمريكى . وعلى ذلك سرعان ماأدى النزاع بينهما إلى الحرب . وكان بعض الناس يظنون أن أهل الولايات المتحدة قوم جبلوا على حب المال ، وأنه لاقبل لهم بمحاربة دولة أوربية قديمة كأسبانيا ، ولكن الأمريكيين خيبوا ظن العالم القديم ، وانتصروا على أسبانيا بحراً عند سنتياجو بجزيرة كوبا ، وعند مانلا عاصمة جزر الفلبين التى كانت تابعة لأسبانيا . وعند ذلك بدأت مفاوضات الصلح بوساطة فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن جزيرتى كوبا وبورتوريكو فى المحيط الأطلنطى ، وعن جزر الفلبين وجوام فى المحيط الهادى ، وذلك مقابل عشرين مليون دولار لأسبانيا .

وبانتصار الولايات المتحدة على أسبانيا واحتلالها جزر الفلبين دخلت الولايات المتحدة فى طور جديد من سياستها الخارجية . فبينما كانت فى عزلة من ناحية أوربا ، إذا هى فى الشرق الأقصى قد انتهجت خطة تنبئ بتصميم أكيد على أن يكون لها مركز مرموق فى شؤون الشرق الأقصى والمحيط الهادى الشمالى . وعلى ذلك انخرطت الولايات المتحدة عقب انتصارها فى سلك الدول العظمى واتخذت من جزر الفلبين مقاما تشرف منه على بلاد الصين . ولم تعمد أمريكا كبريطانيا فى سياستها نحو الصين إلى تجارة الأفيون تنشره بين الناس سراً وعلانية ، أو إلى القوة الحربية تلجأ إليها ضد الصين كلما قام الخلاف بين حكومة الصين والتجار الأجانب ، وإنما شادت سياستها على رسالة العلم والدين تنشرها فى جمعياتها ومعاهدها ومستشفياتها ، وعلى تبادل التجارة الشريفة ، وأخيراً على ميول العطف والمساعدة التى كانت تظهرها فى المناسبات المختلفة نحو البلاد وأهلها . فمثلا حين قامت حرب الملاكمين الصينيين فى آخر القرن الماضى ضد

الأجانب وانهزم الصينيون وفرضت عليهم غرامات ثقيلة لتعويض الأجانب عن خسائرهم ، نزلت الولايات المتحدة عن نحو نصف نصيبها من التعويض معلنة أنه يزيد على قيمة خسائرها . ولما تكاثرت الدول على الصين ، كل تريد أن تلتهم جزءاً على الساحل الشرقى يكون دائرة نفوذ لها ، أبت أمريكا أن يكون لها شيء فى هذه الاعتداءات ، وظلت إلى النهاية تحترم استقلال الصين ووحدة كيانها ، وتحول بقدر طاقتها دون تمزيق أوصالها واقتسام أراضيها .

وكانت اليابان وروسيا أكثر الدول طمعاً فى الصين بعد أن بدا ضعفها وفساد نظامها على أثر انهزامها أمام الأجانب مرة وأخرى . أما اليابان فإنها أفادت من الأجانب ونظمهم وصناعاتهم شيئاً كثيراً ، فسارعت إلى إلغاء نظام الإقطاع وأرسلت بعثاتها المختلفة إلى الخارج ، وجعلت تصلح من شؤونها وتؤسس نهضتها ، بل قفزتها الحديثة ، على أسس متينة من قوتى البر والبحر ، وتقدم الصناعة والتجارة . وكان طبيعياً بعد أن نما استعدادها أن تجرب قوتها فى ميدان تعتبره مصدر الخطر عليها ، أى فى كوريا التابعة للصين والقريبة من سواحلها والتى إذا احتلتها دولة أجنبية استطاعت أن تهدد اليابان وتعرض استقلالها للخطر . لذلك أخذت اليابان تتدخل فى شؤون كوريا ، وسرعان ما بدأ الاحتكاك بين الصين واليابان ، فقامت الحرب بينهما ، وانتهت بعد بضعة شهور بانتصار اليابان سنة ١٨٩٥ . وقد نزلت الصين لليابان عن جزيرتى فورموزا وبسكادورس ، واعترفت الصين باستقلال كوريا عنها ، فأصبحت تحت رحمة اليابان ، وقد ضمتها إليها فى سنة ١٩١٠ .

أما روسيا فأخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تزحف شرقاً داخل هضاب آسيا وأوديتها حتى ضمت جزيرة سخالين فى سنة ١٨٧٦ ، ثم بدأت تصل أطراف أملاكها عبر سيبريا من جبال أورال إلى ساحل المحيط الهادى بإنشاء سكة حديد سيبريا ومدها داخل منشوريا إلى ميناء بورت آرثر وڤلاديڤستك بعد الاتفاق مع الصين . وبذلك أصبحت روسيا جارة شديدة الخطر لا على الصين فحسب بل على اليابان أيضاً . لذلك صممت اليابان فى دخيلة نفسها على الاستعداد لمحاربة روسيا ، وكانت اليابان تعتبر نفسها أولى الناس بحق الارتفاق بالصين اعتماداً على صلة القربى فى الجنس والدين والجيرة . وقد مهدت للحرب باتفاقها مع انجلترا سنة ١٩٠٢ فارتفعت بذلك فجأة إلى مصاف الدول العظمى . ولما كسبت الحرب

براً وبحراً من روسيا فى سنة ١٩٠٥ أصبحت مع الولايات المتحدة أقوى دول المحيط الهادى .

وكانت الولايات المتحدة هى التى توسطت فى عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تفد اليابان من الحرب سوى جلاء روسيا عن منشوريا وعن نصف جزيرة سخالين الجنوبى، وحلت اليابان محل روسيا فى شبه جزيرة لياوتنج وبورت أرثر، وانفسح المجال أمامها فى كوريا ومنشوريا . وبعد ما كانت روسيا مصدر الخطر فى آسيا على النفوذ الإنجليزى أضحت روسيا حليفة لبريطانيا فى ١٩٠٧، وتحول الاتفاق الإنجليزى اليابانى عقب انتصار اليابان إلى محالفة حربية دفاعية . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن تقف أمريكا بمعزل عن هذه المحالفات تنقم على روسيا رجعيتها وأساليبها الأتقراطية فى الحكم ، وعلى اليابان شراهتها و نزوح اليابانيين بكثرة إلى سواحل المحيط الهادى فى أمريكا ينافسون أهل البلاد فى أرزاقهم ومعاشهم . وهكذا مضت الولايات المتحدة فى عزلتها السياسية القديمة لا ترسم لنفسها خطة عملية صريحة تنهجها إذا ما قضت عليها التزاماتها فى الشرق الأقصى بالعمل ؛ فلا أساطيل قوية أنشأت ، ولا قواعد حصنت ، ولا محالفات مع الدول الصديقة عقدت . وانبنى على هذا الإهمال الفاضح لمسئولياتها أنها أرغمت فى الحربين العالميتين على التدخل بغير استعداد . ولو قد واجهت الحقائق وأنجزت شيئاً مما ذكرنا لأمكن تفادى الكارثتين ولو إلى حد ما . ولما قامت الحرب العالمية الأولى كانت كل من روسيا واليابان إلى جانب الحلفاء ، ولزمت الولايات المتحدة حيدتها طوعا لسياستها العتيقة، إلى أن كثر اعتداء الغواصات الألمانية على السفن الأمريكية، وتركت روسيا ميدان الحرب أثر ثورتها الكبرى فى سنة ١٩١٧، عند ذلك لم ير الرئيس ولسون بداً من دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، فأهاب بمواطنيه أن يمتشقوا الحسام لا كمواطنين أمريكيين فحسب بل كمواطنين عالميين يعملون على تحرير العالم من عناصر الظلم والطغيان . وقد استجاب الشعب الأمريكى لنداء رئيسهم عن اقتناع وطيب خاطر ، كما استجابت له حكومة الصين الجمهورية الجديدة فجعلها تعلن الحرب على ألمانيا حتى لا يطمع فيها طامع إذا انتهت الحرب بانتصار الحلفاء .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى بدا للعالم أن أمريكا التى عجلت بانتصار الحلفاء تزمع أن تعود إلى عزلتها السياسية ، وتترك دول العالم القديم تتطاحن فيما

بينها بشأن الأسلاب الإقليمية . نخرجت اليابان من الحرب العالمية الأولى ظافرة بجزر المحيط الهادى الواقعة شمالى خط الاستواء التى كانت بيد ألمانيا قبل الحرب. ومع أن اليابان قد أخذت هذه الجزر عن طريق الانتداب فإنها حصنتها واتخذت منها قواعد وثبت منها فى ديسمبر ١٩٤١ على بيرل هاربر القاعدة البحرية الأمريكية فى جزيرة هوابى ؛ فكان ترك هذه الجزر بيد اليابان من أهم العوامل التى ساعدت على إشعال نار الحرب الأخيرة فى المحيط الهادى . وقد حاولت الولايات المتحدة أن تسترد اعتبارها فتدعو الدول صاحبات المصالح فى المحيط الهادى إلى الاجتماع فى مؤتمر واشنجتون البحرى سنة ١٩٢٢ ، فكانت النتيجة اعتراف الدول بما فيها الولايات المتحدة بحق اليابان فى الانتداب على هذه الجزر ، وتأييد سياسة الباب المفتوح فى الصين ، وانسحاب اليابان من منشوريا ، وانتهاء العمل بالمحالفة الانجليزية اليابانية والاستعاضة عنها بمعاهدة رباعية تجمع بين الولايات المتحدة واليابان وانجلترا وفرنسا . وقد كان إلغاء المعاهدة الإنجليزية اليابانية من الأسباب التى دعت اليابان إلى البحث عن حليف آخر تستند إليه ساعة الخطر ، فوجدته فى ألمانيا ثم إيطاليا .

ثم تطورت الحال فى اليابان ، فجاءت فى سنة ١٩٣١ وزارة حربية رات أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مطامع اليابان فى الصين .

وكانت الأزمة المالية التى بدأت فى أمريكا سنة ١٩٢٩ قد شملت أنحاء العالم وجعلت الدول تخشى أن تشتبك فى حروب تحملها نفقات لا طاقة لها بها ، فسارعت اليابان إلى مهاجمة منشوريا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ ، واضطرت الصين إلى التقدم لمجلس العصبة بالشكوى . ولكن العصبة لم تكن لديها القوة الحربية التى تستطيع أن ترد اليابان عن عدوانها ، وكل ما كانت تستطيعه أن تكلف بريطانيا العمل ضد اليابان . ولو آنست بريطانيا من الولايات المتحدة استعدادا للتعاون ما توانت ، ولكن الدولتين كانتا فى غمرة من الأزمة المالية ومشاكل السياسة الداخلية . ولذلك لم تلق الصين من العصبة أو من الدولتين السكسونيتين سوى القروض المالية والكلمات المنمقة والتمنيات الطيبة . وعلى ذلك أوغلت اليابان فى منشوريا ، ومنها انقضت على الصين فى سنة ١٩٣٧ فدخل الصينيون أتون حرب طاحنة ماحقة مع اليابان ، حتى لحقتهم الحرب الأخيرة فانصهروا فى نيرانها . ولو قد رضيت الولايات المتحدة بإطلاق يد اليابان فى الصين مادبر

اليابانيون مشروعهم الجهنمى بالسطو بحرا وجوا على الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر وما ترتب على ذلك من انهيار القوة البحرية التى كانت للولايات المتحدة ولبريطانيا فى المحيط الهادى . وتداعى قواعد الحلفاء واحدة تلو أخرى فى سنغافورة ورانجون ، ثم تعرض الهند واستراليا لخطر الغزو الياباني .

وفي بدء الحرب مع اليابان أذعن الحلفاء أمام الأمر الواقع فى المحيط الهادى فركزوا جهودهم فى تنمية سلاح الطيران وتعويض ما فقدوه من سفن الحرب وتوجيه جهودهم نحو قمع الخطر النازى فى اوربا والشرق الأوسط ، حتى يحولوا دون تقابل القوات الألمانية واليابانية فى غربى آسيا .

ولما زال هذا الخطر عقب معركة العلمين وارتداد الألمان أمام ستالنجراد بدأت سلسلة المؤتمرات بين الحلفاء لتنسيق جهودهم وخططهم الحربية ، ولإعلان أغراضهم من الحرب . وكان انعقاد مؤتمر القاهرة فى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصا بشؤون الشرق الأقصى ، وقد قررت الدول الثلاث الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة والصين أنهم مصممون على مواصلة الحرب ضد اليابان حين يتم استسلامها بدون شرط أو قيد ، وأعلن الحلفاء أنهم لا يضمرون فى أنفسهم أية رغبة لكسب مغانم خاصة أو ضم أراض للغير ، ولكنهم يعتزمون معاقبة اليابان على جشعها وغدرها ، فيستردوا منها جميع الجزر والأراضى التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى ، ويعيدوا إلى جمهورية الصين ما سلبته من أراضيها منذ سنة ١٨٩٥ فيعيدوا إليها منشوريا وفورموزا بسكادورس . أما الجزر التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى فهى جزر لادرون ومارشال وكارولينا . ثم أبدى الحلفاء فى نهاية قرارهم أنهم يدركون المآسى التى قاساها أهل كوريا على أيدى اليابانيين ، وأنهم لذلك مصممون على ان تصبح كوريا حرة مستقلة فى الوقت المناسب .

وقد بر الحلفاء بوعدهم بشأن القضاء على قوة اليابان ؛ فما كادت طلائع النصر تزحف غربا من سواحل نورمنديا بفرنسا وشرقا من حدود بولندة قاصدة إلى برلين حتى استعدت قوات الحلفاء فى الشرق الأقصى للهجوم الأخير ، فنزل الأمريكيون على ساحل الفلبين فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ومنها احتلوا جزيرة ايوجيما على مسافة قريبة من اليابان ، ثم احتل البريطانيون رانجون واخترقوا طريق بورما إلى الصين . وأخيرا فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ نزلت أول قنبلة ذرية

على هيروشيما فى اليابان ، فكادت تمحوها وأحدثت من الأهوال ما جعل اليابانيين يخشون على بلادهم من الانقراض إذا تتابع سقوط هذه القنابل على أراضيهم . عند ذلك خشيت حكومة السوفييت التى كانت مرتبطة مع اليابان بمعاهدة الحيدة لمدة خمس سنوات ابتداء من ١٩٤١ أن يتم استسلام اليابان دون أن يكون لروسيا شأن فى تقرير مصيرها ، فأعلنت عليها الحرب . ونزلت القنبلة الثانية على نجازاكى فى ٩ أغسطس ، فكانت القنبلة الأخيرة فى الحرب والآخرة بالقياس إلى اليابان ؛ فقد استسلمت فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ .

وبخروج اليابان من ميدان التنافس فى المحيط الهادى وقفت روسيا وجها لوجه أمام الولايات المتحدة . وقد كانت الولايات المتحدة حريصة فى الماضى على بقاء قوة روسيا على سواحل آسيا الشرقية لتتخذ منها حليفاً يصد اليابان من الخلف عند الحاجة . أما الآن وقد انتهت قوة اليابان ، فإن روسيا وأمريكا أصبحتا قوتين متجاورتين وليس الخطر من روسيا على أمريكا منشؤه الأطلنطى والتنافس الأوربى كما يبدو لأول وهلة ، فبين الولايات المتحدة وروسيا من ناحية الأطلنطى حاجزان : الأول كتلة الدول الغربية تتزعمها بريطانيا وفرنسا والأراضى المنخفضة ، والآخر دول الحدود التى تترس خلفها حكومة اتحاد السوفييت مثل بولندة ، وتشكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر .

وقد كان يظن والحرب مستعرة بين الحلفاء ودول المحور أن الترابط الوثيق الذى ساد بين الحلفاء سينمو ويطرد بعد الحرب ، ولكن الدلائل كلها تنبئ بظهور النزاع الايديولوجى القديم بين الدول الديمقراطية وغيرها . وهذا الغير كان فى أثناء الحرب الدول الفاشية ، فأصبح بعد الحرب حكومة السوفييت . وبعد أن كانت روسيا قد ألغت فكرة الشيوعية الدولية عادت بعد الحرب تشجع رسلها وأعوانها فى جميع أنحاء العالم ، وصار من المألوف لدى ساسة السوفييت أن يوعزوا إلى جيرانهم بتأليف حكومة صديقة ، ويقصدون بالصديقة أن تكون اشتراكية شيوعية تستمد وحيها من قصر الكرملن بموسكو ، حتى أحاطت بها حكومات شيوعية لا فى البلقان ووسط أوربا فحسب بل فى منشوريا ومنغوليا وكوريا الشمالية فى الشرق الأقصى . ولو لم يسارع الحلفاء إلى تعيين الجنرال ماك أرثر الأمريكى على رأس الهيئة المحتلة باليابان لتدخلت روسيا ولاتخذت من شعور الأهالى بالهزيمة ومن فقرهم المدقع سبيلا إلى تلوين البلاد باللون

الأحمر . ولا تزال بلاد الصين الجنوبية التى يسيطر عليها المارشال تشانج كاى تشك تعانى كثيراً من جانب الشيوعيين شمالا وغربا . لذلك تقف حكومة الولايات المتحدة الآن حارسة لاستقلال الصين وحمايتها من الثورة الشيوعية، كما تقف محتلة جنوبى كوريا وعاصمة « سيول » لدرء الخطر الشيوعى المنبعث من القسم الشمالى الذى تحتله روسيا . ويبدو أن الولايات المتحدة ستتمسك بالجزر ذات الأهمية الاستراتيجية فى المحيط الهادى وهى التى كانت تحتلها اليابان، وقد تتولى أمورها نيابة عن مجلس الأمن . وستكون أعباء الولايات المتحدة باهظة إزاء تبعاتها فى العالم؛ فعليها أن تحتفظ بتفوقها البحرى والجوى فى المحيطين العظيمين الاطلنطى والهادى . ولعمرى إن هذا وحده سيتطلب نفقات طائلة ما لم تؤيد مركزها فى المحيطين بالتحالف الدائم بينها وبين الدول الصديقة بريطانيا والصين وروسيا . والاتفاق بين روسيا وأمريكا وإن بدا متعذرا من الوجهة الايديولوجية، فهو من الوجهة الاقتصادية قريب ويسير، وقد قامت الأدلة العملية أخيراً على أن مستقبل الطيران فى المسافات البعيدة مرهون بالملاحة الجوية فوق سطح الكرة الأرضيـة عن طريق المناطق القطبية ، وهذا يستدعى توثيق الروابط بين الدول التى تسيطر على هذه المناطق وهى روسيا وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا. وليس بين هذه الدول بعضها وبعض خلافات بشأن حدودها أو ضم أجزاء من أراضيها ، وإنما الخلافات جميعها وقتية منشؤها سوء الظن وتوتر الأعصاب بعد الحرب .

ولقد غيرت الحرب من شؤون المحيط الهادى تغييراً كليـًّا، فالصين أصبحت دولة كبرى ، وكلما تقدمت فيها حركة التحول الصناعى ، وكشفت كنوزها المدخرة فى باطنها ، انفسح مجال العمـل والرقى أمام الأربعمائة مليون نفس التى تسكن هذه القارة . ولا ننسى أن السنتين أو الثلاث التى قضتها اليـابان فى السيطرة على شعوب شرقى آسيا قد وضع أمام هذه الشعوب مثالا حيـًّا للتحدى وإمكان التغلب على الجنس الأبيض ، وخلق فيهم روحاً جديدة تصبو إلى التحرر من نير الاستعباد الأجنبى ، وإلى تحقيق الشعار الذى كانت تنادى به اليـابان لاستمالة هذه الشعوب إلى جانبها وهو أن « آسيا للآسيويين » .

وجميع هذه الشعوب عناصر جديدة غير مستقرة على حال قد أيقظتها هذه الحرب العالمية الثانية ، وفتحت عيونها إلى آراء وآفاق جديدة ؛ فكل شئ

فى الشرق الأقصى ملغم مشحون بالكهرباء ، ولا يعلم أحد متى ، أو كيف ، أو أين تنطلق هذه القوات المكبوتة المحبوسة طوال هذه القرون الماضية والتى تمثل أكثر من نصف سكان العالم . وستكون بلاد الصين بلا شك هى المحور الذى تدور عليه عجلة التطور فى هذه المناطق ، وفيها أيضاً تتقابل العناصر الأمريكية والروسية (وربما تدخلت اليابانية بعد زمن) . وعلى تعاون هذه العناصر أو تشاحنها يتوقف مصير الشرق الأقصى بل مصير العالم . إما حرب وإما سلام .

محمد رفعت

أبو الهول يطير . . .

[خواطر ومشاهدات ، كان الكاتب يقيدها أثناء رحلته من مصر ، للتنقل بين أمريكا وفرنسا وسويسرا طوال ستة أشهر .
وقد شاء الكاتب أن يضمن هذه الخواطر والمشاهدات رسائل وجهها إلى ولده الراحل ، وأهداها إليه .
وفيما يلي كلمة إهداء ، تتبعها الرسالة الأولى .]

إهـــداء

إليك . . .
إليكَ يا أعز من أحببته ، َويا أعز من فقدته . . .
إليكَ أنتَ يا من لا أسميك . . . فإن اسمكَ لم يعد يجرى على لسانى منذ أضعتك . . .
إليكَ أخط هذه الرسائل .
إنى لأبعث بها إليك واحدة تلو الأخرى ، لعلى أتنسم من توجيهها إليك برد السلوى ، وإنها لتطالعك فى عالمك العلوى ، لعلها تحمل إليك خوالج القلب ونجوى الضمير !
تهتاج بين جوانحى رغبة متقدة فى الكتابة إليك ، فى التحدث معك ، فى مخاطبتك . . . فى فك الإسار عن نفسى التى تتنزى فى القيود والأصفاد !
لقد أسكنت هذه النفس قمقما من قماقم سليمان ، وأحكمت سدَّه بالرصاص ، وقذفت به فى قاع المحيط ، هنالك تحت أعماق الماء ، حيث يتكدس الظلام والصمت طبقات فوق طبقات .
ظلت تلك النفس حبيسة قمقمها ثلاث سنين طوالاً كأنها دهور تتلاحق ،

ولكن فى هذه الساعة التى ازمع فيها سفراً لا أدرى ما ذا يكون مصيرى فيه تنبعث صرخة يضطرب لها ذلك القمقم ، صرخة تنفذ من الرصاص ، وتخترق أطباق الصمت والظلام ، وتشق أعماق الماء ؛ فإذا هى تبلغ أذنى ، وإذا هى تملأ سمعى بالدوى . . .

إنها رغبة النفس فى أن تناجيك ، فى أن تتصل بك ، فى أن تفنى فيك !

ثمة اتصال دائم بينك وبين هذه النفس السجينة ، بيد أنه اتصال صامت ، لا كلمة فيه تقال ، ولا لفظة فيه تدوَّن . أما اليوم فإن هذه النفس شيقة إلى أن تتكلم . . . وإنى لتاركك لها هذه الأوراق البيض ، لتخط فيها ما تهفو إلى الإفضاء به إليك !

تلك هى الرحلة الأولى التى تتخلف فيها عن مرافقتى ، فلقد نعمت بصحبتك فى أسفارى جميعاً . . .

أنت تتخلف اليوم على الرغم منك ، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة منى . . .

إنها يا بنى مشيئة القدر ، ومن ذا يردّ القدر إذا شاء ؟

ولكن أى تخلف منك ؟ وأى رحيل منى ؟

إننا نقيس القرب والبعد فى هذه الدنيا بمنطقنا القاصر ، ونظرنا الكليل . . .

أثمة رحيل ينأى بى عنك حقًّا ؟

ربما ضمنى ، أنا وإنسان آخر ، مكان واحد ، مكان ضيق لا يتسع لأكثر من شخصين ، فأشعر مع ذلك ببعد الشقة بينى وبينه ، بل إنى لا أحس لهذا الجليس من وجود ؛ على حين إنه قد يفصلنى عنك شاسع الأرجاء وهول الطريق ، فأحس كأنك تلمسنى ، وأشعر بنسمات أنفاسك تصافح وجهى !

لا رحيل يابنى ولا تخلُّف ! . . .

إننا نصطنع المألوف من الكلام ، ونساير المتعارف من الألفاظ ، حتى يكون حديثنا بين الناس غير مستغلق ولا مستغرب ولا مكروه . . . ولعمرى لو تركنا لأرواحنا حرية التعبير ، لا تخذنا لغة لا تصلح إلا فى مخاطبة الأرواح للأرواح !

لا رحيل يا بنى ولا تخلف . . .

أنت فكرة خالدة تحوم فى مخيلتى لا تبرحها أبدا ...

أنت نجوى تهجس فى صدرى فى تعبد وتبتل صباح مساء ...

أنت خفقة القلب تجمعت فيها عناصر حياتى ...

أنى لأزمع الرحيل ، لا تسرية عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة فى قلبينا يلتمس الشفاء فى تلك البلاد القاصية ...

أما كان أحرى أن تكون أنت مكانى ، ترعى هذا العزيز فى غربته ، وتدعنى مكانك أتوسد الثرى عنك ؟

قسما يابنى ما كنت أطلب من الله أمنية أجل من تلك ، ولكن الله يصرف الأقدار وفق مشيئته التى نسلم لها القياد ، وإن كانت عقولنا القاصرة تعيا عن إدراك ما فى هذه الأقدار من حكمة وما لها من مرمى ...

إنها إذن مشيئة الله ، أن أرحل أنا وتبقى أنت ؛ كما كانت مشيئته من قبل أن ترحل أنت عن دنيانا وأن أبقى أنا فيها أقضى أياماً أخر !

وإنها كذلك مشيئة الله : بينما يدعوك إلى جواره الأعلى ، مخلفا قلوبنا فى ظلمة وعبوس ، إذ يبعث إلينا نجماً [1] صغيراً ما فتئ نوره الوادع منذ بزغ يحاول جاهداً أن ينير هذه القلوب ، وأن يهدى إليها راحة الرضا بما هو مكتوب ومقسوم ...

بذلك الصغير الذى راح ينمو بيننا ويتفتح كتفتح الزهرة باكرها الطل ، بدأنا نستعيد طفولتك المحببة ، ونعرض أطوار حياتك البهيجة ...

لقد ظهرت بيننا المعاطف الصغيرة ، والقبعات العريضة ، والأحذية الدقيقة ...

لقد تراءت فى حديقة المنزل تلك العربة التى تدفع باليد مرتقبة خطا الطفل الجديد ...

لقد تعالت فى أجواء المنزل جلبة صاخبة مشبعة بالحياة والبهجة ؛ لتوقظ المنزل مما ران عليه من ركود وخمول ...

ها أنت ذا تعود إلينا يا بنى ...

تعود إلينا بابتسامتك الوضاحة ، بضحكتك الرنانة ، بعبثك المستظرف ، بمرحك الحى ...

---

(١) حفيد الكاتب .

يا لله ... كأنك بيننا لم تفارقنا ، وكأننا معك لم نفقدك !

إننى حين أُقبل على ذلك الصغير ، فياض الحنين ، أضمه إلى صدرى وألثمه ، يخيل إلىّ أنى أضمك أنت يا بنى وألثمك ! ...

كنت دائما طفلا أمام عينى ...

إن الوليد ليظل صغيراً فى نظر والديه ، وإذ شب شبابه ، وإن علت به السن ، وإن علاه المشيب ...

إنه هو هو ذلك الصغير الذى نزجيه دَوْماً بالعطف والتفقد والنصح المملول ...

أنت طفلى ، وستلبث طفلى أبداً ، صبيًّا كنت أو كهلا ، حيًّا كنت أو فى عداد الراحلين ...

وهل كنت إلا طفلا وأنت على فراش مرضك الأخير ؟

لقد كنت ترنو إلىّ ، وتطلب منى أن أحيطك بما ألفته منى من حنوّ ، وتسألنى أن أخفف عنك ما تعانى من تباريح الألم . ولطالما قلت لى : متى أغادر سرير المرض وأعاود مألوف العيش ، فكنت أؤكد لك أن الشدة زائلة ، وأن الصحة مقبلة ، وإن هو إلا يوم أو بعض يوم ...

كنت أرددُ ذلك لك بلسانى ، فأما قلبى فإنه كان يحس هول الفاجعة من بعيد ...

كان مثلى كمثل ذلك الحيوان الذى يحس بغريزته هبوب العاصفة العاتية قبل أن تسجل آلة الرصد ما فى الجو من انقلاب ! ...

كنت أحس أنك توشك أن تنساب من بين يدىَّ انسياب الماء من بين الأصابع ، حتى حل اليوم الذى وجدت فيه يدى قد صفرت منك ، فجاهدت لأبقى فى راحتى ما أستطيع إبقاءه ، ولو بضع قطرات ... ولكن ذهب الجهد والجهاد عبثاً ، فإن أديم يدى كان قد جف وتشقق من لفحات الهجير ، فلم يعد لأية قطرة مكان فيه !

لقد تطايرت من بيننا ، يا بنى ، كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سدادتها ، فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيباً يشيع فيما حولنا من أجواء ...

لم لا أضع صورتك هنا لتزين هذا الحديث وتجمّله ؟

إنها فكرة خامرت رأسي وقتاً ، ولكن العزم على إنفاذها أعوزني .
إني لأجاهر بضعفي وجبني حيال هذا العزم ؛ فليس لي من قوة ولا من جلد أستعينهما على مواجهة رسمك يا بني !
إن صورك ماثلة في ركن خاص بها ، ماثلة في محراب أقامه لك شخص عزيز المكانة في قلبينا . . .
هو محرابه القدسي يقضي فيه الساعات رانياً إليك ، يرشف الألم قطرات على مهل في نشوة واستعذاب !
أما أنا فكلما مررت بهذا المحراب عامداً أو غير عامد ، زاغ عنه بصري وازورّ . . .
إن « الرجل » منا ليجعجع بشجاعته ، ويعتد بقوته ، ولا يفتأ يزهو ويفاخر ، حتى إذا لمح طيف الألم يتخايل أمام عينيه ، فر منه ما وسعه الفرار . . .
ولكن « المرأة » تستمرئ الألم وتقدم عليه ، ولا تبغي به في النوائب والأرزاء بديلا . . .
تلك خطرات جاش بها القلب يا بني ساعة الرحيل ، أناجيك بها حين أستودعك الله . . .
وإلى اللقاء القريب !

الرسالة الأولى : أهبة السفر

٤ ابريل سنة ١٩٤٦

أي بني :

في صباح اليوم المتم للثلاثين من مارس المنصرم ، دق جرس « التليفون » واحطت علماً في لهجة بالغة الأدب وإن كانت لهجة حاسمة بموعد قيام الطائرة ، فإذا به بعد أربعة أيام . . .
أية طائرة ؟ وأية أيام أربعة ؟
وتذكرت أني سجلت اسمي في القنصلية الأمريكية للظفر بالأسبقية في

ركوب الطائرة . . . كان ذلك منذ أشهر . . . أشهر تقضت دون أن يتخللها حديث فى هذا الصدد ، حتى عزب عن بالى أنى مقبل على سفر . . .

ها قد تبين الأمر ، فإذا هو جد لا هزل فيه . . . بعد أربعة أيام أطير إلى نيويورك . . . ولكن هل تكفى هذه الأيام الأربعة فى إعداد عدة الرحيل ؟ ألا أراجع ولاة الأمر لتأجيل الموعد ؟ عبث ما أفكر فيه ! . . . إنها أوامر يتلقاها طلاب الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقى الجندى أوامر القواد . . . أليس العهد قريباً بحالة حوب ؟ إذن فلنذعن لهذا الأمر صاغرين صابرين إذا طمعنا فى تحقيق ما نصبو إليه . . .

ونهضت أعمل . . . يجب أولاً أن أحضر ما يجب علىّ أن أقوم به ؛ وإذا بالمطالب والشؤون قد تشابكت وأخذ بعضها بتلابيب بعض . فبأى شئ أبدأ ؟ وبأى شئ أنتهى ؟

وبذلت جهدى فى حصر الأعمال . . . ومَثَل لخاطرى على الفور إعداد الحقائب ، بل أستغفر الله إعداد حقيبة واحدة لى ، ومثلها لزوجى . . . حقيبة من الوزن الخفيف ، لا تزيد زنتها على خمسة وعشرين كيلو . . . الأمر إذن هيّن ، إن نصف ساعة أو نحوه ليكفى لإعداد متاع لا يزيد وزنه على هذا العدد . . .

واطمأن قلبى ، وهدأ بالى ، يبدو لى أن اهبة السفر ليست من التعقيد على النحو الذى كنت أتصوره . . .

وما كدت أستريح إلى هذا الخاطر ، حتى وقع بصرى على إضمامة منتفخة تحوى بعض الأوراق الخاصة بإدارة أعمالى . . . وانسرحت أفكر . . . يجب أن أصفّى هذه الأعمال ، وأن أكلها إلى من يحسن إدارتها فى غيبتى . . . ها هو ذا عمل ليس بالهيّن الميسور ، ولكن إنجازه لا بد منه على أية حال !

وماذا بعد ؟ وهنا انبرى أمامى شبح لجنة العملة ، ومن ورائه تبدو أشباح أخرى : المصارف ، مكاتب الصيارفة ، دار شركة الطيران ، وما إليها . . . وما فتئت هذه الأشباح تتدافع دونى وتتواثب ، يحاول كلٌ منها أن يكون أول آخذ بخناقى ! .

وفى أثناء هذا الهرج والمرج أحسست دبيباً فى درج مكتبى ، وهمساً يرف على مسمعى ، وإذا بى أنصت إلى من يقول :

أنا رائدك الأول . . . أنا مفتاح الطريق . . . لن تستطيع بغيرى سفراً !
فجذبت الدرج إلىّ ، فإذا بجواز السفر يعلو بهامته جِدّ معتزّ . فمددت يدى إليه يدى فى تخشع ، ثم انثنيت أميط عنه الغبار !

أمامى تلك الأيام الأربعة ، لانجاز هذه المهام وما يتصل بها أو يتفرع منها . . . ومن هذه الفترة القصيرة يوم الجمعة الذى تغلق فيه مصالح الحكومة أبوابها ، ويوم الأحد الذى تأخذ فيه المصارف ومكاتب العملة قسطها من الراحة والتعطل . . . فليكن . . . أمامى يومان ، ثمان وأربعون ساعة طوال عراض ، مهما تقتطع منها ساعات نوم واستجمام فالبركة فيما يبقى !

وشمّرت عن ساعة الجد ، وأطلقت ما أختزنه من قوة ونشاط وحماسة ، وانطلقت أعمل . . . كان مثلى كمثل تلك الأشباح السينمية حين يخطىء العامل فى تحريكها فتلمحها على الستارة البيضاء خاطفة مضطربة !

وانكببت على الاستمارات أستوفى تحريرها ، فما أكاد أفرغ من واحدة حتى تعترضنى الأخرى . أما الإمضاءات فكنت أبعثرها ذات اليمين وذات الشمال . وجعلت أذرع الطريق بين لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنة العملة مثنى وثلاث ورباع . . . إن شركة الطيران تستمسك بموعدها لا تتأخر عنه ، وإن المصرف لا يحوّل مليما واحدا إلا بتصريحات مستوفية للشروط مذيلة بإمضاءات معترف بها على أوراق رسمية ، ولكن لجنة العملة لا يعنيها من ذلك شئ ، فأعضاؤها الموقرون فى شغل بشؤونهم وآفاقهم عن ضيق الوقت ودقة الموعد وتعجّل الناس . . . !

وتعلمت بين عشية وضحاها كيف أكون هجّاماً لجوجاً ملحاحاً ، واستبان لى ما لهذه الصفات المباركة من فوائد طالما أنكرتها وأنحيت باللائمة على ذويها . . .

ثم ألفيتنى بغتة وأنا أتلقّط الدولارات من مكاتب الصيارفة ، قد أصبحت بالرغم منى خبيراً فنيًّا فى العملة الأمريكية ، أميز بين الدولار الجيد والزائف الحرّ والمدنى ، المباح والمحظور !

وأحسست بأعصابى تنهار . . . إنها حرب أعصاب فى مقتبل ساعات السلم !
وأخيراً تم كل شئ بما يشبه المعجزة ، ووجدتنى مزوداً بكل ما هو مطلوب من التصريحات والمستندات والمعدات . . . وألقيت نظرة خاطفة على محفظة

جيبى ، فإذا هى قد تورمت ، وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يشبه التضاريس والهضاب ! . . .

وحلت ساعة الميزان ، فررنا بحقائبنا فى الطريق إليه كأننا نجتاز الصراط . . . ثم صعدنا فى السيارة الحافلة مع رفقة السفر ، وبدأنا نتعرف إليهم بنظرات حيية متعثرة ، وكأن لسان حالنا يقول :

أمقبلون نحن على سفر يسلمنا إلى عالمنا المنشود ، أم على سفر يصير بنا إلى عالم الخلود ؟

وتحركت السيارة الحافلة ، تتأثرها سيارات المودعين ، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل . . . وقضينا الوقت فى صمت لا يَقْطَعُه إلا نثار ألفاظ وظلال ابتسامات تضطرب بها الشفاه . . .

ودخلنا مطار پين فيلد تلك المدينة التى شيدها الأمريكيون فى أحرج ساعات الحرب ، تلك المدينة العامرة الزاخرة تخترق رحابها الطرق الفسيحة المعبدة ، تلك المدينة التى تبدو فى ظلمة الصحراء المترامية وقد أضاءتها سواطع المصابيح الكهربية معلقة فى الفضاء أو متناثرة على أديم الأرض . . .

واقتادونا إلى « الجمرك » . . . وما إن بلغت حوزته حتى ثارت فى نفسى ذكريات غير محببة . . .

« الجمرك » . . . هو تلك الساقية العظيمة تدور رحاها فى قوة وجبروت ، ولكنها فى واقع الأمر تدور على نبع غاض ماؤه ، فإنك لتسمع نعير هذه الساقية يشق أجواز الفضاء ، ثم لا تلمح لمائها من أثر !

« الجمرك » . . . هو تلك المؤسسة التى أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، فاتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ! . . . إجراءات تافهة تثير الضحك إن لم تثر الغيظ وترهق الأعصاب . . .

وظهرت الاستمارات عوداً على بدء . . . علينا أن نحررها ، وأن نستوفيها بإجابات غاية فى التفاهة . . . وحنينا هاماتنا نكتب ونمضى ، وأحيانا نسأل :

ما المراد بهذ السؤال ؟ وكيف يكون الجواب ؟

وارتفعت يد الضابط بالخاتم العظيم تضرب هنا وهنالك فى مهارة حرية بالتقدير ، إنه ليضرب ضربا محكما كأنما يسدد الطعن فى ميدان القتال . . . وأخذ الضابط الهمام يجفف ما تفصد من جبينه فى زهو المنتصر الغلاّب . . .

ألم يؤد عملا بالغ الجلالة عظيم الخطر ؟ إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة ان تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان ؟

ثم اتجهنا إلى الخوان الطويل صُفَّت عليه الحقائب . . . هذا ضابط آخر تشمَّر واهتم وأخذ يتصايح :

تلك الحقيبة تفتح ، أما هذه فتحمل إلى الخارج ، ماذا فى هذه اللفافة ؟ حذار أن يكون فى ذلك الصندوق شئ محظور !

فلا تكاد الكلمات تتناثر من فمه ، حتى تتحرك الحقائب وما إليها من الأمتعة غادية رائحة كأنما تحركها يد ساحر !

ومَثَلْنا أمام الخوان ، كلٌ منا يرتقب نوبته ، فدهمنى شعور ممض ، شعورُ برىء تهدر كرامته ، يرى نفسه فى قاعة محاكمة وموقف اتهام ؛ كأنه أحد مهربى المخدرات ! . . .

وأخيراً أُفرج عنا ، فخرجنا « طابوراً » من بهو « الجمرك » ، ومن حولنا الأهل والرفاق . . . خرجنا إلى ساحة المطار ، فإذا « أبو الهول [1] » رابض أمامنا ، باسط جناحيه على أُهبة الطيران . . .

كان باسمه التاريخى العتيق ، وهيكله العصرى الحديث ، كأنما يجمع بين جلال الماضى التليد ، ومدنية الحاضر المشرقة الزاهية . . . إنه رمز حضارتين عظيمتين : حضارة مصر العريقة ، وحضارة أمريكا الفتية المتوثبة . . .

ولبثت لحظة أتأمله . . .

لست جماداً يا « أبا الهول » . . .

ما أنت إلا مخلوق حىّ ، طائر ضخم من فصيلة النسور والعقبان ، بل أنت أخو الرُّخّ وصنو العنقاء ، طائر هائل الجرم مما تدور عليه أساطير الأولين . . .

نحن مقبلون على أن نحيا معك فى أسطورة جديدة نخطها معا فى سفر الوجود !

ما أبهاك فى لونك الفضى !

إنك لتتألق وسط الظلام كشعاع الفجر ينتظر خلف أستار الأفق البعيد . . .

---

(١) اسم الطائرة .

سنسلمك أرواحنا أيها الطائر العظيم . . . فهى وديعتك ، إن شئت أضعتها هباء ، وإن شئت كنت لها نعم الحافظ الأمين . . .

وتلفتُّ حولى ، فإذا بى أنا وزوجى يحيط بنا المودعون . . . إذن حانت ساعة الوداع . . .

وشعرت بغتة كأن قلبى تهصره يد قاسية . . .

وثارت بى فجأة ذكريات . . . ذكريات يزحم بعضها بعضا . . . ذكريات شتى جليلة وتافهة !

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! . . . وتتداعى المشاهد فى مخيلتنا ، وتتلاحق سراعا ، حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور واحد ولا تفتأ تدور .

وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبّلين ، وتثور فى النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتنهار فى لحظات تلك الشجاعة التى نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال أمام وداع طفل صغير قد تصاغرنا وأصبحنا فى مثل حجمه وعقله وشعوره ! . . .

أى بنى !

إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثق أنه لا يقاس بشىء أمام وداع « الراحلين » . . .

إننا حين نودع الحى فإنما نشاهده ونلمسه ونناقله الكلام ، أما « الراحل » فإنما نستشعر وجوده فحسب . . . إنه يبـدو من أغوار الظلمات ليطالعنا من بعيد . . . متخذاً له مكاناً نائياً عن الزحمة والضوضاء . . . لا نشافهه بحرف ، ولا نودعه بقبلة ، ولا نبادله شيئاً حتى الإشارة والتلويح !

ثمة نظرات صامتة تصحبها ابتسامات رقيقة كلها صفاء وحنين . . .

هذا الطيف الرقيق يظل فى أفقه ، لاصلة بيننا وبينه إلا صلة الروح بالروح . . .

أى بنى !

ها هوذا كل شىء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدنا . . .

لقد تزايلت أصوات الأحياء بما تحمل من تحية وتوديع ، وبقيت أنت . . .

أنت الوحيد الذى مازلت أراه . . .

إنك لتملأ عليّ الرحاب والآفاق ...

وإني لأحس وجودك إحساساً كله صـدق ويقين ... وجودك مادة متجسدة لا طيفاً من عالم الروح!

حقاً إن الموت لأعجز من أن يفرّق بين حبيبين ...

إنه ليوهمنا أنه أقام بيننا الفواصل والحدود ...

زور وبهتان!

ما أغفلك أيها الموت! .. تحسب أنك انتصرت وما أنت إلا منهزم مقهور!

وصعِدنا في الدرج ندخل «أبا الهول» ... وغبنا في جوفه. فكأنما التقمنا حوت!

وطافت بمخيلتي قصة «أيوب» فساءلت نفسي:

أيكون حالنا كحاله، ومآلنا كمآله؟

وقصدت أحد المقاعد، فتهالكت عليه.

وسمعت صوت الباب يدفع بشدة، فإذا هو يفصل بيننا وبين عالم الأرض...

وتراءت لأعيننا جملة مكتوبة بأحرف من نور:

«التدخين غير مباح ... ليشد كل منكم حزامه».

وسرعان ما شاهدت شابًا طلق المحيا في حلة رمادية رسمية، تنطق كل جارحة فيه بأنه أمريكي أصيل، فدنا مني في تلطف، وأخذ يعينني على عقد النطاق حولي، فأصبحت إلى مقعدي مشدوداً لا أستطيع البراح...

وبدأت المحركات تدوّي، وأحسست «أبا الهول» يتحرك، وما هي إلا أن رفع هامته، فإذا نحن بعد لحظات نشق الأجواز صُعُداً إلى السماء، تحيينا نَسمات السَّحَر!

محمود تيمور

البومة والعندليب

«في ركن آمن سحري من وادٍ ناءٍ سحيق سمعتُ بومة وعندليباً يتناظران . وكانت المناظرة بينهما حادة عنيفة عنيدة ، تهدأ الأصوات فيها حيناً لتعود عالية صاخبة من جديد . كل طائر مغيظ من صاحبه ، حانق عليه تملأ ألفاظه القسوة ، ويبيح لنفسه من الكلم ما لا يستباح ، ويسب أخلاق صاحبه بأسوأ ما تصل إليه قريحته من سباب ، وكان أكبر همهما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وينتقده نقداً صريحاً واضحاً لايحتاج إلى تفسير أو بيان . »

ثم نقل إلينا الشاعر الإنجليزي المجهول هذه المناظرة الطريفة في عالم النقد والأدب بكل أمانة وإخلاص . فإذا قصيدته حلقة ممتازة في سلسلة المناظرات التي أقيمت في الأدب النقدي منذ أيام أرستوفان في أثينا القديمة إلى اليوم . موضوع من موضوعات النقد يطول النقاش حوله ، أو يتحسس الأديب بحسه المرهف انشغال عقول الناس به فيعرضه في صورة أدبية خلابة يبين كل ما يمكن أن يساق من حجج معارضة أو مؤيدة ، لا ليخرج بنتيجة ، فلعل هذه آخر ما اهتمت به تلك الفئة من الشعراء الناقدين ، ولكن ليعرض علينا الصورة الجميلة في حد ذاتها ، وليبين لنا تلك الحجج في حد نفسها ، فيرضي بذلك الحس والعقل معاً . كل ما في الأمر أنه اتخذ موضوعاً لقصيدته أوقطعته الفنية قضية نقدية بدل أن تكون قضية سياسية أو اجتماعية أو لا قضية .

واختلفت آراء النقاد في هذه القصيدة ماذا كان يعني بها صاحبها . إنها مناظرة شعرية باللغة الإنجليزية القديمة ، بين بومة وعندليب . مناظرة رمزية بلا مراء ، فإلى أي شيء رمز الشاعر بهذا الذي يقول ؟ قال قوم إن البومة بما لها من وقار ، وما تدل عليه عيناها النافذتان من عمق وهدوء ، اتخذت رمزاً للحكمة ، أو الفلسفة ، أو التفكير عامة ، أو ما شئت من هذه المعاني التي تدول حول عمل العقل دائرة في حياة الإنسان . وإن العندليب اتخذ رمزاً للتسبيح بحمد الله ،

ثم الحب والجمال والربيع ، أو ما شئت من هذه المعـانى التى تتحرك فى القلب لدى سماعه صوته الرقيق وأثره فى حيـاة الإنسان . وقال اخرون : إنها مفاضلة بين العقل والقلب ودور كل منهما فى حياة الناس . ولـكن هذا القول لم يستقم طويلا فى كثير من ظاهر القصيدة ؛ فهذا كلام يطول حول صفات الطائرين ، ولـكن هذا كلام ، ولعله لباب القصيدة ، يدور حول علاقة الطائرين بحياة الناس . ثم هذا كلام أكثر وأبين يدور حول غناء الطائرين وما يبعث فى نفوس الناس من إحساسات وما يهيج فيها من عواطف . ثم هذه مقدمة الشاعر القصيرة يحدد فيها غرضه واضحاً . إذ يقول : « وكان أكبر همهما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وينتقده نقداً صريحاً واضحاً ، لايحتاج إلى تفسير أو بيان » . كان الأمر إذن يدور حول الغناء ، وحول أثر هذا الغناء فى حياة الناس . ولـكن ماذا يريد الشاعر بهذا الغناء وإلام رمز به ؟ إننـا إذا رجعنا إلى الشاعر أو إلى عصره فقد نستطيع أن نصل إلى مانريد .

أما الشاعر فمجهول . وإذا وصـل مؤرخو الأدب إلى ترجيح اسمه ، فإن الجهل الذى يحيط بهذا الاسم أكثر من المعرفة بل لعله يحجبها . فالقصيد تذكر اسم السيد نقولا فى تكرار ظاهر تتمثل البـومة بأقواله ، ويأتى العندليب من أقوال هذا السـيد الحـكيم بما يؤيد هو أيضاً به حجته . وعندما يحتدم النقاش ويريد الشاعر أن يفرغ من القصيدة ، نراه يحيلنا نحن على هذا السـيد الحـكيم فى بلدته جلدفورد لنسمع منه القول الفصل فى هذه القضية التى أثارت الوادى وكل ما سكنه من طيور . فإذا رجح المؤرخون أن الشاعر يدعى نقولا جلدفورد فإن معلوماتهم التى تدور حول هذا الاسم من الضآلة بحيث لا تفيدنا فيما نحن فيه ، بل لعلها لا تفيد كثيراً فى أى موضوع يمكن أن يثار حول هذه القصيدة الفريدة .

أما إذا رجعنا إلى العصر الذى أُلِّفت فيه ، والوصولُ إلى تحديده من خط النسخ واللغة أمر ميسور ، فان أحوال هذه الفترة الطويلة من أزمان التاريخ تجلو لنا الـكثير مما نراه مستغلقاً فى هـذا الباب . ولا يعنينا من أحوال هذا العصر إلا مايمكن أن يمس الحياة الأدبية ويؤثر فيها ، بل مايمكن أن يمس هذه الناحية بالذات من الحياة الأدبية . فلقد شهد هذا العصر البعيد نهضة لاتقل فى روعتها عن هذه النهضة العظيمة التى عنى بها المؤرخون فى القرن الخامس عشر

والسادس عشر في أوربا إن لم تفقها . تلك النهضة الأولى في القرون الثلاثة بعد العشرة كانت أول صحوة فعلية لهذه الشعوب من أثر القرون الوسطى ، نتيجة أول احتكاك جدى قوى بين طائفة كبيرة من شعوب أوربا والشرق . لقد كانت الكنيسة تجتاز محنة عصر اضمحلال وإنذار شديد بزوال السلطان في القرن الحادى عشر فهبّت لتعيد لسلطانها القديم على عقول الناس ونفوسهم وحياتهم سيرته الأولى . وكان من آثار تلك الهبة القوية الحروب الصليبية المعروفة . هذه الحروب التى شهدت جيوشاً عديدة من الغرب تأتى بنفسها إلى الشرق لتراه عن كثب فى الواقع لا فى الخيال . وكما أحدث احتكاك الشرق بالغرب فى أسبانيا آثاراً فى الفن والتاريخ لا تمحى ، فكذلك أحدث هذا الاحتكاك بينهما فى أرض الشرق المقدسة آثاراً أقوى وأعم وأشد . وتعود تلك الجيوش إلى أوطانها فإذا هى تحدث هذا الانقلاب القوى فى كل مرافق الحياة ، نتيجته انقلاب مادى عنيف فى ميزان الثروة وتوزيعها . فإذا كانت العلوم والصناعة قادرة على إحداث مثل هذا الانقلاب فى العصور الحديثة فإن التجارة وانتشارها كانت كافية لأحداث مثل هذا الانقلاب فى العصور القديمة . فهذه طبقة جديدة تنشأ إلى جانب ملاك الأرض وقد سُلِّحت بنفس السلاح ـ بالثراء . يكفى أن يعود أحد من هذه الجيوش أو من اتصل بها بتحف الشرق يبيعها فى الغرب ليعود بتحف من الغرب يبيعها فى الشرق وهكذا ، فإذا هو ثرى فى طرفة عين قادر على أن يشترى الأرض ومن عليها من عبيد دون أن يرثها عن الآباء والأجداد . وتطلع العامة إلى ما لم يتطلعوا إليه من قبل ، وهز الأمل فى نفوسهم من الحياة ما أنعشها وقادها إلى حركات عنيفة تريد بها أن تتحرر من سلطان السادة ملاك الأرض . وليس يعنينا ما قد قامت به هذه الجماعات فى سبيل التحرر المادى ، ولكن الذى يعنينا هو أن نذكر أن هذا التحرر المادى لم يكن إلا ليسبق بمحاولات عنيفة للتحرر الروحى والعقلى . ولقد حاولت العامة أن تنفض عنها سلطان الكنيسة بنفس الحماسة التى حاولت بها أن تنفض عنها سلطان ملاك الأرض . وحاولت الطبقة المستنيرة أن تقود هذه المحاولات وتوجهها ، وإذا الكنيسة أمام هذا الإنذار الشديد بزوال سلطانها تصحو صحوة قوية بالعمل والقول لتدعم سلطانها على أساس جديد لا يهتز بهذه الأعاصير . والأدب فى كل هذا سلاح الطرفين ، يشترك فى كل كبيرة وصغيرة ، ويعبر عن آمال هؤلاء فى

التحرر ، وعن رغبة هؤلاء فى السلطان . وإذا هو يصور هذه النفوس التى تريد أن تنطلق من إسارها لتسبح فى الهواء الطلق حرة لايقيد جسمها ولا يشل عقالها سلطان ، كما لم يصورها من قبل لأنه كان سلاح الكنيسة وحدها فيما قبل . ولكنه بانتشار استعمال اللغات المحلية بدل اللاتينية أصبح الشعب قادراً على أن يعبر عن نفسه . وإذا نوع جديد من الأغانى الشعبية يفشو فى هذا العصر : أغانى الحب والجمال يترنم بها الشعراء والمغنون الطوافون يغنونها على آلاتهم الموسيقية المعروفة ، فيذيعون بين الناس رنات محببة إليهم تصور لهم الحب المحرّم المحروم فيجدون فيه صدى لنفوسهم الظامئة . وتصبغ هذه الأغانى عصراً طويلا من عصور تاريخ أوربا بصبغتها القوية ، حتى ليعرف هذا العصر فى التاريخ بأنه عصر هؤلاء المغنين الطوّافين ، عصر « التروبدور » . ولم يكن غناؤهم ليزول ؛ فقد كانوا يبذرون مع أنغامهم بذوراً فى كل مكان يزرعون بها زرعا ينطلق نحو شىء مجهول ، ولكنه انطلاق من عذاب وقيد . وانتعش الأدب والشعر الغنائى خاصة انتعاشاً قويا فى فرنسا وإيطاليا خاصة ، وظلت انجلترا رغم إتصالها الوثيق بفرنسا ، حتى إنها كانت تعد فى نظر بعض المؤرخين مقاطعة منها ، بمعزل عن هذه الحركة القوية لا تتأثر بها كثيراً لطبيعة أهلها أولاً ولانفصال جزرها من القارة ثانياً .

ولكن هذه القصيدة تكتب فى إنجلترا فى ذلك العصر فتمثل مبلغ تأثر شعراء انجلترا بهذه الحركة وإن لم يتأثر بها الشعب . إنها قصيدة نقدية تصور قضية أدبية قائمة إذ ذاك . وما هى تلك القضية ؟ إنها لن تعدو هذا النزاع الأبدى العظيم بين أدب قديم وأدب حديث . هذا النزاع الذى شهده الأدب كلما عصفت بالناس عاصفة تريد أن تدفع بهم نحو جديد ليتركوا قديماً . أما الأدب القديم هنا فكان الشعر الكنسى خاصة يحض الناس على الخير ويرغب ويعد ويتوعد ويزأر ويرعد ليقرّب الناس من الله بنكران الذات والتقشف فى سبيله ، وأما الأدب الحديث فكان هذا الشعر الغنائى الجديد الذى دوّى فى الآفاق يقرر ما للإنسان من حق فى أن يستمتع بالحب والجمال والربيع ، شعر المغنين الطوافين ، وهو يصور نفساً تنطلق من إسارها نحو جديد مجهول ، ولكنه جديد على كل حال . وثارت فى عقول الناس قضية القديم والحديث بصورة جديدة فجاءت هذه القصيدة لترسم هذه الصورة ، ولتفصل فى القضية ولو من بعيد .

فما هذه البومة إلا رمز للشعر الكنسى ، وما هذا العندليب إلا رمز لهذا الشعر الغنائى الحديث . والشاعر حريص كل الحرص على بيان غرضه حتى لا يضل وسط الرمز والإلغاز قراؤه . فهو ينص منذ بدء القصيدة على أن الغناء كان أهم ما انتقد كل فى صاحبه . والقصيدة مليئة بهذا النقد بل إنها تقوم عليه . فهذا العندليب يقول للبومة : إن غناءها ليفزع الناس ويروعهم ويحزنهم (كما كان يفعل شعر الكنيسة بهم) ، وإن البومة لا تغنى إلا فى الظلام فى ساعات اليأس من حياة الناس كأنما هى غيرى من سعادتهم تحسدهم عليها بل لا تريدها لهم . والبومة تقول إن غناءها ليعلّم الناس ، ويهذب من خلالهم ، ويفسر لهم ما قد غمض من رموز الحياة على حين يفسد غناء العندليب عقول الناشئة . والعندليب يقول إن غنائى ليلذ الناس ويطربهم ويفرحهم ، والبومة تقول إن غنائى ليحثهم على التوبة ويقربهم من الله ، إنه يوحى إلى الأبرار بالشوق إلى الجنة ، ويملأ الأشرار فزعاً مما سيصيبهم من العذاب فى الآخرة . ويقول العندليب إن غناءك أيتها البومة لقاس مرير ، وإنك لتأوين إلى الخرائب والكنائس لتغنى حتى تكونى بعيدة عن الناس ، وإنك لتغنين دائماً أبداً فى ساعات بعينها ، بل إن فى خلقك دهاء ومكرا ولؤما تستعملين من الأساليب ما ينفر منها الحق والخلق الكريم (إشارة إلى أساليب الكنيسة) . ولكن العندليب يدعى لنفسه هو أيضاً أنه يتغنى بغناء الكنائس لأنه يسبح بحمد الله ويعدّ الناس خير إعداد لتذوق أنغام الجنان والسموات . إن له من فضل التعليم ما للبومة لأنه يهذب بغنائه ويعلّم ، فهو يحث على فضيلة الوفاء ، والإخلاص ، ويعلم حقيقة العدم والزوال وحكمتهما . أكان يريد الشاعر بهذا شيئاً غير الشعر الغنائى ؟ أو ليس الشعر الغنائى يدّعى لنفسه التهذيب والعمل على التقرب من الله ؟ إن لكل طريقته ، ولكن الشاعر يميل فيما نرى إلى تفضيل العندليب لا يعيب عليه بلسان البومة إلا أمراً واحداً هو أنه كثيراً ما يتغنى بحب محرم ، فهو يحض الزوج على حب عاشق غير زوجها .

وكان هذا الموضوع أهم ما دار حوله الشعر الغنائى الجديد . ولكن الشاعر يدافع عن هذا بقوله : أليس الشائع المشاهد أن الزوج يعامل زوجه بقسوة وفظاظة ، وأن قلبه بعيد عن هذا البيت الذى هيأت له فيه زوجه أسباب الراحة والسعادة ! وإن الزوج لتعمل كالخادم بل كالعبد المطيع ليل نهار ، فلا تجد لنصبها وتعبها جزاء إلا الغضب بل اللطم فى كثير من الأحيان . أفليست تلك معذورة

إذا ما وجدت لدى عاشق محب ما تتعطش إليه من حنان وحب فى أن تجيب النداء؟ ولكن هذا الدفاع لا يرضى الشاعر ولا يرى أنه مما يصح أن يسكت عنده . فإذا هو يقول على لسان العندليب : ولماذا لا يكون الحب عفيفاً طاهرا حب فتاة لفتاها يتوج بالزواج بعد حين ! إنى أتغنى بكل أنواع الحب . إنى أتغنى بحب محروم ولكنه مشروع . وهكذا يستمر هذا الشاعر فى معالجة هذا الموضوع ، وكأنما هو يفتح لتلك الطبقة من الشعراء والمغنين الطوائين آفاقا جديدة من الغناء نراها وقد ملأت أوربا بعد حين وطربت عليها أجيال من الناس تعاقبت مدى قرون وقرون تتغنى معا بهذا الحب المحروم محرما ومشروعا .

والشاعر لا يتعرض لتحليل تلك الظاهرة فى غناء عصره ، بل إن الناقد الذى نقل إلينا القصيدة من نصها القديم إلى نصها الحديث ودرسها لا يتعرض هو الآخر لشىء من هذا ولعلهما لم يريدا الدفاع عن مثل هذا الموضوع من موضوعات الغناء لتحرج فى طبعهما الإنجليزى أو لعلة أخرى . فقد كان جل ما اهتما به هو الدفاع عن الحركة الجديدة فى الشعر والغناء . ولكن المتأمل فى حال أوروبا الوسطى فى تلك العصور يرى مالا يحرج فى تعليل شيوع هذا الموضوع . فغناء بالحب فى مثل هذا العصر لم يكن هناك من بد إلا أن يصور الحب كما صوروه ، حب عبد ذليل متعطش إلى حقه فى الحياة فهو يتطلع إلى العتق غير المشروع . وهل تختلف حال الزوج الذليلة المتعطشة إلى حقها فى الحب والحنان بعد أن قامت لزوجها بكل مافى طاقتها من خدمات ليروى عطشها فلم يقابلها إلا بالقسوة والحرمان ، عن حال هذا العبد الذليل الذى يقدم لسيده مافى وسعه ولا يلقى منه إلا القسوة والحرمان بدل حقه من الاستمتاع واللذة ! وهل يختلف تطلع هذه الزوج إلى عاشق ينزل إليها من السماء عن تطلع هذا العبد إلى منقذ ينزل من السماء أو ينبعث من الأرض ليرد إليه حقه فى الحياة ! وهل يختلف غناء الزوج الذى يصور عذابها وشقاءها وتطلعها وشوقها عن غناء هذا العبد بعذابه وشقائه وبتطلعه وشوقه ! إن هذا الغناء الغزلى كغناء العرب فى بوادى الحجاز بعيد الإسلام ، لا يصور الحب بقدر ما يصور الحرمان والتطلع إلى منقذ مجهول . ولو قد أراد الشاعر أن يدافع هنا عن غناء العندليب فى قصيدته لوجد أنه بإخراجه إلى الرمز يعطى العندليب أقوى حجة ليقاوم بها تلك

البومة العاتية القاسية . ولـكن الشاعر يعيش فى عصره ويرى الحياة بمنظار ذلك العصر ، فدافع فى سذاجة ، ورسم فى سذاجة أيضا ما يجب لهذا الموضوع من تحوير ليأمن اللوم . ولـكنه بهذه السذاجة نفسها وما فيها من إخلاص وجمال استطاع أن يفتح الآفاق ويمهد السبيل لظهور غناء قوى جديد من هذه البداية المتواضعة .

ولـكن المناظرة فى حد نفسها تصبح موضوعاً أدبيًّا يجب أن يوفى حقه . فما كان يكفى أن تعيب البومة غناء العندليب وأن يعيب هو غناءها ليهيأ للقارئ أن مناظرة حادة قامت بين الطائرين . لا بد أن يكون هناك أكثر من هذا فى الواقع ، وإذا القصيدة مملوءة بالسباب وبعيب الخلق . يرى العندليب فى البومة بشاعتها وكره الناس لها وحبها للعزلة والخراب وسائر ما لها من صفات مذمومة إلى جانب هذا الصوت البشع الذى يتشاءم منه الناس ؛ فلم يكن بد من أن يرى العندليب هذا إذا قامت البومة فعلا أمامه ، وإن كان الإنسان لا يحس منها أكثر من هذا الغناء المشؤم . وكذلك لم يكن بد من أن ترى البومة فى العندليب صغر حجمه وضعفه أمام قوتها وبطشها ، وتفاهة ما يقوم به من أعمال إلى جانب ما تراه من سوء أثر غنائه فى الناس وإفسادهم بالحب والجمال والخيال . ولم يكن بد أيضاً من أن يفعل الغضب فعله فى الطائرين ، فيظهر غيظهما فى الكلم والحركات . ولـكن الشاعر طبقاً لتقاليد عصره لم يجعل أحداً منهما يخرج عن حده حتى لا يفقد بذلك عطف الناس عليه . فلقد كان من أدب المناظرة والمقاضاة أن يتأدب الشاكى فى شكواه ويتأدب الجانى فى دفاعه ، ليكسب كل منهما عطف الجمهور باحتماله الإيذاء من صاحبه ، فعطف الجمهور عليه هو كسب القضية .

بذلك وبغيره من الأساليب والخطط أتقن الشاعر فنه الرمزى ، وخيل إلى السامع أو القارئ أنه فى ساحة قضاء جاء فيها الطائران يحتكمان بالفعل . ولم يكن الشاعر ليستطيع أن يخفى انحيازه إلى طرف من الطرفين المتخاصمين ؛ فقد كان عطفه على العندليب ظاهراً واضحاً ، وها هوذا ينهى القصيدة بمغالطة من البومة ينفر منها الحكام ؛ فلقد عاب العندليب عليها كره الناس لها وتشاؤمهم منها ، ولما لم تستطع أن تدفع ذلك عن نفسها اعترفت به وأخذت تفخر بعيبها هذا . فيقول لها العندليب إن هذه مغالطة منها لا تغتفر فى فن المناظرات والخصام ؛ فقلب الحقائق وجعل العيوب مفاخر لا يمكن أن يكسب عطف الناس .

واستنجد العندليب بطيور الوادى ، فهبت جميعها لأنها تحب العندليب تلبى غناءه الرقيق العذب . وتهزأ البومة من هذا الجيش الذى أتى به العندليب ليدافع به عن نفسه أمامها . فلو كان المجال مجال قوة وبطش لـكان لها ولأخواتها وأبناء عمومتها من صقور الوادى ونسوره ما يكفل لها الغلبة على هذا الجيش من صغار العصافير أى غلبة . ولـكن البومة والعندليب كانا قد اتفقا على الاحتكام إلى السيد الحـكيم نقولا جلدفورد . وهاهى ذى البومة وقد ضاقت ذرعا بثرثرة العندليب وشقشقة هذا الجيش من العصافير تقترح الذهاب إلى هـذا السيد الحـكيم ليسمعا القول الفصل فى قضيتهما ، ويوافق العندليب على هذا . وقد وعدت البومة أنها تستطيع أن تعيد كل ما دار بينهما على أسماع الحـكم وقبلت أن يذكرها العندليب بما قد تنساه . فيطيران ويتركان الشاعر حيث هو فى ذلك الركن الآمن السحرى من الوادى النائى السحيق . إنه لايستطيع أن يطير مثلهما . ويقول الشاعر : أما ماحدث بينهما فى هذا الاحتكام فإنى عاجز عن أن أقصه ، إذ هنا تنتهى قصتى هذه .

وهكذا تركنا معلقين كما قد تركنا غير شاعر ناقد من قبل فى مثل هـذا الموقف من تصوير معركة القديم والحديث فى الأدب ، لا خوفا من سلطان القديم ولا فتوراً نحو هذا الجديد ، ولـكن لتردد الشاعر حقًّا بينه وبين نفسه فى تفضيل أحدهما على الآخر تفضيلا تاما كاملا . إنه شاعر يرى الجمال ويحسه إحساساً عميقاً شاملا ، بلغ من شموله أنه أصبح من الصعب عليه أن يشوبه الحس بدرجات أو بميزان . فهذا القديم له قوته وسلطانه ، وهذا الحديث له عذوبته ولذته وجماله . فأيهما أفضل ؟ إنه يحب الحديث ولـكن أهو الأفضل فعلا ؟ وهل نستطيع نحن حتى بعد أن سجل التاريخ انتصار الحديث أن نفاضل حقًّا مهما ملنا إلى أحدهما دون الآخر .

وتركت القصيدة أثرها فى الشعر الإنجليزى المعاصر والذى أتى بعدها ، بل فى شعر أوربا أيضاً . وتعاونت هى ومؤثرات أخرى على نماء أنواع بعينها من الأدب كتبت لها السيادة على قرون طويلة فى تاريخ الأدب . فقد قوى شعر المغنين الطوافين وعظم أثره ، وظهرت ملاحم الحيوانات التى ترمز إلى أحداث التاريخ وأحوال الشعب بأحداث الحيوان وأحواله ، والتى خلدت عصوراً بعينها من عصور الأدب كملحمة الثعلب رينار . ونما هذا الشكل من أشكال الأدب ،

شكل المناظرة ، نموا قويا ، واستغل كثيرا فيما قد كتب بعد هذه القصـيدة من شعر وقصص أيضاً

أفنعجب بعد ذلك إذا وقف النقاد أمام تلك القصيدة وقفة طويلة لا ليتمتعوا بتأمل صورة جميلة من صور معركة القديم والحديث التى تتكرر فى تاريخ النقد تكراراً قويا فحسب ، ولـكن ليحاولوا أيضاً أن يحددوا مدى ما أحدثت تلك القصيدة من أثر فى الإنتاج الأدبى قرونا طويلة متتالية ، ثم ما كان لهذا الإنتاج الأدبى من أثر فى صبغ عصور طويلة بصبغة خلابة قوية لونت نظر المؤرخين أنفسهم لهذه العصور الطويلة التى سبقت عصر النهضة المعروفة فى أوربا .

سهير القلماوى

الديمقراطية فى الأمم الديمقراطية

يغلب علينا كثيراً أننا حين نتحدث عن الديمقراطية ، نعمد إلى الأسلوب الذاتى ، فنشرح آمالنا وأمانينا الذاتية ، ونكاد نتعامى عن الواقع ، أو لا نختار من هذا الواقع إلا ما يوافق هذه الآمال والأمانى . ولذلك يحسن بنا أن نتقيد بما يجرى فى الأمم الديمقراطية ، وأن نقتصر على ما نجد فيها ، أى فى سويسرا والولايات المتحدة والدنمرك وبريطانيا مثلا ، فنذكر كيف يعيش الفقير هناك ، وما هو حال الصحافة هناك ، وماذا يجرى فى التعليم ، وكيف يعالج التعطل ، وكيف تجبى الضرائب إلخ .

وبهذا المنهج نتقيد بالحقائق الموضوعية ، ولا نتورط فى الأوهام والأمانى الذاتية .

وقبل أن نشرع فى « وقائع » الأمم الديمقراطية يجب أن نقشع وهماً عن تاريخ الديمقراطية العصرية وأن نعللها بتعليلها الصحيح .

فكلمة « ديمقراطية » إغريقية ، ومعناها حكومة الشعب . ولكن ليس هناك أية علاقة تاريخية بين إغريقية الكلمة وبين مدلولها فى العصر الحاضر ؛ فإن الصلة بين الأمم الحديثة وبين الإغريق القدماء مقطوعة . فلا نستطيع أن نرجع بأصول القضاء أو الحكومة أو المجتمع إلى المؤسسات الإغريقية القديمة . وصحيح أنه كان فى أثينا ، لا فى الجزر الإغريقية ، ديمقراطية . ولكن هذا النظام لا يتسلسل إلينا اصيلا أو منقحاً . وحتى القرية السويسرية التى لا تزال تمارس الحكم على ما يشابه النظام الأثينى ، لا تتصل بأية صلة بأثينا . وهذه النظم الديمقراطية فى الأمم الحديثة تعود إلى أسباب لم يعرفها الإغريق أو الرومان .

وقد ظهرت فى القرون الوسطى بأوربا مدن استمتعت بنوع ما من الحكم

الذاتى النيابى فى صورة المجالس البلدية ، ولكن هذه أيضاً لا تمت إلى الإغريق بسبب . وإنما كان مرجع نظامها إلى التجار الذين شرعوا يربطون العالم ، بعد نحو ألف سنة من الانفصال عقب الانهيار الرومانى ، بروابط تجارية ، مثل جنوة والبندقية فى الجنوب ، والمدن الهنسية فى الشمال . ولكن هذه المدن فى حكمها النيابى لم تكن ديمقراطية ؛ لأن النيابة البلدية كانت مقصورة على التجار الأثرياء . أما عامة الشعب فلم يكن لها شأن فى هذا الحكم .

ولكن عند ما ننتقل إلى انجلترا نجد تقاليد برلمانية ، وإن كانت هذه التقاليد بقيت نحو ٦٠٠ سنة وهى غير ديمقراطية ، أى أن عامة الشعب لم يكن لها شأن كبير أو صغير فى الحكم . ومع أن فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية كانتا تنظران حوالى سنة ١٧٧٠ إلى الحكم البرلمانى فى إنجلترا وترجو كل منهما أن يكون لها برلمان ، فإن البرلمان الأمريكى عقب ثورة سنة ١٧٧٦ والبرلمان الفرنسى عقب ثورة سنة ١٧٨٩ كانا أبعد فى الديمقراطية من البرلمان الانجليزى نفسه الذى اتخذ قدوة .

فإذن إلامَ يعزى النظام الديمقراطى القائم الآن فى أوربا ؟

هذا النظام الديمقراطى الذى يعم أوربا وأمريكا هو فى حقيقته انقلاب عصرى فى السياسة والحكم ، وكان ثمرة انقلاب آخر فى الاقتصاد . ومن القواعد التى يجب ألا ننساها أن جميع الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية إنما تتألف وتتكون وفق القواعد الاقتصادية فى طرق الانتاج التى تعيش بها الأمة . ففى القرون الوسطى كانت أوربا إمارات صغيرة ، حيث الأمير ملك أو كالملك ، وشعب الإمارة عمال عنده كالعبيد ، يزرعون أرضه ويتقيدون بحكمه الذى لا يحد من استبداده سوى القليل من العرف والتقاليد . ومن غير المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية ديمقراطية فى هذا الوسط الاقتصادى ، ولكن من المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية غير ديمقراطية يتولى السلطة فيها هؤلاء الأمراء أو النبلاء أنفسهم . وقد كان هذا حال إنجلترا بين سنة ١٢١٥ حين خضع الملك جون للنبلاء وأمضى « الوثيقة الكبرى » إلى نحو سنة ١٦٠٠ حين تكونت العوامل الاقتصادية التى جعلت الحكم الديمقراطى محتوماً .

فما هى هذه العوامل الاقتصادية ؟

ظهرت فى أوروبا عامة وإنجلترا خاصة طبقة التجار الذين صاروا يغارون

من سلطة الأمراء والنبلاء واللوردات ، وصاروا يضعون مالهم المكسوب إزاء أموال أولئك الموروثة ، ويطلبون حقوقاً فى الحكم مثلهم ، بل يطلبون إلغاء الرق الزراعى الذى كان يستمتع به الأمراء والنبلاء دونهم . ولذلك أدى ظهور هؤلاء التجار إلى الدعوة إلى الحريات وإلى معان من المساواة والعدل تقارب ما نفهمه منها فى عصرنا الحديث . وقد نجح هؤلاء التجار فى دخول البرلمان الإنجليزى ، وأصبح لهم صوت مسموع ، يخفت أحياناً ويعلو أحياناً ، منذ سنى ١٥٠٠ و ١٦٠٠ .

ولكن هؤلاء التجار لم يكونوا من الوجدان أو القوة بحيث يستطيعون تعميم الأفكار والعقائد الديمقراطية ، وكان مع ذلك أثرهم واضحاً فى البرلمان الإنجليزى الذى أصبح قدوة للأمم الأخرى . وسَبقُ الإنجليز فى هذه الناحية يعزى إلى سبقهم فى التجارة العالمية . ووجود طبقة من التجار العالميين ، وحولهم القليل من الصناع ، جعل الحكم البرلمانى غير مقصور على النبلاء والأمراء واللوردات الوارثين .

أما الحكم الديمقراطى العصرى فمرجعه إلى ذلك الانقلاب الصناعى الذى أخذ منذ سنة ١٧٧٠ يسير بطيئاً أولا ، ثم تراكمت أمواجه ، فاندفع بقوته المتزايدة فى هذه السنين الأخيرة . ذلك أن هذا الانقلاب الصناعى قد غير أوربا ونقلها من الحضارة الزراعية ، حضارة الريف الفقير ، إلى الحضارة الصناعية ، حضارة المدن الغنية . ونحن فى سنة ١٩٤٦ عند ما نتأمل هذه الدنيا التى نعيش فيها نجد أننا فى صميم الأمر لا نشكو القلة فى الاقتصاديات العالمية ، بل نشكو الوفر بسبب هذا الانقلاب الصناعى .

وكثير من الباحثين يردّون العصر الديمقراطى الحاضر إلى مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى : الحرية والمساواة والإخاء . ويفسرون هذه الثورة بأنها كانت الثمرة ، المرة أو الحلوة ، للتفكير التحريرى الذى قام به دالمبير وديدرو وروسو وڤولتير وغيرهم . كأن التفسير للثورة ذهنى .

ولكن ما الذى حمل هؤلاء الكتاب على دعوة التحرير هذه ؟ أو ما الذى جعلهم يحسون هذا الوجدان الجديد ؟

الجواب على هذا أنهم كانوا ينتسبون إلى طبقة التجار والصناع الجديدة ،

يفكرون تفكيرها ، ويحسون عواطفها ، ويعبرون عن كراهتها لطبقة النبلاء ، أو بالأحرى يعبرون عن كراهتها للنظام الاستعبادى الذى كان يجعل النبيل يستبد بعامله الزراعى ويستغله بما يشبه المجان ، فى حين كان التاجر أو صاحب المصنع لا يجد من يكفيه من العمال ، أو يجد القليل جداً منهم . وهم لقلتهم يكلفونه أكبر الأجور .

وإذن نفهم أن هذه الدعوة إلى الحرية والمساواة والإخاء فى فرنسا كانت تنهض على تبدل اقتصادى قائم ، لم يرافقه تبدل اجتماعى . فكان السخط من هؤلاء الأدباء ، لأنهم كانوا إزاء مجتمع غير متطور يستمسك بتقاليد اجتماعية قد ثبت النظام الاقتصادى الجديد زيفها وضررها . وأدى التصادم بين المستمسكين والمتطورين إلى الثورة .

ونجحت الثورة ، وأعلنت الحرية والمساواة والإخاء ، وظهرت الحكومات الديمقراطية التى ترفض الاعتراف بامتيازات النبلاء .

ثم ظهرت المصانع الآلية ، أو بالأحرى تفشت ؛ فزاد تجمع العمال فى المدن وزاد وجدانهم الطبقى . ولم يتنبه وقتئذ دعاة المساواة والحرية إلى أن هذين المبدأين يتناقضان إزاء المصانع الآلية والمتاجر العالمية . إذ ما دام الناس أحراراً فى جمع المال والتوسع الصناعى والتجارى فإنهم لن يتساووا ؛ لأن منهم من يصل إلى القمة فى الصناعة أو التجارة ، ومنهم من يبقى عاملا لا أمل له فى الامتلاك . وهنا عقدة أوربا وأمريكا الحاضرة ، وهى ليست موضوعنا الآن . وهى عقدة اقتصادية : تفاوت اقتصادى قائم فعلى ، مع الاعتراف الاجتماعى أو العرفى أو القانونى بضرورة المساواة .

بعد هذا التعليل للديمقراطية نحاول الآن النظر فى واقعها :

الديمقراطية فى لبابها وروحها تعد حركة « رومنتية » أى حركة الابتداع والتفكير والعمل ، كما أنها حركة الاقتحام للمستقبل والتفاؤل به . وهى من هذه الناحية غير « كلاسية » أى غير تقليدية . ومن هنا التعليل لما فيها من تسامح . لأن التسامح فى صميمه يعنى أننا يجب علينا ألا نستمسك بالتقاليد إلى حد التعصب أو الكراهة لمن يخالفنا . بل إذا كان هناك تعصب فى الأمم الديمقراطية فهو على التقاليد ولا لها . لأن الإيمان العام فى الأمم الديمقراطية أن الطبيعة البشرية حسنة لم يفسدها غير الحكومات والعقائد والتقاليد ، وأنه إذا ترك

الناس أحراراً لم تؤدِّ حريتهم هذه إلى الإيذاء والفوضى ، بل أدت إلى النظام والحب . وفى هذا الكلام شطط قد وقع فيه روسو وغيره ولكنه شطط منبه يبعث على التفكير ، أو هو الخطأ الذى يهدى إلى الصواب . والتسامح ، والحرية ، والمساواة ، المساواة بين الأفراد والمساواة بين الجنسين ، والعدل : كل هذه الفضائل هى مزاج الأمم الديمقراطية ولكنها ليست كلها حقائق واقعة ، أى إن الأوربى يتجه إليها ، ولكنه لم يوفق لتحقيقها إلى الآن .

حدث قبل نحو ١٤٠ سنة أن البارون همبولت زار جيفرسون رئيس الولايات المتحدة ، فوجد جريدة على مكتبه ، فلما تناولها وجد بها مقالا قد امتلأ بكلمات السباب والقذف فى الرئيس ، فنظر إلى الرئيس وقال : كيف تسمحون بهذا السباب ؟ فقال الرئيس : خذ هذه الجريدة وضعها فى جيبك ، فإذا وجدت من يشك فى حقيقة حريتنا أو حرية الصحافة فى الولايات المتحدة فأعطها له .

هذا هو المزاج العام فى أوربا وأمريكا . وهو مزاج يجعل النقد مباحاً مستفيضاً فى جميع الأوساط الديمقراطية . فليس هناك مشكلة يمنع الجمهور من بحثها . كما أنه ليس هناك وزير أو موظف يعاقب الكاتب على الحملة عليه بكلمات تستبشع فى بلادنا . فقد وجدت ذات مرة صحيفة إنجليزية فى إنجلترا تصف رئيس الوزراء بأن رأسه رأس خنزير .

وأما عن الحرية والمساواة والعدل فإن المزاج العام يتجه إليها ، ولكن المجتمعات الديمقراطية الأوربية لم تستطع إلى الآن تحقيقها ، لعوامل اقتصادية رسخت وتأصلت جذورها ، وتحتاج إلى مجهودات كبيرة لبلوغ هذا التحقيق .

هذا هو المزاج العام أو الروح العام فى الحضارة الأوربية الديمقراطية . فلننظر الآن إلى السمات العامة فى الأمم الديمقراطية . ونعنى ما هو واقع تشهد به النظم الحكومية وقوانين المحاكم . . . إلخ .

١ — فأول ما نرى من سمات هذه الأمم أنها جميعها يشرف على شؤونها « برلمان » مؤلف من مجلس واحد أو مجلسين ، وينتخب أعضاؤه انتخاباً نسبيا أو مطلقاً .

٢ — الحكومة الديمقراطية هى فى صميمها « لجنة » يؤلفها البرلمان من بين أعضائه . فالحكم فى النهاية فى يد البرلمان .

٣ — يستطيع البرلمان أن يفعل كل شيء ؛ حتى لقد فرض ديسى فرضاً جنونياً كى يثبت هذه القدرة العامة للبرلمان ، إذ قال : إن البرلمان الإنجليزى يستطيع أن يسن قانوناً لقتل كل من تكون عيناه زرقاوين . وليس هناك عندئذ مايطعن فى صحة هذا القانون .

٤ — بعض البرلمانات مع ذلك لايجوز لها أن « تفعل كل شيء » . فالبرلمان الأمريكى قد منعه الدستور من أن يسن قانوناً لتقييد حرية الصحف أولمنع الجمهور من حمل السلاح . وفسر لنكولن هذا المنع بأن من حق الشعب أن يغير ، عند الحاجة ، الحكومة بقوة السلاح إذا لم يستطع أن يغيرها بالوسائل السلمية .

٥ — مع وجود البرلمان المركزى للأمة توجد على الدوام برلمانات صغيرة نيابية ديمقراطية فى المدن والقرى ، وهى تتمتع بحقوق واسعة جداً . يدلك عليها أن المجلس البلدى فى لندن مثلا يتناول ميزانية يجبيها وينفقها فى لندن لاتقل عن ميزانية الحكومة المصرية كلها .

٦ — المساواة فى الحقوق السياسية عامة ، بحيث يستطيع العامل أن يصل الى منصب الوزارة . وفى أوربا الآن وزراء كانوا فى وقت ما عمالا . كذلك المساواة عامة ، فى أغلب الأمم الديمقراطية ، بين الجنسين .

٧ — المساواة الاقتصادية غير عامة . ولكن الحكومات الديمقراطية تحاول أن تعالج التفاوت بين الفقراء والأغنياء بثلاث طرق :

(ا) التأمين الاجتماعى ضد التعطل والمرض والشيخوخة .

(ب) فرض الضرائب التصاعدية ، أى كلما علا الدخل زادت الضرائب . وهذا غير الضرائب على التركات والأيلولة .

(حـ) تأميم الصناعات الكبرى ، أى إن الحكومة هى التى تدير المناجم أو بعض المصانع الكبرى وتجعلها ملكا للأمة .

٨ — التعليم الابتدائى ، وأحيانا التعليم الثانوى ، عام ومجانى لجميع أفراد الشعب .

٩ — نظام التعاون أساسى فى جميع الأمم الديمقراطية ، وكذلك نظام النقابات للعمال .

١٠ — حرية الرأى فى الكلام والخطابة والصحافة والتأليف ، وكذلك حرية الاجتماع ، مقدستان .

١١ — الدين ينفصل من الدولة فى العادة . ولكن حتى حين لاينفصل تؤيد الدولة سائر الأديان وتخصها بإعانات مالية . فالحكومة الهولندية مثلا تؤدى إعانات مالية للكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتية والكنيسة اليهودية على السواء .

قلنا : إن المزاج العام فى جميع الأمم الديمقراطية هو مزاج الحرية والمساواة والإخاء . وهذا هو ما تنطق به الصحف ، وما يتعلمه الطلبة فى الجامعات ، وما يقوله الكهنة فى الكنائس . ولكن منطق الحوادث يختلف عن منطق الكلام بل يناقضه ؛ لأن طرق الإنتاج الصناعى منذ حوالى سنة ١٧٧٠ ، بل كذلك طرق الاتجار العالمى ، قد أوجدت التفاوت الاقتصادى ، وهو تفاوت ليس له شبيه أيام القرون الوسطى .

ومن هنا نجمت الدعوة الرجعية أحياناً بين بعض الكتاب الذين يدعون إلى العودة إلى نظم القرون الوسطى . وهذا حنين سخيف . لأن سذاجة العيش فى تلك القرون قد تغيرت إلى أساليب معقدة تعيش بها الأمم فى عصرنا ولاتستطيع النزول عنها ، ولا يمكن أن نرد عقرب الساعة ألف سنة إلى الوراء .

وقد كانت الحرية والمساواة ، أى الدعوة إليهما ، أمام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ معقولة ، أو بالأحرى لم يكن أحد يستطيع أن يبصر عواقبها ؛ لأن طرق الإنتاج كانت لاتزال على شىء من السذاجة ؛ إذ لم يكن المصنع ، مهما تضخم واتسع ، يحوى أكثر من عشرة أو عشرين من العمال . فلم يكن هناك خوف من التفاوت العظيم بين الأغنياء والفقراء . ثم إن شبح التعطل لم يكن يشخص فى خيال المفكرين . أما الآن فإن بعض المصانع ، بقوة الآلات العظيمة ، تستخدم عشرات الألوف من العمال ، وأحياناً تقفل هذه المصانع أبوابها فيتعطل مئات الألوف بل الملايين من العمال .

هذه هى العقدة التى تواجهها جميع الأمم الديمقراطية فى عصرنا . ولهذا السبب اتجه الديمقراطيون إلى اليسار ، وأصبح فى كل أمة نواب يساريون وصحافة وتفكير يسارى .

وقد نشأت كلمة « يسارى » من الوضع البرلمانى للنواب ؛ فإن المعارضين فى المجالس النيابية يقعدون عن يسار الرئيس . ويقعد الحكوميون عن يمينه ،

فاليسارى معارض ، والدعوة اليسارية هى مجازاً ، دعوة إلى التغيير والتطور . وتختلف اليسارية فى الأمم من حيث الأسلوب الذى تتخذه . فإن مشروع بيفردج يعد فى بريطانيا مشروعاً يساريا ، يعالج التفاوت الاقتصادى بالتكفل بكل شخص من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، بل قبل ميلاده ؛ لأن أمه وهى حامل تحصل على معونة تتيح لها البقاء بالبيت نحو شهر قبل الولادة . ثم تتعهد الدولة هذا المولود بالتغذية والتعليم ، ثم بالعمل والإعانة فى التعطل ، والتمريض فى المستشفى ، والإعانة فى الشيخوخة .

ثم هناك اليسارية التى تدعو إلى تأميم المصانع والمناجم والمزارع ، أى تمليكها للدولة . فإن المستر تشرشل ، على الرغم من أنه محافظ ، عاش طول حياته السياسية يدعو إلى نزع الأرض من المالكين وتسليمها إلى الفلاحين . والحكومة البريطانية فى الوقت الحاضر تشتغل بسن قانون لنزع المناجم من المالكين وتسليمها للدولة .

ومن قبل التأمين الاجتماعى ، ومن قبل التأميم ، كانت جميع حكومات أوربا الديمقراطية تأخذ بالضرائب التصاعدية للتخفيف من التفاوت الاقتصادى . وربما كان من المفيد أن نقارن بين أقل الحرف وأعلى الحرف كسباً فى الدولة الديمقراطية ؛ لأن الدولة تحدد الأجور والرواتب بما يتفق وحال المجتمع . والتقدير هنا بالجنيه الانجليزى :

الدولة	الكناس فى المجلس البلدى	الوزير
إنجلترا	١٤٥	٥٠٠٠
الدنمرك	١٥٠	٩٠٠
السويد	٢١٠	١٣٠٠
سويسرا	٢٢٣	١٦٠٠

وهذه المقارنة تدل على أن التفاوت عظيم . ولكنها أيضاً تدل على أنه ليس فى الأمم الديمقراطية ذلك الفقر المدقع والبؤس الأسود الذى يعيش فقراء آسيا وأفريقيا فيه .

سلامة موسى

للحقيقة والتاريخ

رسائل الزهاوى

ترجع صلتى بالشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى إلى أكثر من خمس عشرة سنة مضت ، وكنت يومئذ ذلك الفتى اليافع الذى أقبل على دراسة الأدب العربى شعره ونثره — والشعر خاصة — بنهم وشغف بالغين كى يتزود منهما زاده المرجو ، وخرج من تلك الدراسة حردان يائساً ؛ فالمثل العليا التى يتعشقها ، والآفاق الواسعة التى يتشوق إليها ، والأجواء المعطرة التى يبتغى أن يحلق فى سماواتها ، أضحت أمامه كلها هباء فى هباء . أجل ! فهذا الشعر الجاهلى بالرغم من حيويته المتدفقة وصياغته البليغة ، تعوزه الصبغة الإنسانية ، أو بعبارة أخرى « العالمية المتحررة » المنطلقة من عقالها ، والتى لا تتقيد بهذا الأفق الضيق ولا تستمع إلى تلك الهمسات الخافتة ، ولا تنحاز جانب ذلك الشعاع الضئيل . . .

على أن من أفضل حسنات هذا الشعر تصويره الصادق للبيئة العربية — ببداوتها وبساطتها — وبما يكتنفها من خشونة وبأس ، ويعتورها من قسوة وألم ، وما طبعت عليه من روح المغامرة والفروسية العارمة والشجاعة المنقطعة النظير . . .

وهو — بعد القرآن الكريم — فى مواطن كثيرة مرآة صادقة للفحولة التى تتسم بها اللغة ، والعبقرية التى بوأتها الصدارة بين لغات العالمين . . .

واعتقدت يومئذ — وما زلت أعتقد — أن هذا الشعر وحده مع هذه الخصائص ، لا يشبع شهوة الجاشع النهم ولا ينقع غلة الصادى .

ثم واصلت الدرس ، فرأيت أن الإسلام قد رقق من حواشى هذه الصحائف الخشنة ، إذ صافحت نسماته العذاب وجوه الشعراء ، فصفت نفوسهم وسمت أرواحهم ، وتجاوبت أصواتهم المدوية وأهازيجهم الجميلة مع صوت الحضارة

الجديدة ، فأعجبت بما ابتدعوه من رائق المعانى وجمال التصوير ، وارتيادهم هذه المجاهل التى لم يفطن إليها الأقدمون . . .

ثم جاء شعراء العصر العباسى ، فكانوا أكثر افتنانا فى الخلق وتجويداً فى المعانى . وذلك من الطبيعى ، لتأثرهم بثقافة الإغريق من ناحية ، ولما أمدتهم به الحضارة من أفانين الحسن وشتى ألوان الجمال من ناحية أخرى .

وأعجبت بهؤلاء الفحول — حملة الشعل — الذين أضفوا على اللغة العربية حللا قشيبة جميلة ، وكنت أكثر إعجاباً بأبى تمام والبحترى وابن الرومى وأبى نواس .

ولكننى خرجت من دواوينهم غضبان أسفا . ذلك لأننى رأيتها قد اكتظت بشعر المديح والهجاء . أما الشعر الفنى الذى يرتفع بالقارئ إلى منازل المثل العليا ويحمله على أجنحة الحب إلى سماء الحقيقة ومناسك الجمال ، فلم أر له ذلك الأثر الذى أنشده وأبتغيه .

ثم نظرت أمامى فلم أجد غير شوقى وحافظ والمطران والزهاوى والعقاد ، وأن الأول وهو الذائع الصيت لم يأت بجديد رغم تلك الأحقاب الطوال التى سلكها الشعر العربى ؛ إذ أنه لم يك يومئذ قد ابتدع شيئاً من مسرحياته الشعرية الخالدة ، بل ظل خالداً فى أحضان الشعر التقليدى — الرثاء والمديح والهجاء — عاكفاً عليه ينسجه احتذاء وتقليداً للشعراء القدامى . وكذلك الشاعر الاجتماعى حافظ إبراهيم كان هو أيضاً ينافس المرحوم شوقى فى زعامة ذلك الشعر التقليدى فصدفت عنهما ، واستوقف ناظرى ذلك التجديد الرائع الذى أخذ بزمامه الزهاوى ومطران والعقاد . . . فدواوينهم لم يشبها المديح ولا الهجاء — اللهم إلا فى القليل النادر — ونظراتهم إلى الشعر نظرات فنية بحتة . وإن فى شعرهم ذلك المزيج العجيب من الحيوية الدفاقة والإنسانية الشاملة — رغم ضعف نسيجهم فى بعض الأحايين — التى تتسم بالصدق ويحيطها الجمال من كل مكان .

فأخذت فى دراسة آثارهم ، وخرجت من هذه الدراسة راضياً مطمئنا موقنا بأن هؤلاء الشعراء أحدثوا حدثاً جديداً فى الشعر العربى . وكان لزاما على أن أسجل هذا الإعجاب وذلك التقدير ، فاعتزمت أن أنشئ عن كل منهم كتاباً

خاصا ، فبدأت بالزهاوى واتصلت به عن طريق « الرسائل » ؛ إذ أننى لم أجد وسيلة لتحقيق حياته غير ذلك ، ولبعد الشقة ؛ فكانت هذه الرسائل العجيبة أو بعبارة أخرى « التحقيقات العلمية » الفريدة التى جاد بها علىّ ذلك الرجل الكريم عن طيب خاطر — فى بساطة ودماثة خلق — مما جعلنى أنشر الفصول الضافية عن حياته وكفاحه وجهاده فى سبيل لغة الضاد الخالدة وفى سبيل وطنه العزيز — قبل رحيله إلى الدار الآخرة — بالسياسة الأسبوعية والمقتطف الأغر .

وهأنذا أبدأ بنشر رسائله — وقد مضى على وفاته نحو عشر السنوات — توطئة لنشر كتابى عنه حسبما أوصانى . وهى بما استنفدت من مجهود تؤلف قسما هاماً من هذا الكتاب . وإنها اليوم وهى أمانة فى عنقى أضحت بوفاة صاحبها ملكا للعالم العربى وقلادة جميلة فى عنق الحقيقة والتاريخ .

احمد محمد عيش

*

صديقى الأستاذ

سلاما واحتراما ، وبعد فقد قرأت فى السياسة الأسبوعية أول شطر من ترجمتك لحياتى قبل إهدائك إياها إلىّ فأنا أشكر لك جميل صنعك وتجشمك كل هذا التعب . وقد رددت على أسئلتك أمّا « الكائنات » فما عندى منها غير نسخة وهذه لا أفارقها وعسى أن تحصلوا على نسخة منها فى مطبعة المقتطف فإنها طبعت فيها وقد جعلها أصحابه قبل سنوات هدية لمشتركيهم وكذلك لا يهون علىّ إرسال «الأوشال» و «النزغات» فإنهما مخطوطتان وليس عندى غيرهما .

أما قصائد الأوشال فأكثرها منشور فى السياسة الأسبوعية والرابطة الشرقية والعصور والدهور والمعرفة والإصلاح (تصدر فى أميركا الجنوبية) وكذلك ما عندى من المحاضرات التى كنت ألقيها على تلامذة الجامعة فى الآستانة غير نسخة واحدة باللغه التركية ولا يسعنى مفارقتها .

وأما « ثورة فى الجحيم » فعندى نسخة منها مطبوعة فى مجلة الدهور وعندى المسودة فأرسلت إليك النسخة المطبوعة وقد تكون فيها أغلاط

مطبعية لا تخفى على مثلك ، وأرسلت « الجاذبية وتعليلها » وأرجو أن تعول فى هذا التعليل على « المجل » والديوان الذى طبع فى مصر باسم « ديوان الزهاوى »

أما ما كتب عنى المستشرقون فمعظمها نشر فى « لغة العرب » للاستاذ الأب « أنستاس » وأما ما كتبته المجلات فى مصر وسورية وأميركا فكثير ، غير أنى لم أحفظ جميعه والمحفوظ منه ضائع فى ركام من المجلات والجرائد وصناديق مملوءة من الأوراق وقد رسب عليها الغبار فلا أستطيع أن أتصفحها فلا تكلفنى مالا أستطيع .

ولك أن تتصرف فى رواية « ليلى وسمير » من دون أن تطلعنى عليه .

وقد بلغنى أن مستشرقا كبيراً فى جنيف يشتغل بترجمة حياتى ، وقد عزم على أن ينقل أحد مؤلفاتى إلى اللغة الألمانية (لعله ثورة فى الجحيم) وقد طلبها منى بواسطة أحدهم فأرسلتها إليه مع قسم من مؤلفاتى ودواوينى ، وقد نقل أحد مستشرقى الألمان أبياتاً إلى الألمانيـة شعراً وتكلم عنى مطريا فى مجلة ألمانية له وأهدى إلىّ العدد .

وقرأت قبل سنوات مقالا رئيسيا فى أكثر من صفحة من جريدة « الرائد » الأميركية يكبر شأن ديوانى « اللباب » ويرجحه على دواوين غيرى ويقترح على الحكومات العربية أن تدخل تدريسه فى مناهج التعليم لمدارسها وتعدد فوائد ذلك .

وقرأت فى إحدى أعداد السياسة الأسبوعية قبل سنتين تقريبا مقالا للكاتب الكبير محمود عزت موسى يقول فيها « أنا لا أفضل شعر جوته شاعر ألمانيا على شعر الزهاوى » وقرأت كذلك فى السياسة الأسبوعية سلسلة مقالات لأحد أدباء الأسكندرية يطرى فيها شعرى فوق ما أستحقه .

وقرأت قبل سنتين أو أكثر مقالا للكاتب النابغة الدكتور طه حسين فى « المجلة الجديدة » للاستاذ سلامه موسى يقول فيه ما ملخصه « إن شوقى وحافظا من شعراء بنى العباس وإن المجددين للشعر العربى ثلاثة العقاد والزهاوى وخليل مطران حين كان يعنى بالشعر العقاد وخليل فى معانيهما دون لفظهما والزهاوى فى ألفاظه ومعانيه ويلذنى معانى العقاد كما يلذنى شعر كبار الشعراء فى فرنسا وانكلترا وكما يلذنى شعر الزهاوى وأرى الفرق عظيما بين الفاظ

الزهاوى وألفاظ العقاد وبين معانيها » فقد رجحنى يومئذ على جميع شعراء العرب فى عصرى وجعلنى المجدد الوحيد الذى حسنت ألفاظه ومعانيه ثم إنه بعد وفاة شوقى نشر مقالا فى الصحف قال فيه إن زعامة الشعر التقليدى بعد شوقى وحافظ انتقلت إلى بغداد يتنازعها الزهاوى والرصافى .

وقرأت قبل ذلك مقالا للاستاذ العقاد يطردنى فيه من حظيرة الشعراء والفلاسفة .

وتأتينى فى كثير من الأحايين من مصر والسودان وتونس وسورية كتب يبالغ أصحابها فى إطراء شعرى فقد جعل بعضهم ديوانى « اللباب » توراة المحدثين وإنجيلهم وقرآنهم وقد أهدى إلىّ بعض الأدباء فى السودان صولجان الشاعرية مصنوعا من سن الفيل ومنقوشاً عليه اسمى .

وهناك كتب تأتينى وأكثرها من وطنى بغداد مملوءة بالسب والإهانة والتهديد وقد كتب أحدهم فى مجلة له قائلا « أما الزهاوى فلا شئ » .

يقولون لا شئ وهم يرجموننى ... وهل يستحق الرجمَ مَن هو لاشئ

وكتب أخيرا أحدهم فى مجلة « أبولو » أن ليس فى شعر الزهاوى الموسيقى التى هى فى شعر شوقى .

ولا تظنن أنى انزعج من مثل هذه الكتابات فإن الأذواق مختلفة والأدباء يقدرون الشعر بحسب مستواهم من الأدب .

ولقد أرسلت إليك مجموعة من الأبيات التى ذهبت أمثالا أو كادت لكثرة ما يُستشهد بها التقطتها من ديوانىّ « اللباب » و « الأوشال » وشيئاً قليلا من شعرى الغرامى والعاطفى وكنت أود أن أرسل إليك ما أختاره من شعرى الوصفى والفلسفى والاجتماعى والسياسى ولكن هذا يكلفنى تعبا لا أقوى عليه اليوم ، واسمح لى أن أقبل عينيك النافذة .

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ١٦ شباط سنة ١٩٣٣

ملاحظة : إن أجوبتى عن أسئلتك كتبتها مراداً ذاكرتى الواهنة ولو كنت كما كنت قبلا لأثبت المواضع ولكن الشيخوخة والمرض عدوان .

*

حضرة الأستاذ

تحية واحتراما . وبعد فقد ثبطتنى أشغالى الفكرية التى كنت قد باشرتها قبل وصول كتابك إلىّ عن الإجابة على أسئلتك المرهقة وقد كان حتما على أن أنظم خمس قصائد مطولة فى مواضيع مختلفة فنظمتها وكانت العاقبة أنى مرضت أسبوعا فلم أعد أصلح للنظم أو الكتابة وحبذا لو كنت تصرف النظر عن توجيه أسئلة تتعلق بماضى حياتى وقد نسيت أكثر حوادثه وأرجو أن لا تتكرر هذه الأسئلة . فإنى أجد فى الجواب عليها عنتا وأنا ذلك الشيخ الذى يشبه جدارا يكاد ينقضّ . أما وقد أبللت فإنى مجيبك فى إجمال عن أكثر أسئلتك فى كتابى هذا .

لم تبق لى والدة ولا والد حتى أسأل منهما ما يتعلق بطفولتى فقد ماتت والدتى قبل أكثر من ٤٥ سنة ووالدى قبل ٤٠ سنة ، ولا هناك عجوز تعرف شيئاً من تلك الطفولة البريئة المتمردة فى وقت معا .

كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فنزعنى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى وأخذ على عاتقه أن يربينى تربية خاصة متبعاً هواه وكان هواه الأدب وكان شاعراً فى الفارسية والعربية معاً غير أنه مقل فيهما ، ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدعُ فى حاجة بازاً ولا أسدا الله ربك لا تشرك به أحدا

(يريد بالباز عبد القادر الجيلى وبالأسد عليا بن أبى طالب كما يلقبهما به الجمهور فى العراق) .

وأتذكر أنه كان فى طفولتى (ولم تتجاوز سنى يومئذ أربع سنين) يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر موزونا وإن لم يكن له معنى وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جذل والدى أما جذلى أنا فكان فى الحلوى التى كنت أشتريه بذلك الدرهم .

وأتذكر أنى فى ليلة من ليالى الشتاء القرة كنت فى غرفة والدى فقال لى إلبس يا ولدى عباءتك فإنى أخاف عليك البرد فقلت له وأنا فى السن التى ذكرتها

« يا أبى إنى لابس للغرفة فمن أين يتسرب البرد إلىّ » فكان جوابى هذا مؤيداً لما كان يظنه فىّ من ذكاء وسببا لفرحه .

ولم تكن للبيئة العلمية التى ولدت فيها فضل لخلق الأدب فىّ وما ساعد مواهبى على الظهور — إن كانت لى مواهب — سوى ما كنت أسمعه من والدى وكنت شديد الاختلاط به أنام فى غرفته الخاصة بجنبه وأنظم الشعر تحت لحافى فأنبهه فى كل ليلة مرارا من رقاده أسأله عن وزنه وصحة تركيبه فكان يصلح لى ما يراه مختلا وكان يحملنى على حفظ أحسن الشعر قائلا إذا أكثرت من استظهار الشعر الجيد فإن شعرك سوف يكون من الجودة بمنزلة ما استظهرته ، ومن نصائحه لى عند ما شببت فاستطعت نظم القصائد قوله إنك إذا فرغت من نظم القصيدة فاصقلها ثم انقدها كأنها لغيرك مجردا نفسك من العاطفة فإذا لم يرقك من أبياتها شىء فاحذفه وإلا أفسد عليك الباقى الجيد وأنا إلى اليوم أعمل بنصيحته وأول ما نظمت الشعر فى الفارسية ثم انتقلت إلى العربية حتى شاع أننى أجيده فى كلتا اللغتين .

وبلغنى وأنا مراهق أن الكثيرين يعتقدون أن هذا الشعر الذى أنسبه إلى نفسى هو لوالدى ينحلنى إياه فذكرت ذلك له جردان متبرما فضحك قائلا يجب أن تفرح بدل التبرم فقد بلغ شعرك درجة أن لا يصدق الناس أنه لك فسرى عنى وكان يقول لى وأنا ابن العشرين إنك اليوم أشعر منى ولا أدرى ماذا سوف تكون فى المستقبل عند ما تبلغ الكهولة وتتوسع فى العلم واللغة . وقد تأثرت فى شبابى بشعر المتنبى وشاعر الترك يومئذ « كمال » بك .

ذهبت إلى الكتاب فى الخامسة من سنى أو الرابعة وبقيت فيه بضع سنوات بليدا لا أتقدم ولا أهتم بغير اللعب أو نظم الأشطر الفارغة من المعانى بعد أن وجدتها وسيلة لنيل الدراهم الموصلة إلى الحلوى ، ولكنى بعد ما انتهيت من جزء « عم » أخذت أخطو خطوات واسعة فتعلمت قراءة جميع أجزاء القرآن الباقية فى شهر واحد ، ولما شببت شرعت أقرأ على بعض العلماء من تلامذة والدى مبادىء الصرف والنحو والمنطق وشيئاً من البلاغة . فلما رأيتهم لا يشبعون جشعى ولا يقنعونى بأجوبتهم على أسئلتى تركتهم ورجعت إلى والدى وقرأت عليه ديوان المتنبى وتفسير البيضاوى وشرح المواقف .

وكان يجتمع إلىّ فى شبابى عدد من الأدباء والشعراء نتذاكر الشعر ونختلف

فى معنى بيت أو بيتين فنذهب إلى والدى جاعلين إياه حكماً فيما اختلفنا فيه فكان دائماً يستصوب ما أذهب إليه حتى قال لى أحدهم إنه أبوك يريد ليرفع من شأنك فقلت انسبوا المعنى الذى ترونه إلىّ والمعنى الذى أراه إلى أنفسكم فإذا استصوبنى كنتم فى دعواكم من الصادقين فلما ذهبنا إليه وبسطنا أمامه ما اختلفنا فيه استصوبهم وبخنى على خطئى فكان ذلك داعيا لسرورى وفشل المدعين .

وأول مجلة لذتنى مطالعتها هو الأجزاء الأولى من المقتطف ، وأول الكتب فى العلوم العصرية هو مؤلفات فانديك فى الفلك وغيره وكتابان ضخمان فى الفسيولوجيا والتشريح مصوران للدكتور ورتبات ، وكتب أخرى تركية كلها فى العلوم العصرية .

اما الكتب التى لا يمكننى اليوم أن أستغنى عنها فهى كتب اللغة المطولة ولا يلذنى شىء كقراءة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

أنا لا أعرف لغة غربية لأعرف أى الشعراء أو الكتاب فى الغرب هو الأكبر غير أنى قرأت بالتركية ترجمة البؤساء لفكتور هوجو فى مجلدين ضخمين فأعجبتنى وأبكتنى وقد قرأت مئات من الروايات المترجمة إلى العربية والتركية فكان بعضها فى منتهى الجودة ، ولا أتذكر الآن أسماء مؤلفيها غير أناتول فرانس وشكسبير وجوته والكسندر وتولستوى وقليل غيرهم .

وإذا كنتم فى سؤالكم « كيف تشعرون نحو كتبكم وما أحبها إليك بنوع خاص » تريدون مؤلفاتى فأحب منها « الكائنات » فإنها باكورتها وإن كانت عبارتها ضعيفة وأحب « المجمل مما أرى » لأنه يشتمل على خلاصة ما أذهب إليه وأحب من دواوينى « الأوشال » وهو ديوانى الأخير الذى لم ينشر منه إلا قصائد هنا وهناك وأحب خاصة قصيدتى « ثورة فى الجحيم » .

والأفضل فى هذه الحياة هو العلم والشعر ثم القصة .

أما مكتبتى فهى هزيلة ليس فيها إلا الكتب التى تهدى إلى من الخارج وأخر قد اشتريتها بعد رجوعى من مصر سنة ١٩٢٤ وكنت قبل ذهابى إليها قد بعت جميع كتبى إلا النادر منها لضيق ذات يدى يومئذ .

وأما وضعى فى مطالعتى فإنى أجلس فى الليل فوق سريرى أمام أكوام من الكتب التى أحتاج إليها مصفوفة فوق منضدة طويلة فى جنب سريرى الذى أنام عليه وقد أطلّ علىّ الكهرباء بقوة مائة شمعة معلقا فوق رأسى ببكرة أنزله

وأصعده بها واقرأ فى الغالب مستلقيا على ظهرى على أن هذا الوضع يتعب عينى.

وكل ساعاتى محبوب إلىّ فيها المطالعة إذا عثرت على رواية مترجمة جديدة أو مجلة فيها مقالة فلسفية .

وأكتب شعرى أولا بقلم الرصاص ثم أصقله ثم أثبته فى مجموعة ديوانى الأخير ويحلو لى قرضه فى الليل ولكننى أنظمه فى كل مكان وإن كنت فى مجلس نتحادث فيه ، وإذا شرعت أنظم قصيدة عن دافع فى نفسى فإنى أكملها فى ليلتى ثم أصقلها فى يوم أو يومين ، وأحسن قصائدى « ثورة فى الجحيم » كما قدمت ، وهناك قصائد أخر بعضها منشور فى ديوانى « اللباب » وبعضها موجود فى ديوانى الأخير « الأوشال » كقصيدة « على قبر ابنتها » وقصيدة « نامى » (هى ترنيمة للتنويم) وقصيدة فى « ليلة هنا » وقصيدة « إلاّ أنا وحدى » وقصيدة « اذكرى » وقصيدة « دمعتى » وقصيدة « إلاّ هواك » وقسم غير قليل من رباعياتى عدا قصائدى الفلسفية .

وأنصح للشعراء أن ينظموا عن شعور وأن يتجنبوا المبالغات وربما كان ذلك لأنى أميل إلى الحقيقة والخيال الذى لا يبعد عنها كثيراً وأن يتجنبوا الاستعارات البعيدة .

وأرى أن الغالب من شعراء مصر والعراق مبالغون وهذا الطرز من الشعر لا يكون عن شعور .

والفرق بين شوقى وحافظ كبير فإن شوقى أكثر ابتكارا وأبعد تصرفا وهو يجيد فى أكثر أبواب الشعر فى حين أن حافظا أكثر ما يجيد فيما يتعلق بالعاطفة وأرى أن شعر شوقى فى السنين الأخيرة أخذ يتجدد ولذلك تغير رأيى فيه فلا أنتقده إلا على مبالغاته التى لا صلة لها بالشعور ويعجبنى منه أسلوبه الخاص به ولكل شاعر فحل أسلوب .

وأما الفراغ الذى تركه حافظ وشوقى فسوف تسدّه الأيام .

وكنت أجد فى حكم الأتراك غضاضة إلى عهد الدستور وكنت من معارضى استبداد الملك الجبار عبد الحميد ، ونظمت القصائد الجمّة أثير بها الشعب عليه وقد سُجنت عليها فى الآستانة ثم أُرسلتُ مخفورا إلى بلدى ولكن الأتراك فى عهد الدستور كانوا يحترموننى إلى أن طغى الاتحاديون فأتوا أعمالا لا تتفق والعدالة وكم لى من وقفة فى البرلمان العثمانى أذود فيها عن حقوق العراق والعراقيين .

ولم أكن يوم عينتني حكومة عبد الحميد عضواً فى مجلس المعارف ببغداد إلا شابا يتظاهر بالاستياء من وضع الحكومة فلعلهم أرادوا بتعييني أن يسكتوني ولما ذهبت إلى الآستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت فى التجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصرية، وقد ذهبنا فى حرب الإنجليز والبوير جماعة من الترك الأحرار نتمنى للإنكليز الفوز فى محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد يريدون بذلك أن يعضدهم الإنكليز فى طلبهم الدستور وكنت نظمت لهذه الغاية قصيدة أمدح فيها الإنكليز وأشدو بقوة أسطولهم وقد نشرت فى أول ديوان نشر لى « الكلم المنظوم » وإلى اليوم يعيبنى ناقدوى على هذه القصيدة ولكن هل كنت يومئذ أعرف أن ستحدث حرب عالمية ويحتل الانكليز العراق هذا لم يكن يخطر فى بال أحد ولم تكن فى بغداد يومئذ كتلة وطنية .

ولم أدرس القانون إلا بعد أن عينتني الحكومة التركية عضواً لمحكمة الاستئناف ثم فى عهد الدستور أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق ببغداد بعد أن كنت أستاذاً للفلسفة فى الجامعة بالآستانة فجمعت عند تعيينها إياى مدرساً فى كلية الحقوق ما أحتاج إليه من الكتب التى تتعلق بدرسى وتوسعت فيه إلى حد وكلية الحقوق هذه كانت يومئذ أعلى مدرسة فى بغداد يدرس فيها كل مايتعلق بالحقوق .

ولم تكن لى حرفة أشتغل بها فى شبابى أما بعده فكانت حرفتى التدريس فى الجامعة والكلية وغيرهما من المدارس فقد درّست فى عهد الاحتلال معلمى المدارس من المخرجين من دار المعلمين ولم أمل فى حياتى كلها إلا إلى الفلسفة والأدب .

وحبذا لو اعتمد شبان الشرق العربى على أنفسهم فى طريق الحياة ولم يتهافتوا على وظائف الحكومة . أما القوانين التى ترجمتها إلى العربية عندما كنت رئيساً للجنة « تعريب القوانين » فعددها ١٧ قانونا غير أنى لا أتذكر منها إلا قليلا .

وأخال أنى أميل إلى دراسة قانون العقوبات أكثر من القانون المدنى فإن فيه المجال للفكر أوسع وهو أحوج إلى الإصلاح من القانون المدنى فلا أعتقد أنه يصلح للمستقبل الذى ستتغير فيه العادات ويتطور المجتمع تطورا لم يكن فى الحسبان .

وإنى أقضى يومى فى إعادة الزيارة للذين يزوروننى من أصحابى الذين هم أقرانى

وكثيراً ما أجلس فى المقهى الذى يجتمع فيه الشبان الذين ينزعون إلى الأدب فيحيطون بى وقد أصحح لبعضهم قصيدة له يعرضها علىّ وأرجع ظهراً إلى دارى التى بنيتها جديدة وهى محاطة بحدائق وأجلس مساء فى حديقتى فيزورنى من يزورنى وفيهم المتعلم والشاعر والمنادم والسائل يريد حلا لمشكلة علمية عنده .

والجانب الخاص بحياتى المنزلية هو أنى إذا لم أكن فى يومى قد ثارت فىّ آلامى العصبية أطالع ثم أطالع وأتنقل من كتاب إلى كتاب كأنى عصفور يتنزى من غصن إلى غصن فى روضته وأكثر ليالىّ أقضيها فى مطالعة وجه السماء الحافل بالنجوم والتفكير فيها إذا كان الفصل صيفاً وأما فى الشتاء فأحب أنواع التسلية عندى هو مطالعة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

وأما الأبحاث العلمية التى أكتبها فليست كما تظن جافة فى نظرى وقد أعتمد على المراجع أثناء كتابتى غير أن أكبر مرجع لى هو ذاكرتى فإنى وإن كانت ذاكرتى فى المسائل الاعتيادية ضعيفة لا أنسى أكثر ماقرأته أو طالعته فى شبابى وكهولتى فى المطالب الفلسفية واليوم ذاكرتى أضعف منها فى شبابى وكهولتى غير أن قوة التفكير فىّ لم تضعف ضعفاً محسوساً .

وأحب الروايات التمثيلية إلىّ هو التراجيديا .

وحضرت مامثلته السيدة فاطمة رشدى والأستاذ يوسف وهبى فى بغداد من الروايات فأبكانى بعضها وأحب السينما كثيراً لأنى أشاهد فيها مناظر الغرب وأعرف من رواياتها عادات القوم فهى تقوم منى مقام السفر .

والناس فى بغداد مفرط ومفرّط فمنهم من يقدمنى على كل شعراء العرب ومنهم من يجعلنى دون جميعهم أما أنا فلا أفرح بمدح المادحين ولا أحزن لذم القادحين غير أنى أكره المنافقين الذين يمدحوننى فى وجهى ويذموننى ورائى وأبغضهم إلىّ من ينقدنى حباً بالشهرة وأكثر ماقرأته من النقد لى لم يكن نزيهاً ولا قائماً على أساس من العلم والمنطق بل على الأكاذيب والمفتريات والناس المتأدبون فى العراق فوضى فقد تقرأ جريدة تصعدنى إلى مافوق منزلتى وتقرأ فى اليوم الثانى جريدة أخرى تنزل بى إلى الدرك الأسفل ويختار أحدهم بيتاً من دواوينى جاء تمهيداً لبيت وراءه ويجعله من بين ٢٠٠٠٠ بيتاً حجة على أنى لا أحسن النظم ويأتى آخر فينسب كل ما هو من عملى أنا إلى غيرى يريد بذلك إغاظتى كقوله إن فلانا (يريد غيرى) هو أول من قاوم الاستبداد بشعره وأول

من نظم الشعر القصصى وأول من دافع عن المرأة كذبا وبهتانا وهو يدرى أنى الذى قاومت استبداد عبد الحميد قبل أربعين سنة ونظمت الشعر القصصى قبل ٣٥ سنة ودافعت عن حقوق المرأة قبل ثلاثين سنة وقد سُجنت فى الآستانة من أجل القصائد التى نظمتها طعناً فى حكومة السلطان الجبار عبد الحميد لاستبدادها وعزلت من وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى عن حقوق المرأة ولأنى أنا الذى نظمت قصة « امرأة الجندى » قبل أكثر من ثلاثين سنة يوم لم يكن فى بغداد شاعر يصرف الشعر فى إصلاح المجتمع .

كل هـذا وأنا ساكت لا أتنزل إلى الرد على أمثالهم فأمر باللغو كما يمرّ الكرام وأقول إذا خاطبنى الجاهل سلاما .

وأكثر الذين يعادوننى فى بغداد هم من الشعراء أو أصحابهم يسأل رأيى فيهم شاب متعلم فانزلهم منزلتهم فيسمعون ذلك ويناصبوننى عليه .

وما زالت نهضة العراق ضيقة النطاق .

وأما أبطال النهضة المصرية فشوقى وحافظ واسماعيل صبرى والأستاذ الأكبر لطفى السيد والفيلسوفان شبلى شميل ويعقوب صروف والدكتور طه حسين والدكتور هيكل والدكتور عنانى والدكتور منصور فهمى والمرحوم ولىّ الدين يكن وفى مقدمتهم الامام عبده والفيلسوف جمال الدين الأفغانى وغيرهم .

وقد أحببت فى أول شبابى جارية شركسية عرضت للبيع واستحييت أن أخبر والدى بحبى لها وكانت هى لاتعرف أنى أحبها وأحببت فى الآستانة يهودية أسبانية عذراء وكانت تحبنى مثل حبى لها وتزورنى فى دارى مع أبيها فلما سجنت بكت علىّ وربما كان لهذا الحب تأثير كبير فى شعرى .

وقد تزوجت قبل ٤٥ سنة بعد وفاة والدى بقرينتى النجيبة السيدة زكية وهى من عائلة تركية وقد قضينا العمر فى حب ووئام ولم تلد لى وربما كنت أنا السبب . وكانت العادة أن تختار الأم أو الأخت الزوجة للإبن أو الأخ وهـذه الطريقة كثيراً ما تفشل إلا أنها لم تفشل معى والمثل الأعلى للزواج أن يختار كل من الزوجين صاحبه بعد صداقة بريئة ومعاشرة غير قصيرة بمشهد من الأقارب أو الأصدقاء وأن يكون العقد مشروطاً بجعل الطلاق من حق كلا القرينين إذا حصلت عند أحدهما كراهية نحو الآخر وكانت راسخة .

ولاتزول أزمة الزواج فى مصر والعراق إلا إذا كانت الثقافة مشتركة بين

الفتيان والفتيات فنظرا إلى الزواج نظرة صادقة وجعلا الحقوق متساوية بينهما . أما فى العراق فالزوجة لاشأن لها فى أمر الطلاق وأما الزوج فكثيراً مايطلقها لأنه جلف بالطلاق أنه صادق وكذب أو لأنه يخاصم أحدهم على مسئلة تافهة فيرجع إلى بيته ليلا حردان أو سكران فيطلق زوجته لأنها كانت راقدة فلم تسرع فى فتح الباب أو لأنها أبت أن تسلمه حليها ليبيعه ليشترى بثمنه الخمرة أو يصرفه على مائدة الخمار .

كراهة فسباب فركلة فطلاق

كانت حنجرتى فى شبابى متينة غير أن الزكام وتكرر الاصابة به والسعال المزمن كل أولئك قد نهكها ولاسيما فى شيخوختى الشلاء العرجاء .

ولا أرتجل من الشعر إلا البيت والبيتين ولا ميل فى نفسى إلى الارتجال وربما كان ذلك لضعف حافظتى .

وقد كنت فى شبابى وكهولتى أسير فى المنام وكانت بعض أحلامى مزعجة انتفض لها وأهب من نومى مذعوراً وكسرت فى ليلة كل مافى غرفتى من المرايا والأوانى الصينية والمصابيح الثمينة وأنا نائم فدميت يداى لجروح أحدثتها كسر الزجاج وكانت قرينتى ترتجف من الخوف فى سريرها وقد انتبهت من نومها على صوت الزجاج والأوانى التى كانت تتكسر .

وقد رميت نفسى مرّة من شباك فى الطابق الثانى إلى الطابق الأول ولم يصبنى إلا رضوض وكثيراً ما أنظم فى حلمى شعرا وأنساه فى يقظتى وقد أحل فى نومى مشكلا لم أحله فى يقظتى وفوق هذا فإن العقل الباطن هو الذى يعيننى على نظم الشعر فى يقظتى فكأنه قرينى من الجن يملى علىّ فأكتب .

وآلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية فإنى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الأسى وكلما خضع للظلم شرقت بدمعى . يمشى فى سبيل التقدم الهوينا ثم يقف به تعصب المتعصبين فى مكانه لا يتقدم و لا يتأخر ثم يمشى ثم يقف .

ليس الذى جاء يمشى اليوم متئدا بلاحق للألى من قبله ركضوا

ولا أقرأ من الصحف إلا ما أراه ذا بال سواء كانت عراقية أو مصرية وأقرأ

خاصة فى المقتطف ما جدّ فى العلم أو ما ارتآه كبار علماء الغرب فى الفلك وبناء للكون أو فى الأشعة أو فى الغدد السائبة إلى غير ذلك .

وكنت فى طفولتى ألعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فأطيره أسرابا وقد نشر لى المقتطف مقالة فى بيان سبب تقبله ورجح تعليلى له على تعليل العلامة دارون وولعت بركوب الخيل فكنت أسابق بكرامها غيرى من غواتها ونشر لى الهلال رسالة فى سباق الخيل ذكرت فيها كثيراً من الحقائق المتعلقة بالعدو .

ثم ولعت بلعبة « الداما » فألفت فيها رسالة سميتها « اشراك الداما » جمعت فيها ٥٠٠ لعبة لأساتذة الداما وأضفت إليها من مستنبطاتى ألف لعبة وكان لى فى شبابى أصحاب من ضباط الجيش الممتازين (أركان حرب) وكان هؤلاء يلقون علىّ مسائل لا تحل إلا بالجبر الأعلى فكنت أحلها بقلمى مستخدما عقلى وحده لأنى لم أتعلم قواعد الجبر فكانوا يتعجبون من ذلك ولا أخالنى اليوم قادراً على ذلك .

كنت فى شبابى زعيما على أترابى وكانوا يحترموننى ويتجنبون مخالفتى وكنت قويا فى منطقى وعضلاتى وأعصابى وسباقا فى العدو وكنا نتسابق فى الغوص فى الماء فلم يغلبنى أحد منهم فقد كنت أستطيع البقاء فيه مدة ثلاث دقائق وكانوا لا يزيدون على الدقيقة وكنت أركض إلى جدار قائم أمامى فأخطو فوقه ثلاث خطوات من غير أن تمسه يدى وغيرى لم يزد على خطوتين .

ولا أزال أستقبل زوّارى مرحباً بهم وإن كان بعضهم من المنافقين الكذابين الذين لا تلذنى محبتهم وكثيراً ما فارقنى هذا القسم من الزوار فكتب فى الصحف مفتريا علىّ ما لم قله .

الكذب عاهرة شهدت طلاءها وسمعت منهـــا رنة الخلخال

وكنت فى كل حياتى عزيز النفس فقد عيننى جلالة الملك فيصل المعظم قبل سنوات شاعراً لنفسه براتب شهرى قدره ٦٠٠ ربية فرفضت على شدة عوزى يومئــذ وكتبت فى عريضة رفضى « أنا لست ذلك البلبل الذى يغرد طمعاً فى حبات تلقى إليه » ثم بعد أشهر بلغت زيادة راتبى بجعلها ٨٠٠ ربية إذا قبلت فرفضت ثانية على أن رفضى هذا لم يكن عن استكبار بل عن اعتقادى أن الشعر الذى يقوله الأجير لا يصدر عن شعور . وأعتقد أن جلالتـــه لم يرد من هذا

التعيين إلا آن يكون وسيلة لرفاهتى فهو غنى عن مدحى ومدح غيرى ومن واجباتى أن أمدح ملكى المعظم كلما جاء عملا فيه نفع بلادى :

رب مال هو لو شئت اقتناء عند لمسى
إنما تمنعنى عن نيله عزة نفسى

أما صحتى فليست جيدة وذلك لمرض عضال اعترانى فى سن ٢٥ مركزه فى النخاع الشوكى منى وقد تداويت فى بغداد والآستانة ومصر عند أشهر الأطباء فلم يجدنى دواؤهم وكل استفادتى أن توقف الداء فىّ ولكن بعد أن شلت أصابع رجلى اليسرى .

وقد أحاول أن أسعى فتمنعنى رجل رمتها يد الأيام بالشلل

وأحب من الأطعمة أيدى الضأن مع قليل من الخل ، ولكن الخل يزيد فى آلامى العصبية ويثيرها وأحب البيض الطازج والرز إذا كان من النوع المسمى بالعنبر والحلوى إذا كانت قليلة الحلاوة والتمر الطرى مع اللبن الرائب وشوى السمك إذا كان من نوع «الشبوط» والبفتك ولكن الأطباء يمنعوننى من أكل اللحم إلا الأبيض منه .

وأحب المجلات إلىّ فى الشرق العربى هو المقتطف الأغر ثم السياسة الأسبوعية والعصور والدهور لما كانتا تصدران .

وإذا جلست معى ساعة كصحفى فإنك تخرج لقرائك من عندى بما يسخط الجمهور ويرضى الخواص وإذا كانت المباحثة فى أمر جلل فإن حديثى يهب أولا كالنسيم العليل ثم يزداد شدة فيكون ريحا ثم يشتد فيكون إعصارا فتتوسع عيونى ويرتفع صوتى وتمتد إليك يدى كأنى أريد أن أدمغك بجمعى وأخال أن السبب هو شدة العصبية فى وأتذكر قول أحد الأطباء الإخصائيين بالأمراض العصبية فى الآستانة « أنى بحسب اختصاصى شاهدت كثيراً من العصبيين ولكن ما رأيت كعصبيتك فى شدتها » وأنا لا أسمع القرآن إلا فى أوقات نادرة كحفلة عقد النكاح لأحد معارفى . وعندى أن أفضل لباس للرأس هو البرنيطة ، ولا يجدى الشرق إلا الجندية الإجبارية والتعليم الإلزامى معا ، وإذا جلست معى بدون سابق معرفة فإنى أستدرجك فى الكلام بدءاً بأبسط الأسئلة وأنتقل

فيها حتى أعرفك قبل أن تعرفنى ، وبى من الميل إلى الموسيقى ماهو شديد إذا كان الموسيقار فنانا فقد تبكينى ويطيب لى البكاء حينئذ كأنها تنكأ جرحا فى قلبى يحتاج أن ينصب إلى الخارج قيح محصور فيه وكنت فى شبابى أذهب فى صباح الأعياد إلى المقابر فأسمع أمهات الموتى أو أخواتهم أو خطيباتهم يخاطبنهم بكلمات يودعنها شجوهن هى الشعر فتغرورق عيونى وأجهش فى مكانى .

وإذا جلس إلىّ أحد كتلميذ يود الاستفادة فإنى أنصحه قبل كل شىء بالصدق باسطا له مضار الكذب وأنصحه بالتعلم ولا سيما العلوم التى تحتاج إلى تفكير وأنصحه أن لا يتعصب فى الدين ويترك كل أحد حرّا فى آرائه .

والمصدر المادى الذى أعتمد عليه هو ١٥٠٠ باون لى فى البنك وبيتان لى أريد بيعهما يساويان ١٥٠٠ باون عدا الدار الجديدة التى بنيتها صارفا على شراء العرصة وبنائها وتأثيثها ١٧٠٠ باونا أما راتبى فى التقاعد فهو ١٢ دينارا فهو ضئيل لا يقوم بنصف نفقاتى . وهذا الذى ادخرته هو من فضلة رواتبى الضخمة قبل أن أتقاعد :

لى زوجة وليس لى أولاد وعندى ثلاثة من الخدم إحداهم طباخة .

وما تصورت فى عمرى أن أنتفع بالأدب ولا أرسلت قصائدى إلى مجلة إلا بعد أن طلب صاحبها ذلك وعرفت أن مجلته رائجة وفى السنين الأخيرة لم أنشر قصائد لى فى جرائد بغداد لعلمى أنها تمقتنى وتحسبنى مارقا إلا جريدة هى فى جانبى ولكنها مسدودة اليوم من قبل الحكومة .

أما مواقفى العظيمة التى وقفتها فى حياتى فهى كثيرة منها . أنى لمّا كنت أستاذا للفلسفة فى الجامعة التركية قدم أحدهم تقريراً إلى البرلمان أن الزهاوى يضلل التلاميذ فسألنى وزير المعارف فأجبته قائلا إنى أذكر فى دروسى حجج علماء الغرب بكل قوة وأذكر دلائل علماء الدين كذلك وأترك البت إلى قابلية التلاميذ وأنا لم أطلب هذه الوظيفة منكم فأنتم الذين عينتمونى وإذا كانت طريقتى لا تروقكم فإنى مستعد للاستقالة فرضى البرلمان بجوابى وبقيت مواظبا على دروسى التى كنت ألقيها على تلاميذى وكان عددهم ٣٥٠ تلميذاً .
ومنها أنى أنشدت أبا الهدى قصيدة فى ذم سياسة الملك عبد الحميد وسجنت على ذلك وسُفّرتُ إلى بغداد مخفورا ، ومنها نى لما كنت عضواً فى البرلمان

العثمانى رأيت فى ميزانيته الحربية مخصصات لقراءة البخارىّ الشريف فقلت لو كنت أرى هذه المخصصات فى ميزانية الأوقاف أو المشيخة الإسلامية لما أوجبت استغرابى ولكن وجودها فى ميزانية البحرية عجيب فهل ترون أن أسطولنا يتحرك بالبخارى الشريف لا بالبخار فقامت ضجة حول كلمتى هذه وأخذ النواب يضربون على المناضد حتى كادت تتكسرا ، وأشد الغيظ علىّ كان من أهل العمائم وقد جاءتنى فى اليوم الثانى كتب من شباب الترك يهنئوننى على جراءتى .

ومنها أن الحكومة المحتلة فى زمن المندوب السامى السر ولسن — كانت يومئذ الثورة العراقية فى أبان شدتها — جمعت مندوبى الأمة للمذاكرة واختارت من الأشراف الذين لم يتظاهروا بالاتفاق مع الثائرين عشرين شخصا وكنت أحدهم . فلما فرغ المندوبون من بسط مطالبهم انتظر المندوب السامى كلمة الذين اختارهم وكان يعتقد أنهم سيكونون فى جانبه فقمت خطيبا وقلت أنا بالأصالة عن نفسى والوكالة عمن انتخبوا معى أشترك مع مندوبى الأمة فى مطالبهم هذه الحقة ولا أرضى بغير الاستقلال للعراق فلم يكذبنى أحد من المختارين واستاء المندوب السامى وجماعته منى وأخذت الحكومة المحتلة تغير وجهة سيرها فى الانتداب إلى غير ذلك من المواقف التى يطول شرحها .

وما أعددت من الوسائل ليشرب الشباب ماء رسالتى كما تسأل غير نشر افكارى فى المجلات وفى مؤلفاتى ويعتقد الكثيرون أن نعرة التعصب فى العراق لم تخفت إلا بما نشرته من الأفكار الفلسفية والاجتماعية الحرة .

ولا أرد على خصومى إذ لا أجدهم أهلا للرد ولكن بعض تلاميذى يثورون الآونة بعد الأخرى فيردون عليهم بما يرجعهم مدحورين .

وأما سؤالك عن صلاتى وصيامى فإنى أرانى مقصراً فيهما وأما ما ينسبونه إلىّ من الإلحاد فلا دليل لهم عليه سوى تخرصاتهم .

وقد درست الشريعة الإسلامية والعلوم العصرية وتقدر أن تفهم أثرهما فىّ من مؤلفاتى ومقالاتى :

لما جهلتَ من الطبيعة أمرها ... وأقمتَ نفسك فى مقام مُعلّلِ
أوجدتَ ربّا تبتغى حلاً به ... للمشكلات فكان أكبر مشكل

والمسلمون لا ينهضون إلا إذا فرّقوا بين أمور الدنيا والدين ، وقد خرجت من دراستى للشريعة الإسلامية بما يغيظ المتعصبين من إخوانى المسلمين .

ولا نهضة للمسلمين إلا بتعديل أحكام الشريعة وما أحسن القاعدة التى وضعها علماء الكلام من أهل السنة وهى « إذا تعارض العقل والنقل أوّلَ النقلُ بالعقل » .

وصوفيتى التى أتغنى بها هى أن الله فى الطبيعة والطبيعة فى الله ونقطة الضعف التى أشعر بها هى عدم معرفتى لإحدى لغات الغرب .

والجانب البارز العام فى حياتى هو التمرد على كل قديم ضار .

سئمت كلَّ قديم عرفتــهُ فى حياتى
إن كان عندك شيء من الجديد فهات

جميل صدقى الزهاوى

بغداد فى ٢٠ تشرين الثانى لسنة ١٩٣٢

أحزان الوجود

ما لقلبي شفَّه بَرْحُ الضنى ... ولنفسي قد تغشَّاها السأمْ
أبداً يا قلب تغويك المنى ... ثم لا يعقبها إلا الندم
هل يُضيع العمرَ إلا أننا ... نترك السهل ، ونرتاد القمم !
لو أصبنا لاتخذنا مسكنا ... في صحاري اليأس ، أو وادي العدم

نحن جرَّبنا الأماني والخيالْ ... وجرينا خلفها طول السنينْ
ومنحناها شباباً لن يُنال ... مرة أخرى من الدهر الضنين
ثم ماذا ؟ أين أحلام الليال ؟ ... لم تعد إلا هباء لا يَبين !
تكشف الأنوارُ ما تخفي الظلال ... فترى الوهمَ عيونُ الناظرين

ليتنا لم نعرف الشوق إلى ... عالم لا يتراءى للعيانْ
ليتنا لم نَسْرِ بالوهم على ... ذروة الكون ، وآفاق الزمان
وبقينا حيث كنا أوَّلاً ... نجد الأفراح في كل مكان
لم نكن نعرف ما الشوق ، ولا ... ما الأماني ، والتهاويل الحسان

نحن كنا نأخذ العيش كما ... تمنح الدنيا ، فكنا سعداء
ونغنّي للربيع ابتسما ... مثلما كنا نغني للشتاء
لم نكن ندري الحنين المبهما ... نحو أُفْق الغيب ، أو دنيا الخفاء
وارتعاشَ القلب أمسى مُغْرَما ... برؤى الحب ، وأسرار اللقاء

فترة . . . ثم مضى عهد الصبا   وأتى من بعده عهد الشباب
فإذا معنًى بقلبي انسكبا   مثلما ينهلُّ في الكأس الشراب
فصحا القلب وغنّى وصبا   نحو أُفْق يتوارى بالحجاب
ورأينا الكون مهما رحبا   ضيِّق الأرجاء، محصور الرحاب

ومضينا أنا والقلب معا   نعصر الأحلام من كَرْم الليالي
ونرى العالم قفراً بلقعا   حين لا نسكر من خمر الخيال
ونرى الصحراء روضاً ممرِعا   يزدهينا، وهْو من وهم الرمال:
ذاك وَهْمٌ ليته قد رجعا   بعد أن آذن قلبي بالزوال

هكذا عشنا على أحلامنا   فترة كانت ربيعاً في الحياه
وبنينا من رؤى الوهم لنا   عالماً لا يدرك الطرف مداه
طاب فيه العيش حتى إننا   لم نكن نصبو إلى شيء سواه
وتهادى زورق العمر بنا   ورؤى الآمال تسري في سناه

وكما يَفنَى من الزهر الندى   حينما ترمقه شمس الصباح
ذهبت أحلام قلبي بَدَدَا   حينما طاف بها الفكر الصُّراح
فإذا الأيام يذهبن سدى   كهشيم الزهر تذروه الرياح
لن نغنّي يا فؤادي أبدا   لا... ولن نبكي، فما يجدي النواح

لم يعد يسكرنا هذا الرحيق   مذ عرفنا أنه وَهْمُ الظماء
لم يعد يخدعنا هذا البريق   حين أدركناه، فالتماع الضياء
والذرى والسهل والوادي السحيق   كلها صارت لدى القلب سواء
ذابت الأحلام والشوق العميق   وانتهى عهد الأماني والرجاء

محنة رانت على عمرى السجين · صيرته موحشاً مثل القبور
حيرة طافت على قلبى الحزين · فهو لا يدرى إلى أين المسير
جفت الكاسات، بل جف المعين · وذوى فى مهجتى الزهر النضير
وتوارى كل شىء فى السنين · فتهاوينا إلى هذا المصير

هذه المحنة من أوجدها ؟ · أأنا أم أنت ؟ بل نحن براء
هذه الأحلام من بدّدها ؟ · هى يا قلبى أعاصير السماء
وسهام اليأس من سدّدها · ورماها ؟ إنها كف القضاء
هذه القوة لن نجحدها · قد رأينا فعلها بالضعفاء

فلنعش يا قلب فى الدنيا كما · تتنزّى الطير فى جوف الحبالة
هى كأس أترعوها علقما · وعلينا شربها حتى الثمالة
لا نرى فيها جديداً . . . كلما · غاب شىء أطلع الدهر مثاله
وعجيب الأمر ألا نسأما · بينما الأيام ينضحن ملالة

وإذا جاء الفناء المنتظر · يسأل الرحلة عن هذا الوجود
فلنقل : هذا الرجاء المدّخر · ذلك الشىء الذى كنا نريد
فلقد عشنا كما شاء القدر · بين يأس وملال وشرود
ولنسله فى أناة وحذر · قبل أن نتبعه : هل من جديد ؟

ابراهيم محمد نجا

القطار فى الأدب الروسى

وسيلة لإثارة الانفعال النفسى

إن الدراسة العميقة المنظمة للحوافز التصويرية ولتفضيل فكرة معينة أو موضوع معين، سواء فى ميدان الأدب أو فى ميدان الفنون الجميلة، تساهم بقسط كبير فى تفهم نفسية الأثر الفنى ونظامه الداخلى، وتكشف عن الميول الكامنة اللاشعورية عند الفرد وفى عصره. ومع ذلك كانت البحوث تدور قبل كل شىء حول مسائل تتعلق بالأسلوب والشكل، واستجاب العلم نفسه لحاجات العصر الفنية، وكان من فساد الذوق فى وقت من الأوقات الاشتغال بأمور تصويرية بحتة. بيد أننا نعتبر أن اختيار الموضوع وعناصره الأساسية، بل اختيار الحوافز التى تبدو ثانوية من حيث الأهمية، لا يرجع إلى مجرد المصادفة ولكن يوائم رغبة كامنة وميلا خافياً حتى على المؤلف نفسه.

ولذا فإن الدراسة التصويرية والشكلية للأثر الفنى، تعين كثيراً على معرفة الأساس البعيد والقريب الذى يقوم عليه الأثر الفنى نفسه.

وقد استوحى أوزفانت هذه الفكرة فى مؤلفه «الفن» فقام فيما قام به بمحاولة طريفة، وهى تحديد الألفاظ والمعانى التى تكرر ورودها فى مؤلفات أشهر الكتاب، فلاحظ مثلا أن اللون الأسود يغلب عند بودلير، على حين يسود الأبيض عند جيد، فى حين تندر الألوان عند پروست، وهذا أقلهم إدراكا لعالم المرئيات، فلا يرد عنده سوى اللون الأزرق والرمادى. أما رامبو وملارميه فلهما ميل خاص، أولهما إلى الجو الممطر، وثانيهما إلى الضباب والضجن.

وهذا النوع من البحث قد يبدو عقيما لأول وهلة، ولكن الأمر على عكس ذلك إذا ماسلمنا بوجود رابطة السببية الوثيقة بين الأثر الفنى وعناصره الأساسية، وبين الشخصية الحقيقية للمؤلف.

ولقد حاولنا فى هذا البحث أن نبدأ بتحليل فكرة كثيراً ما وردت

فى الأدب الروسى بصورة بارزة تسوّغ هذه الدراسة ، ألا وهى فكرة القطار الذى تحول فى الأدب الروسى من مجرد وسيلة من وسائل النقل إلى رمز كبير له مغزاه .

فاذا تناولنا دستويفسكى فى قصته « المعتوه » رأيناه يفسر القطار الحديدى تفسيراً غريباً . فنجد ليبيدوف صديق الأمير ميشكين يؤول نجمة الأسى التى ستجتاح الأرض فى رؤيا القديس يوحنا بالشبكة الحـديدية التى تحيط بأوربا . حقيقة أن ليبيدوف يحب المبالغة فهو دائماً مشدوه ويغلب على نزعاته نوع من التصوف ؛ فهو فى قصة دستويفسكى مثال الشخصية التى تقلل من سرعة الحوادث التى يدور عليها موضوع القصة الأساسى ، فمن الغريب أن نراه وهو الذى يعيش فى عالمه الغامض المملوء بعلامات الغيب والنبوءات الصوفية يلجأ فى تعبيراته إلى شيء مادى كالقطار الحديدى .

ولـكن مهما بدت فكرة القطار الحديدى عادية وخالية من الطرافة ، فإنها قد وردت كثيراً فى قصص كبار المؤلفين بصـورة بارزة ، مما يكسب عبارة ليبيدوف معنى عاماً كان سائداً إذ ذاك فيما يتعلق بالقطار ، وفكرة الانفعال البالغ التى كانت ملازمة له فى الأدب الروسى ، فنحن لا تدهشنا بكثرة ذكرها فحسب ، ولـكنها تظهر على نحو دائم تقريباً ، فى كل المواقف الحادة من القصة حيث نشعر ، من تواتر نفس أو تغيير فى مجرى الحوادث بدنو الـكارثة .

وفوق ذلك فإن القطار يقوم بدور التطوير فى القصص الروسية ؛ فحوادث التكفير والانتحار بوساطة القطار تعادل فى كثرتها الأسفار بالقطار إلى سيبريا حيث المنفى والمطهر .

وسنورد فيما يلى بعض أمثلة توضح دور الانفعال البالغ التى تقوم بها فكرة القطار فى بعض أمهات القصص الروسية .

فتولستوى يذكر القطار فى المواقف الفاصلة فى كل قصة من قصصه إذا استثنينا قصة « الحرب والسلم » حيث تدور وقائعها فى وقت سابق لعصر القطار . وهو يعتبر القطار ذا أهمية بالغة وفائدة عامة ، ففى قصة « أنا كارنينا » يقول فى أحـد المواقف : إن حديثهم كان يدور حول السياسة والسكك الحديدية . أما فى القصة المسماة «أنشودة كروتزر» فاننا نجد للقطار عملين ، فهو أولا المكان الذى اختاره مسرحا لحوادث القصة ، فهى كما نعلم قصة يرويها

مسافر لرفيق مصادفة جمعه به القطار ، ثم إن برونتشف ، وكأنه معلق فى الزمان والمكان ، يروى لجمهور محدود ومجهول فى أثناء سير القطار ليلا تاريخ حياته وآلامه وجريمته : « كنا فى مستهل الربيع ، بعد يومين وليلة طويلة قضيناها فى القطار » . وتظهر فكرة القطار ثانية لا كمسرح لحوادث القصة يهيئ لها جوا غامضا فحسب بل كعامل ملىء بالانفعالات وذى أثر فنى قوى . فوصفه لسفره الأخير الذى كان فيه فريسة لعاطفة الغيرة حبيس فى ديوانه كما لو كان فى قفص هو مأساة قوية تبلغ حد الإعجاز : « ما إن ركبت القطار حتى تغير كل شئ ، وهذه الساعات الثمانى فى السكة الحديدية كانت فى الحقيقة مؤلمة لى ولن أنساها ما حييت . فهل كان ذلك راجعا إلى الفكرة التى استولت علىّ عندما ركبت القطار بأننى عائد إلى بيتى أو إلى صوت القطار المثير ؟ كل ما أعرفه أننى بمجرد ركوبى القطار استحال علىّ السيطرة على خيالى » . ثم يقول فيما بعد : « كنت كوحش فى قفص أقوم منتفضا وأقترب من الباب تارة وأخرى أمشى بخطى مترددة كما لو كنت آمل أن أزيد بحركاتى من سرعة القطار . كنت حقا خائفا من هذا القطار ، وكنت أقاسى العذاب إلى حد أننى لم أكن لأعرف ماذا أفعل ، لاحت لى فكرة راقتنى : أن ألقى بنفسى تحت عجلات القطار وأنتهى مما أنا فيه » .

لقد زادت آلام برونديشوف أثناء رحلة لاستمرار التعارض التوازنى بين حالة الرجل الذى فقد توازنه وحركة القطار الذى يمضى قدما غير مضطرب ، وهذا التعارض يخلق تواترا نفسيا غير محتمل تقريبا ، ينتقل أثره إلى القارئ إلى حد الشعور بضيق يكاد يبلغ درجة الألم الجثمانى . وهذه القطعة المفرطة فى التأثير يعقبها شئ من الهدوء ، وهو نوع من التوقف الموسيقى قبل أن تقع الكارثة النهائية . ومن الجلى أن السكة الحديدية ليست فى هذا العمل الفنى مجرد أمر ثانوى تافه ، ولكنها فكرة معبرة أو على الأصح قائمة بالدور المؤثر فى الموقف .

وفى رواية « المعتوه » لدستويفسكى تبدأ القصة فى القطار أيضا ، فقد كان الأمير ميشكين أثناء عودته من سويسرا فى ديوان من الدرجة الثالثة حين كان القطار يجتاز مناظر قاتمة وملبدة بالغيوم تنذر بيوم بارد وطب كيوم من أيام شهر نوفمبر . ولقد تقابل بطل المأساة بسائر أشخاصها وتعارفوا فى هذا القطار الذى أقلهم إلى سان بطرسبرج .

ولكن فكرة القطار استخدمت كرمز على أتم صورة فى قصة «أنا كارنينا» وكان ذلك يظهر فى كل نقطة تحول من القصة كأنه الباعث الأساسى. وقد تم اللقاء الأول بين أنّا وفرونسكى، وهو اللقاء الذى جر أسوأ العواقب فى المحطة. واستطرد تولستوى فى وصف المحطة بجوها الخاص: «أخذ القطار يقترب ويداور إفريز الوصول وكأنه يهتز، وظهرت للعين القاطرة التى كانت تدفع أمامها البخار المثقل بالبرد، وبدأ الناس يرون ذراع العجلة الكبرى ينقبض وينبسط فى هدوء وبمقدار، وحيا العامل الميكانيكى الذى تساقط عليه الثلج المحطة وظهرت خلف عربة الفحم عربة الأمتعة التى مست الرصيف مسًّا كبيراً». ولكن سرعان ما قطع نبأ سيىء مرح المسافرين وحركتهم: «ففى أثناء مغادرتهم العربة رأوا جمعاً من الناس يهرولون يتبعهم ناظر المحطة صوب مؤخرة القطار. لقد وقعت حادثة وكان كل الناس يجرون فى هذا الاتجاه؛ فقد دهم القطار أحد المستخدمين، وعندما خرج الناس من المحطة كانوا يتحدثون جميعاً عن الكارثة التى وقعت». وتلخص أنا كارنينا الحادث فى هذه العبارة: «إنه لطالع نحس» على حين كان الناس يتناقشون فى الموت على هذه الصورة مؤلم هو أم سهل هين.

وطالع النحس هذا يسرى فى ثنايا القصة بحكم كما لو كان وتراً يضرب عليه، وتحت تأثير هذا الطالع تتشابك حوادث القصة وملاحمها، وتدعنا الفصول الأولى نحس العاطفة التى ستربط أنا بفرونسكى، ولكنها لم توضح بعد عن شىء. تعود أنا إلى بيتها وتستأنف على حد قولها: «حياتها الطيبة المألوفة» ولكن فرونسكى يلاحقها فى نفس القطار دون أن يشعرها بذلك. ولقد تم أول لقاء حاسم أيضاً فى محطة صغيرة مجهول اسمها: «لقد كانت تنظر حولها وهى واقفة بالقرب من العربة على الإفريز المغطى بالثلج، والمحطة تتلألأ بالأنوار، وبينما هى تستعد لركوب القطار إذ حجب عنها ضوء المصباح رجل يرتدى معطفاً حربياً أخذ يقترب منها، كان هذا الرجل فرونسكى، وبينما كان يصارحها بحبه أخذت الريح، وكأنها قد مهدت كل الصعاب، تزيح الثلج من سقف العربات، وتهز هزاً عنيفاً قطعة من الصاج انتزعتها؛ وهنا أرسلت صفارة القاطرة صرخة أنين حزينة، وكانت أنّا قد سمعت كلمات يتخوفها عقلها ولكن يشتهيها قلبها.»

وتنتهى مأساة أنّا فى محطة أيضاً وهذه النهاية مؤلفة كما لو كانت سمفونية،

وهو حال معظم القصص الروسية الموضوعة عادة وفقا للقوانين الموسيقية. فالعناية فيها موجهة إلى النغمة أكثر منها إلى جمال الأسلوب الذى كثيراً ما يعتريه الإهمال خصوصاً عند دستويفسكى أو إلى الشكل بوجه عام. وتتعادل كثير من القطع الطويلة المشبوبة بالعاطفة بأخرى يسودها الهدوء الفكرى. وهكذا تخلق جميعاً عملا فنيًّا حيًّا يتكشف فيه العنصر المؤثر بالحركة أكثر منه بالحوادث (ولقد استهوى الفلم الروسى منذ نشأته جمهوره بنفس هذه الوسيلة الفنية. فمثلا سناريو «عاصفة فوق آسيا» لاينتشين تكشف لنا قراءته عن نفس هذا الميل، وهو الميل إلى التأثير بواسطة نغمة حركة التأليف فنقرؤه عشرين متراً من الأوراق الدوامة، عشرين متراً من سنابك الخيل التى تنهب الأرض، خمسة عشر متراً من الأوراق الدائرة كالدوامة، خمسة عشر متراً من الخيل الراكضة، عشرة أمتار من الورق، عشرة أمتار من النعال، خمسة أمتار من الورق، خمسة أمتار من السنابك الخ ... الخ).

وكذلك يتعاقب الوصال والقطيعة بين أنّا وفرونسكى بكيفية سريعة، وبعد ذلك يؤخر عاملان الخاتمة النهائية، ويعادلان أثناء عدة صفحات الجو الذى لا يطاق للحزن الذى نعيشه، وهما زيارة أنّا للأولاد ولأخت زوجها، وهاتان الزيارتان كان يجب تبعاً للجو الذى تتمان فيه أن تكونا مسكنتين ومهدئتين للروع، ولكنهما تنتهيان بنغمة شاذة.

وهنا تبلغ آلام أنّا أشدها. لقد استقلت القطار لمقابلة فرونسكى، ولم يكن أمامها من حل آخر: وبعد الإشارة الثالثة صفرت القاطرة، وتحرك القطار ورسم العامل علامة الصليب، ولقد تساءلت أنّا عما يعنيه بذلك وأدارت عينيها لترى من فوق رأس السيدة العربات وجدران المحطة التى كانت تمر أمام النوافذ، وصارت الحركة أسرع ووصلت أشعة الشمس الغادية إلى العربة وأخذ نسيم خفيف يداعب الستائر.

وعند ما استقرت فى الديوان وأحاط نظرها برفقائها فى السفر ورأت فقرهم استولى عليها شعور لاتفهمه من الاشمئزاز. «وتساءلت أين المهرب يا إلهى.» وبعد ذلك لاح لها الحل فجأة «إن قطاراً من قطر البضائع يقترب وهو يهز الرصيف، وتذكرت بغتة الرجل الذى دهمه القطار أول يوم لقيت فيه فرونسكى فى موسكو وأدركت ما بقى عليها أن تعمله، وفى خفة وسرعة هبطت الدرج

الذى يؤدى من المضخة الموجودة فى أقصى الرصيف إلى قضبان السكة الحديدية ، ومشت أمام القطار ونظرت برباطة جأش إلى العجلة الكبرى للقاطرة والسلاسل والأسلاك محاولة أن تقيس بعينها المسافة التى تفصل العجلات الإمامية للعربة الأولى عن عجلات المؤخرة ، ثم قالت لنفسها : « هناك » وهى ترقب الظل الذى تلقيه العربة فوق الرمل المخلوط بالفحم والذى يغطى الفلنكات ، هناك فى الوسط سيلقى عقابه وسأتخلص أنا من الجميع ومن نفسى . لقد أفلتت منها لحظة إلقاء نفسها تحت أول عربة فانتظرت الثانية . لقد استولت عليها عاطفة شبيهة بتلك التى كانت تحسها سابقاً عند ما كانت تقفز فى النهر ثم رسمت علامة الصليب ... لم تفارق عيناها العربة ، وعند ما ظهر الجزء الأوسط بين العجلتين ألقت بحقيبة يدها وجعلت رأسها بين كتفيها ومدت يديها إلى الأمام وقفزت على ركبتيها تحت العربة كأنها مستعدة للنهوض . لقد صدمتها كتلة كبيرة فى رأسها وجذبتها من ظهرها ، وهكذا انتهى كتاب حياة أنـا ، بكل أوجاعها وخدائعها وآلامها ، على حد تعبير تولستوى ، فى نفس المكان الذى كان قد بدأ فيه . وحياة بطلة القصة محاطة بصورتين للمحطة وجوها وقطرها كما لو كانت محاطة بدعامتين متوازيتين . وقد تكررت حادثة المستخدم التى بدأت بها المأساة والتى يرتبط بها ارتباطا وثيقا التعارف بفرونسكى . ويستطيع الإنسان أن يقول على وجه التقريب إن القطار يرمز لمصير أنـا .

وتتناول آخر قصص تولستوى « البعث » الفكرة بإلحاح أشد ، فيقرر نيخلودوف بعد صراع نفسى عنيف ، أن يشاطر كاتارينا ماسلوفا مصيرها ، وهى المحكوم عليها بالنفى إلى سيبريا للتكفير فيها عن جريمة ، تعتبر الهيئة الاجتماعية مسئولة عنها أكثر منها ، فتابع سير قوافل المبعدين وقاسمهم نفس المصير الفظيع ، كما شاطرهم آلامهم ومذلاتهم ، ولقد شاركهم أيضاً فى القطار ، وعلى مقعده الخشبى بالدرجة الثالثة بين البؤساء وطريدى المجتمع والمنبوذين ، ليتم تطهير نفسه الروحى . وهنا يبدأ تكفيره وحياته الحقيقية ، إنه هو القطار الذى يقوده نحو العالم الحقيقى الكبير ، كما يقول هو عند ما كان يتهكم على الأميرة .

لقد استعمل ارزيباشيف فكرة القطار فى معنى مضاد ، ولكن كرمز دائماً . وحينما أراد سانين المفكر الفوضوى ، فى إبائه العظيم ، مفارقة هذا العالم الحقير الشرير ، قفز من القطار الذى يسير بأقصى سرعته . ولقد قام مثل أنـا كاردنينا

بتجربته الأخيرة فى ديوان من السكة الحديدية ، محاطاً بأناس من الدهماء والمغفلين ، وهكذا يصير القطار رمز الحياة نفسها التى يفارقها هو قفزاً من القطار الذى يسحقه .

ويلعب القطار نفس الدور الرمزى فى الأدب الروسى الحديث ، ولكن ليس بالإفصاح الذى يقوم به فى أدب القرن التاسع عشر ، لسبب بسيط هو أنه فى وقت كشفه واستخدامه كانت الأذهان مشغولة بهذه البدعة . وفى قصة بتروف « مليونير فى روسيا البلشفية » وهى وصف لاذع من نوع قصص المفكرات مثل « تل الشقى » أو « جارجانتوا » نجد القطار عنصراً هاما فى سير وقائع القصة . ولقد استغل الفلم الروسى الحديث ، القطار أيضاً فى ثلاث من روائعه وفيلم « توركسيب » يدور كله حول إنشاء خط حديدى عبر سيبريا . وتَقَابُلُ الوصلتين اللتين أنشئتا فى وقت واحد وتلتقيان فى المنتصف ، كناية عن رمز تأثرى بالغ ، والمقصود من مد خط حديدى فى فيلم « الطريق نحو الحرية » إنقاذ شبيبة متدهورة خلقاً وخلقا ، وردها إلى الطريق المستقيم . والعمل المشترك يوقظ فى نفس الوقت التحمس لعمل مثمر و الشعور بالمسئولية عند هذه الشبيبة الفاسدة . ولقد رمز لهذا الغرض العملى والأدبى بالسكة الحديدية مرة أخرى . ولقد انتهى الفلم بنوع من التمجيد المزدوج ؛ فلقد أرقدت على القاطرة التى كللت بالزهور والتى تقوم بأول أسفارها ، جثة البطل الصغير الذى مات ضحية العمل المشترك .

هذا الميل الغامض إلى القطار عند الكتاب الروس لابد ان له أسبابا عميقة ترقى إلى مصدر العمل الفنى نفسه . وإذن فما هى عناصر هذه الأداة العملية النافعة القادرة على إثارة اهتمام الفنان إلى حد أنها لو جردت من هذا الجانب العملى لصارت مجرد رمز فقط ؟ من المؤكد أن كل رحلة وكل انتقال فى أقاليم روسيا النائية له صفة المغامرة التى ليست له فى الغرب . وكذلك عند سكانها الذين تأخذ كل عاطفة وكل تجربة يقاسيها المرء صورة قوية تأثرية ، لا يمكن أن يبقى الشعور الناتج من قضاء أيام فى ديوان مغلق ، حيث ينتقل الإنسان فى فضاء يبدو كأنه لا نهاية له ، لا يمكن أن يبقى بدون أثر . ربما كان الأمر راجعاً إلى بعض الغرائز الكامنة بفعل الزمن عند بعض القبائل الرحل فى العصور

الغابرة التى امتزجت ببعض الشعوب ، وهى الغرائز الراقدة بفعل الزمن ولاتزال باقية إلى الآن ، فأيقظتها هذه التنقلات فى صورة انفعال جديد غريب وعنيف . فكل انتقال وكل حركة بالنسبة للنفس الروسية ، وتبعاً لذلك بالنسبة للفنان الروسى ، هى مغامرة روحية وتجربة تأثرية ، وكل عربة تصير بالضرورة عاملا رمزيا . وفى قصة « الأرواح الميتة » يختم جوجول الأنشودة الحادية عشرة من هذه الملحمة العظيمة بصورة للشعب الروسى الذى يقارنه بعربة (ترويكا) تجرها جياد تسير بمنتهى السرعة : « انتصف الليل وجرت العربة الخفيفة كأنها ريشة وكان تستشيكوف يبتسم وهو يهتز اهتزازاً خفيفاً فوق وسادته الجلدية لأنه كان يحب السير السريع . »

«وأى روسى لايحب السرعة ! أيمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك بينما تتوق روحه دائماً إلى الدوار وإلى الطيران أحيانا . فليأخذ الشيطان كل شىء . أو يمكن ألا يحب الانسان السرعة بينما هو يجد فيها حماسة عجيبة ؟ إن الإنسان ليطير وكل شىء يطير فى نفس الوقت : الأعمدة ، والباعة الذين يلقاهم جالسين على حافة عرباتهم والغابة من الجانبين ، والصفوف القاتمة من أشجار الصنوبر وأصوات الفؤوس ونعيق الغربان . إن الطريق ليطير كله ، ويتلاشى فى الفضاء البعيد ، أيتها العربة ، العربة الطائر من الذى اخترعك إذن ! لايمكن أن تولدى إلا لترى شعباً شديد البأس فوق هذه التربة التى أبدعت فى صورة كاملة .

عندما يحدو الحوذى غناء بأنشودته تثب الخيل بشدة ولا تكون القضبان سوى سطح متصل ، وتزلزل الأرض ويرسل الراجل المذعور صيحة تعجب ، وتجرى العربة ناهبة الفضاء ، ويرى الإنسان على بعد شيئاً مايخترق الفضاء ويشقه . وأنت ياروسيا ألا تزالين تطيرين أبداً كالعربة المتوقدة التى لايمكن الانسان أن يسبقها ؟ أنت تمرين فى ضجيج خلال سحب من التراب تاركة كل شىء وراءك ويقف المتفرج مشدوها أمام المعجزة الإلهية . ألست الصاعقة المنقضة من السماء ؟ ماذا تعنى هذه الرحلة الجنونية التى تبث الذعر فى النفوس ؟ وأى قوة خفية لم يشهدها العالم قط تظهرها هذه الجياد ؟ أيتها الجياد ، الجياد العظيمة ! أى قوة عاصفة تهز نواصيها فتبدو أجسامها المرتعدة كأنها آذان كلها ، وهى عندما تسمع من أعلى الأنشودة المألوفة تسنم صدورها القوية دفعة واحدة وهى

لاتكاد تمس الأرض بسنابكها فتكون خطا مشدوداً يشق الفضاء . وهكذا تطير الروسيا تحت تأثير الوحى الإلهى ، إلى أين تجرين ؟ أجيبى . ولا مجيب . يرن الجرس رنيناً منغوما ، ويهتز الهواء المرتج حتى يصير ريحاً ويتخلف كل ما على الأرض » .

ويقتبس دستويفسكى فى دفاعه المجيد عن ديمترى كارمازوف هـذه القطعة من قصة جوجول التى صار لها عند الروس مكانة تقرب من التوراة . وفوق ذلك فإن الترويكا هى أيضاً فكرة مستحبة إن لم تكن رمزاً فى مؤلفات كبار الروائيين ، وقد استخدمت فى الفصل العظيم المؤثر الذى يلى استشهاد كارمازوف الهرم عندما رحل ميتجا لاقاء جروشنكا فى مهرجان الغجر بمكروج . ولقد صار ميتجا فريسة للقلق والغيرة ، كما كان عليه برود نتشيف فى « أنشودة كروتزر» . وهذه الرحلة التى يقارنها ديمترى نفسه برحلة إلى الجحيم هى من أشد قطع القصة إثارة للعواطف . والحركة التى تسير مسرعة تبلغ الذروة فى مهرجان الغجر حيث يترك ميتجا نفسه تغرق فى حب عظيم نحو جروشنكا . وإن المقارنة بين وصف الصباح الشاحب العالى ووصف ظروف القبض عليه لتعد تتمة للموقف العنيف السابق . وإن حالة الصياح التى كان عليها ميتجا والواقف خلف السائق مستثيرا الجياد والرعب فى نقل قلقه إلى عربته لتتشابه بالحالة التى كان عليها برودنتشيف فى ديوانه ، خصوصاً إذا ذكرنا أن كليهما كان مقرونا بجريمة قتل . لقد تغيرت أداة النقل لكن السرعة هى هى ، سواء كان القطار أو الترويكا الذى يعبر عن خلق ديمترى كارمازوف وطبيعته الحقيقية هذه « الطبيعة العظيمة والكريمة كأمنا روسيا » .

وتظهر أداة النقل إذن على وجه عام كفكرة مستحبة فى الأدب الروسى . ولكن القطار هو الذى يصير على الأخص فكرة رئيسية متكررة .

وإن عدم الاكتراث الملحوظ فى الأدب الغربى أزاء هذا التجديد العملى مما يبرز بوضوح الدور الذى يلعبه هذا التجديد فى المؤلفات الروسية . ولما كانت الرحلة فى السكك الحديدية تمتاز بالشعور المعقد وبالجمال وبالرابطة الفنية التى تنشأ بين المسافر وبين المناظر التى تمر أمامه ، فقد كان من المفروض أن هذه الفكرة لا يمكن أن تفوت الأدب الغربى وأن تستغل فكرة القطار فى كثير من الأحيان . ولكن الواقع أن هذه الفكرة قلما استخدمتها الآداب

الأوربية ، مع أن وسيلة الانتقال هذه أقدم فى أوروبا وأوسع انتشاراً منها فى روسيا ، ونجدها فى النادر وقد فقدت قيمتها العملية وجردت من العامل التأثرى وأصبحت مجرد أداة انتقال لا أكثر .

ونشير على سبيل المثال إلى قصة « الوحش البشرى » لزولا ، وهى القصة التى يستطيع الإنسان تسميتها قصة السكة الحديدية . ولكن عناصرها ووقائعها تدل بالضبط على ما قصده زولا من هذه القصة . وقد اقتبس بول الكسيس فى مؤلفه عن حياة زولا عبارات المؤلف نفسه بخصوص هذا الكتاب : « ولكن الذى يهمنى والذى أريد أن أبرزه فى صورة حية ومحسوسة هو المرور الدائم لخط كبير بين محطتين ضخمتين ووجود محطات متوسطة عليه وطريق للذهاب وآخر للإياب . وأريد أن أثير همة رجال السكك الحديدية جميعاً المستخدمين ونظار المحطات والعمال ورؤساء وسائقى القطارات والميكانيكيين وخفراء الطرق ومستخدمى عربات البريد والتلغراف . وسيلعب التلغراف فى قصتى كما هو فى الواقع (هكذا) دوراً كبيراً ، وسيسمع الإنسان فى كل لحظة رنين جرسه الكهربائى منبئاً ببرقية . وسيعمل الإنسان كل شىء فى قطاراتى : يأكل الانسان وينام ويحب فيها وستتم الولادة فيها ، وأخيراً فإن الانسان سيموت فيها » .

ويستطيع الانسان أن يحدد ، على وجه أدق ، الدور الذى تقوم به السكك الحديدية فى القصة ، ولقد استخدمت فيها على أكمل صورة بحيث لا يستطيع الانسان أن يأخذ على المؤلف أنه أغفل حتى أبسط التفاصيل ، ولكنه استخدمها كمسرح فقط لحوادث قصته ، وهو الجو الذى يشغف به المؤلف ، وقد عالجه على نحو واقعى بحت . وكما أنه فى مؤلفه عن « التاريخ الطبيعى والاجتماعى » يدرس كل نوع من أنواع الكائنات ، ويرتب فى مكانه حياة المناجم والمعدنين ، وتاريخ حياة بيت للإيراد ، ومستأجريه وجو أسواق الخضراوات ، ومسجل المودات أيضاً ، كذلك يفعل بنظام السكة الحديدية . وعلى هذا النحو نجد « الوحش البشرى » وهى قصة السكة الحديدية ، ولكنها فى تركيبها الداخلى ، إن كان لها تركيب ، كما هى فى موضوعها وشخصياتها لا تختلف بتاتاً عن أى مؤلف آخر مماثل لكتابات للمؤلف نفسه . على أن السكة الحديدية تؤلف دوراً مخالفاً لهذا فى مؤلفات إميل فيرهارن ، فهى تظهر فيها كثيراً وتغلب عليها دائماً

مسحة ألمية وتأثرية ، وهى تستخدم كرمز شؤم . ولـكننا يمكن أن نعتبر إميل فيرهارن الذى مات ميتة فاجعة بسبب حادثة فى السكة الحديدية كحالة مرضية ، فلقـد انزلق الشاعر من الدرج وبترت ساقاه فى ظروف مماثلة لتلك التى كثيراً ما صورها فى قصائده . وإن مطابقة هـذا الخيال المقيم للمنظر الحقيقى للحادث المميت ، كان من الوضوح بحيث لايدع مجالا لافتراض محض المصادفة . وأبان بودوان فى دراسته القيمة أن مسلك فيرهارن أزاء القطار كان جزءاً من مركب فكرة ملحة ، وأن هـذا الانتحار اللاشعورى وكذلك الدور الرمزى للسكة الحـديدية إنما كان جزءا من مرضه النفسى .

وفكرة القطار أقل شأنا من ذلك فى الأدب الألمانى . ففى الوقت الذى استحدثت فيه هذه الأداة الجديدة من وسائل الانتقال ، رفض المذهب الخيالى لذلك العصر هذا التجديد دفعة واحدة ، واعتبرت السكة الحديدية إحدى المخترعات الفنية الشاذة ، ولقد لقبها هين ومعاصروه « الحيوان الحديدى » وعابوا عليها قضاءها على سحر الريف الهادىء ، فى عصر وجده الشعراء قد جن بالبخار الحقير العادى ، وصارت صفارة القاطرة هى التى تمزق سكون الليل بدلا من السائق الذى ينفخ فى بوقه ، وصارت البقاع التى تشقها الطرق الضئيلة المتعرجة تقطعها القضبان المستقيمة ، كأنها مرسومة بمساطر كبيرة ، وهكذا تتعارض العاطفة الرومانتيكية تماماً مع السكة الحديدية .

وبتغير الاتجاهات الرومانتيكية وظهور النزعة التعقلية والمادية الجديدة فى النصف الثانى من القرن تغير الشعور إزاء هذا الاختراع الجديد ، الذى بدأ الناس يقدرون الناحية العملية منه ، وأخذت السكة الحديدية مجردة من العامل التأثرى ، وضمت إلى عناصر الحياة والتفكير الأخرى . ولنضرب مثلا قصة كيلرمان « النفق » التى كانت كثيرة الذيوع فى وقت ما ، وموضوعها إنشاء سكة حديدية تربط القارتين ، ولـكن السكة الحديد فيها ليست مقرونة بأى معنى روحى أو رمزى . وكان يمكن أن يكون الأمر متعلقاً بإنشاء جسر أو قطار ، وورش الإنشاء تخلق الوسط الذى تتحرك فيه شخصيات القصة دون أن تتأثر بذلك ألبتة .

لقد استخدم توماس مان القطار أيضاً فى قصته الفلسفية « الجبل السحرى »

فيه بدأ هانس كاستورب صعوده البطىء نحو المصحة حيث كان ينوى المكث سبعة أيام ، وهى التى صارت فيما بعد سبعة أعوام . وهذه الرحلة وصفت بكل البراعة الفائقة التى تميزت بها مؤلفات توماس مان . وهذا الصعود نحو القمم التى تغطيها الثلوج والتغير البطىء الذى يطرأ على النور ، والإضاءة بغروب النهار ، وتغير النبات كل هذه الثروة وهذا التنوع للعالم الجديد تبدو لهانس كاستورب الثابت أمام نافذة ديوانه . ولـكن السكة الحديدية فى نفسها وكذلك الرحلة ليس لها أى مغزى خاص، وهى لا تتميز عن أى عنصر آخر فى نظر الشاعر ، وقد استخدمت فى هــذه القصة العميقة الفنية دون أن يكون لهـا أى صيغة تأثيرية البتة . وهى تظهر فى القصة بنفس الـكيفية التى ظهرت بها السكة الحديدية الصغيرة عند پروست ، وهى أحد العوامل الثانوية للمشاعر والتأملات الخاصة .

ويظهر أن هنالك أسباباً متعددة لهذا الاختلاف الـكبير فى الدور الذى يقوم به القطار فى الأدب الروسى ، الذى يهتم قليلا على عكس الأدب الغربى بالجانب العملى والفنى ، وإنما يوجه اهتمامه إلى قيمته العاطفية وإلى روحه ، إن صح هذا القول . ولقد أشرنا سابقا إلى الأثر الناشىء عن الإحساس الحقيقى الذى يسببه طول الأسفار فى أصقاع روسيا المترامية الأطراف حيث يكون المسافر شبه منقطع عن كل حياة عادية ومحصورا فى موقف سلبى تام تقريبا . ولـكن يبدو لنا أنه لا بد من وجود أسباب أدق وأعمق من هذه للاتخاذ من أى عنصر فكرة هامة إلى هذا الحد . ويلوح لنا أن ثمة عاملا حاسما هو ذلك الذى نحب أن نسميه توافق الحركة : توافق الحركة ما بين السكة الحديدية والحياة الروسية .

فالسفر بالسكة الحديدية يتميز بسرعة تهيىء تجربة خاصة بها وحدها . وهذه السرعة تدركها جميع الحواس ، حيث تضفى عليها ضخامة قل أن توجد . فالأذن تسمع حركة السير وأصوات العربات المملة ، ويرى البصر الأشياء التى تجرى نحوه على أبعاد منتظمة ، ويحس الجسم كله بالحركة الدائبة التى تهزه . وهذه التجارب المختلفة التى يستطيع التحليل وحــده فصلها بعضها عن بعض تنتظم جميعها فى تجربة واحدة تضمها وتكبرها ؛ وذلك هو الشعور الحاد بالانسياب المتواصل على قضبان السكة الحديدية . ويتراءى لنا أن هذه العاطفة

تكتسب تلك القوة لأن جريان الحركة على وتيرة واحدة يمثل التقدم فى هذه الحركة الموسيقية أى فى التأليف الفنى . وضجيج المتوحشين المنتظم جدا والمثير فى نفس الوقت ليس أكثر تقدما من حيث التنظيم الموسيقى من حركة السكة الحديدية . وسيكون أثره إذن فى حدود إحساس طبيعى بحت بعد أن كان روحيا. ونحن نعرف أثر القوة الهائلة التى تتولد من التكرار السريع لنفس اللحن . ولنضرب لذلك مثلا الحركة الثالثة لسنفونية بتهوفن التاسعة ، فإن العنصر التأثيرى فيها يجاوز تقريبا حدود الاحتمال .

وثمة سبب آخر ، وهو نفسى محض ، للجاذبية التى يجدها الفنانون الروس نحو فكرة السكة الحديدية . فإن الرحلة فى السكة الحديدية تمثل حياة تكون فيما وراء الحقيقة تقريبا ؛ فإن الديوان المغلق من جميع النواحى يخلق عالما على حدة يتعارض فيه كيانه الثابت الباقى ، باطراد التغير المستمر فى العالم الخارجى . وحتى القضبان الحديدية نفسها وهى التى تعبِّد صعوبات الطريق بإزالتها آخر اتصال بالتربة ، تساعد على هذا الانفصال عن كل ما هو من التربة الحية غير المستوية . وهكذا يتلاشى هذا الإحساس الجميل بالانسياب على طريق متعرج والشعور بسطح الأرض بمرتفعاتها ومنخفضاتها ، وهى العاطفة التى يحسها الإنسان إحساسا عميقا فوق دراجة وبنوع خاص على قباقيب الانزلاق — هذا الاتحاد بالتربة وهو الإحساس الذى يصفه پروست فى صورة قوية يتلاشى تماما عند ما يسافر الإنسان فى السكة الحديدية .

فهذا الانفصال من عالم الحقيقة الذى هو من الصفات الأساسية للسفر فى السكة الحديدية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة السلبية المطلقة التى تكون جزءاً من هذه التجربة . كل شىء يتركز فى المسافر نفسه الذى يبقى فى حالة سكون تامة . ولذلك كان تجاهل الحقيقة الذى يجب أن يؤدى فى نهاية الأمر إلى الحالة السلبية ، إحدى الصفات الجوهرية لشخصيات القصص الروسية فى هذا العصر ، ورفض الحياة ومطالبها هو إحدى أفكارها المحببة إلى النفوس . وهكذا نجد القصة الروسية فى القرن التاسع عشر قصة نفور بالغ من الحياة . ونرى جونتشاروف فى قصة « اوبلوموف » التى تعد من أروع قصص العصر يتخذ من الشخصية الرئيسية إنساناً فى حالة سلبية تامة ، يعيش حياته كلها حالما فوق أريكة فى حين يغطيه التراب ، وهو يموت ، كما يقول المؤلف ، بمرض روسى

يسمونه « الأبلوفيه » وهو فقدان التأثر وإرادة الكفاح وبلوغ غاية معينة فى الحياة ، وفقدان النشاط والحيوية اللذين هما صفات الرجل الغربى .

وبما أن هاتين الخاصتين الجوهريتين للأدب الروسى فى هذا العصر : سلبية الفرد وسط طبيعة غنية متنوعة مائجة من جهة ، وانفصاله وعزلته عن هذا العالم من الجهة الأخرى ، تبدوان لنا أيضاً كأنهما العناصر الأساسية الثابتة لتجربة السفر فى السكة الحديدية ؛ فإنه يضاف إليهما عامل آخر يكاد يكون فنيًّا ألا وهو نظام حركة القطار نفسه .

ولكننا نعتقد أننا نكاد نلمح سبباً آخر فوق ماتقدم ، وهو الذى يساعد على جعل القطار رمزاً أكثر منه تعبيراً عن التأثير العميق ، وهو سبب يبدو لأول وهلة بعيداً . فعند ما أراد فاوست – وهو رمز الرجل الغربى ، إن لم يكن الألمانى – وصف عمل أراده مثمراً على وجه خاص ، كان إخصاب المستنقع عنواناً لهذا العمل . فإخصاب التربة هو الوصف المرادف للعمل الصحيح المثمر ، وصار هذا العمل حلم جميع الذين يريدون الفرار من عقم الحياة . ولكن إذا كان إخصاب الأرض يتخذ لدى الرجل الغربى المزود بآلات مكانة الرمز المقدس ، فإنه فى نظر الرجل الروسى لا يعنى إلا نشاطا يوميًّا إن لم يكن عملا مملا . وعنده أن الآلة التى تحل مكان السر الغامض هى التى تصير رمزاً ، رمزاً للتقدم والإصلاح ولمثل أعلى منشود ومرغوب فيه للغاية ، ويصير لها قيمة شبه صوفية . ولهذا السبب يمكن ان تصير الشبكة الحديدية « نجمة العذاب » التى تتحدث عنها رؤيا يوحنا عند دوستويفسكى . ولهذا السبب أيضاً اختلط الحديث عن « السياسة والسكة الحديدية » عند تولستوى .

ولكن إذا أمكن لهذا السبب البسيط أن تصبح السكة الحديدية رمزاً فى الأدب الروسى ، فإن العناصر النفسية والبالغة فى التعقيد التى حللناها آنفاً هى التى كسبتها هذه المسحة التأثيرية ، وكذلك أيضاً الحالة السلبية التى يوجد عليها الفرد ، ونغمة القطار المنتظمة الظاهرة .

وهذا الميل الخاص إلى القيم الموسيقية — إلى حد سير المؤلفات الأدبية على وفق القوانين الموسيقية — يغلب على المزاج الروسى بوجه عام . ولقد أحس تولستوى خطر ذلك إحساساً عميقاً فى الاتهام الذى أورده على لسان برودنتيشيف . فالموسيقى خطر وهى من عمل الشيطان ، لأنها تخضع الإنسان وتسلبه إرادته

وكرامته . وفى رأى برودنتيشيف أن النزعة الحسية فى موسيقى بتهوفن هى مصدر مأساته وجريعته .

لقد وجد الخلق الروسى كما وجد المزاج الروسى إذن فى القطار — سواء فى الميدان النفسى أم فى المجال الفنى كالنغمة الموسيقية مثلا — عناصر مكنت من السمو ، بوسيلة بسيطة من وسائل الانتقال ، فى مجال رمزى ، إلى مرتبة الحافز التأثيرى العظيم .

هيلد ذالوشر

بعض القضايا الصحفية المصرية

محاكمة المؤيد فى قضية التلغراف

١

عرفت مصر الصحافة الشعبية فى وقت متأخر ، فإذا غضضنا النظر عن « الوقائع المصرية » التى كانت أول صحيفة مصرية والتى لبثت منذ ظهورها فى سنة ١٨٢٨ تتشح بالصبغة الرسمية فإننا لا نجد قبل بداية عهد إسماعيل صحيفة شعبية مصرية .

وكان ظهور الصحافة الشعبية المصرية فى بداية عهد إسماعيل ثمرة يانعة من ثمار النهضة الأدبية التى بدأت فى عهد محمد على وأمدت عهد إسماعيل بجمهرة كبيرة من الأدباء والكتاب الذين درجوا فى مهادها . ولم يفت إسماعيل أن يعنى بالحركة الأدبية فيما عنى به من وجوه التقدم الاجتماعى . وكان لا بد لهذه التطورات الاجتماعية الجديدة التى شهدتها مصر يومئذ من أقلام تصورها وتعبر عنها ، فكان ذلك إيذاناً بمولد الصحافة الشعبية .

بدأت الصحافة الشعبية فى عهد إسماعيل بصدور مجلة « اليعسوب » الطبية التى أنشأها فى سنة ١٨٦٥ الدكتور محمد على باشا البقلى وإبراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد « الوقائع المصرية » ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفى سنة ١٨٦٧ أنشأ الشاعر الأديب عبد الله أبو السعود أفندى صحيفة « وادى النيل » سياسية أدبية ، وكان عبد الله أبو السعود من أنجب تلاميذ رفاعة بك الطهطاوى وأعلاهم كعباً فى التحرير والترجمة ، وكانت « وادى النيل » أول جريدة سياسية مصرية خاصة شهدت الضياء ، ولما عطلت فى سنة ١٨٧٢ أنشأ مكانها محمد بك أنسى ولد صاحبها جريدة « روضة الأخبار » ولبثت تصدر مدى حين .

وفى سنة ١٨٦٩ صدرت مجلة « نزهة الأفكار » الأسبوعية التى أنشأها

إبراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان فى عصر إسماعيل ، غير أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد أن ظهر منها عددان فقط .

ثم ظهرت مجلة « روضة المدارس » الشهيرة فى سنة ١٨٧٠ ، أنشاها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإنفاق عليها ، ويشترك فى تحريرها معظم أعلام البيان فى هذا العصر ، واستمرت على الصدور عدة أعوام .

وأنشأ جماعة من الأدباء اللبنانيين الذين نزحوا إلى مصر يومئذ فراراً من اضطهاد الحكم العثمانى عدة صحف بمصر والإسكندرية ، منها جريدة «الكوكب الشرقى » التى أنشأها سليم الحموى سنة ١٨٧٣ ، ومنها جريدة « الأهرام » التى أنشأها فى سنة ١٨٧٦ الأخوان سليم وبشاره تقلا والتى قدر لها أن تلعب خلال حياتها الطويلة أعظم دور فى ميدان النشاط الصحفى بمصر والبلاد العربية .

وتوالى بعد عصر إسماعيل صدور الصحف الخاصة ، فصدرت جريدة « المقطم » فى أوائل سنة ١٨٨٩ ، ثم تلتها جريدة «المؤيد» فى أواخر هذا العام نفسه لترفع علم الجهاد الوطنى ضد المحتلين وأنصارهم ، وظهرت جريدة «اللواء» فى سنة ١٩٠٠ فكان ظهورها إيذاناً ببدء عهد الصحافة المصرية الوطنية الكبرى .

وكما أن مصر لم تعرف الصحافة الشعبية إلا فى عصر متأخر ، فكذلك لم تعرف الجرائم والمحاكمات الصحفية إلا فى عصر متأخر أيضاً .

عرفت مصر هذه الجرائم والمحاكمات الصحفية منذ أواخر القرن الماضى ، وهى الفترة التى شهدت مولد الصحافة المصرية الوطنية الحقيقية ، وبدأ فيها جهاد الأقلام المصرية فى سبيل القضية الوطنية .

ويجب أن نذكر ان أول قانون مصرى للمطبوعات قد صدر فى سنة ١٨٨١ ، كذلك لم يصدر قانون العقوبات المصرى الجديد إلا حينما نفذ مشروع الإصلاح القضائى فى سنة ١٨٨٣ .

ولم تعرف الصحافة فى مصر قبل ذلك محاكمات صحفية بالمعنى الصحيح . وكانت السلطات تلجأ فى ردع الصحف إلى الوسائل الإدارية . وكانت أول

خطوة اتخذت لمحاكمة صحيفة تصدر فى مصر فى أوائل سنة ١٨٧٩ حينما غضب الخديو إسماعيل على جريدة « الأهرام » الناشئة لتعرضها لبعض تصرفاته، فأمر بتعطيلها والقبض على صاحبها وتقديمه للمحاكمة، ولكن تدخل الحكومة الفرنسية التى كان صاحب « الأهرام » يومئذ من رعاياها انتهى بالإفراج عنه وعن صحيفته، والعدول عن محاكمته. وفى ٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ قرر مجلس النظار تعطيل «الأهرام» شهراً لنشرها مقالات سياسية من شأنها أن تسىء إلى سمعة الحكومة وسمعة الخديو، ولأنها نشرت فى عددها الصادر فى ١١ أغسطس مقالا لمراسل من لندن يفيض طعناً فى الخديو وحكومته، وقامت السلطات بالفعل بتنفيذ قرارات التعطيل وإغلاق مطبعة الجريدة بالإسكندرية بالرغم من مقاومة صاحب «الأهرام». ولكن قنصل فرنسا تدخل فى الأمر تدخلا عنيفاً وطلب بلهجة الأمر إلغاء هذه الإجراءات التى اتخذت ضد أحد رعاياه، وعبثاً حاولت الحكومة المصرية الدفاع عن تصرفها. وبادر صاحب «الأهرام» برفع قضية تعويض على الحكومة المصرية أمام القضاء المختلط، واضطر نوبار باشا ناظر النظار ووزير الخارجية أن ينزل فى النهاية عند حكم الظروف وأن يسحب قرار الحكومة المصرية مع ما فى ذلك من صدع لهيبتها وكرامتها [1].

بيد أن هذه لم تكن محاكمات صحفية بالمعنى الحقيقى. ومضت فترة أخرى قبل أن تقع المحاكمات الصحفية بالتطبيق لقانون العقوبات الجديد.

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الشأن أن عبء المحاكمات الصحفية كان يقع بالأخص على كاهل الصحف المصرية الصميمة. وأما صحف الأدباء النازحين فلم يكن يصيبها رشاش القانون قط ولم تتعرض حتى يومنا لأية محاكمة قانونية. والسبب فى ذلك ظاهر، وهو أن التشريعات الجنائية والاستثنائية كانت فوق أغراضها العامة ترمى إلى كبح جماح الصحافة الوطنية قبل كل شىء؛ لأنها هى التى تحمل علم الجهاد القومى. وأما الصحف الأخرى فقد كانت وما تزال بعيدة عن هذه الاعتبارات القومية الخالصة، وكانت تغلب عليها منذ البداية بواعث المصلحة الخاصة، ولم يكن من صالحها قط أن تنزل إلى معترك الجهاد القومى.

---

(١) اعتمدنا فى هذه الوقائع على ملف جريدة « الأهرام » الرسمى المودع بمحفوظات وزارة الداخلية.

ولم تعرف الصحافة الأجنبية فى الوقت نفسه المحاكمات الصحفية ؛ لأنها كانت لتمتعها بالامتيازات الأجنبية بمنجاة من نصوص القوانين المصرية ، وكانت تحال إلى قضائها القنصلى المتسامح فيما يقع لها من ذلك .

ونلاحظ أيضاً أن فورة المحاكمات الصحفية تشتد بنوع خاص حينما تشتد مراحل الجهاد الوطنى . فمثلا نرى هذه المحاكمات تكثر عقب حادث دنشواى حينما اشتدت حملات الصحف الوطنية على الاحتلال ، وكذلك نراها تكثر أيام الحركة الوطنية الأخيرة ، ومنذ صدور الدستور فى سنة ١٩٢٣ ، أعنى مذ أغلق القانون باب التعطيل الإدارى ، ونراها تكثر وقت المعارك الحزبية الشديدة .

كانت قضية التلغراف الشهيرة أول قضية صحفية مصرية رنانة وقعت حوادثها فى سنة ١٨٩٦ وكان بطلها الصحفى الكبير الشيخ على يوسف منشئ جريدة «المؤيد» . وقد صدرت « المؤيد » ، كما قدمنا ، فى ديسمبر سنة ١٨٨٩ وكان ظهورها حادثاً صحفيًّا ذا شأن ، وكان محققاً لأمنية تجيش بها نفوس الوطنيين منذ صدور جريدة «المقطم» قبل ذلك بعدة أشهر . وكما أن المقطم كان يومئذ داعية الاحتلال وحامل لوائه ، فكذلك كان « المؤيد » يحمل لواء المعارضة لسياسة الاحتلال ، وظهر صاحبه ومحرره الشيخ على يوسف منذ البداية بمقالاته القوية الرنانة . وكان الشيخ من تلاميذ الأزهر النوابغ ، نظم الشعر وعالج الكتابة منذ فتوته ، وأنشأ مجلة « الآداب » مع زميله الشيخ أحمد ماضى فى سنة ١٨٨٧ ثم عطلها لينقطع إلى تحرير « المؤيد » . ولم تلبث المؤيد أن نمت وتقدمت بسرعة ، والتف حولها كثير من الكبراء والوطنيين يشدون أزرها فى كفاحها ضد السياسة الانجليزية والصحف الاحتلالية . وكان للمعارك القلميــة التى نشبت يومئذ بين صحف الفريقين أعظم وقع فى البلاد . وعرفت « المؤيد » فوق ذلك بنزعتها الإسلامية القوية وذاع اسمها فى العالم الاسلامى .

وكان طبيعيًّا أن تنزعج سلطات الاحتلال لهذا الصوت المدوى الذى يعلو على صوت أنصارها والذى يبث حولها عواطف البغضاء والسخط ، وأن تحاول القضاء عليه بمختلف الوسائل ، وكانت تتربص الفرص للإيقاع بجريدة «المؤيد» وصاحبها الصحفى الجرىء . وسرعان ما ألفت فرصتهــا سانحة فى تدبير قضية التلغراف .

وتفصيل هذه القضية الشهيرة هو أن جريدة « المؤيد » نشرت فى عددها الصادر فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٦ تحت عنوان «أحوال الجيش المصرى فى الحدود» صورة برقية سرية بعث بها اللورد كتشنر سرداو الجيش المصرى إلى ناظر الحربية فى ٢٦ يوليه عن أحوال الحملة المصرية فى دنقلة وأحوال الجيش الصحية.

وهذا ما نشرته « المؤيد » :

« تفيد التلغرافات الأخيرة الواردة من كوشة أمس على نظارة الحربية التفصيلات الآتية عن حالة الجيش المصرى فى الحدود

« وقد أظهر سعادة السردار أسفه أنه لم يتمكن منذ أيام من إرسال التفصيلات لأنه كان شديد القلق من الكوليرا التى انتشرت هناك فى كل منطقة ومركز من مراكز خطوط المواصلات وفى المعسكرات . . . » ثم قال : « وقد حصل فى أسوان بين عساكر الحضرة الخديوية الفخيمة ٢٩ إصابة توفى منها ١٥ شخصاً أما فى كروسكو فقد حصلت ٢٢ إصابة توفى منها ١٣ وفى حلفا ١٥٦ إصابة توفى منها ٩٨ وست وفيات فى الجيش البريطانى .

« ولم تحصل إصابات فى الجيش بسواردة . وأمل سعادة السردار أن الاحتياطات التى اتخذت تدفع عنه غائلة الوباء، ولكن هذا الوباء شديد الوطأة جداً بين اللاجئين إلى سواردة من الأهالى والآتين إليها من الجنوب بقصد الاحتماء . وقد توفى منهم عدد كبير ، وقد تأخر وصول سكة الحديد إلى هنا بالنظر إلى سوء حالة الوابورات القديمة، وهذا استوجب تأخير وصول الأدوات اللازمة الكافية لاستمرار العمل فيها بدون انقطاع ، وإلا فكان يجب أن يصل القطار إلى هنا من زمن طويل . ويوجد الآن وابوران جديدان فى الطريق المأمول أنهما يساعداننا ، والوابورات المستعملة اشتغلت أكثر من إحدى عشرة سنة . وأتأسف أن اقول لسعادتكم إن فيضان النيل ليس بكاف لتسيير السفن البخارية فى الشلالات ، وأن هنتر باشا الآن فى حلفا مستعد للشروع فى هذه الأعمال بمجرد ما يوجد ماء كاف فى الباب الأكبر من الشلال الثانى .

« ويظهر أن الدراويش عولوا على المدافعة عن دنقلة . ولكن الصعوبات التى كانت توجد للآن أمامنا قد زالت ، ولذلك سنزحف لاحتلال الإقليم » .

أرسل السردار هذه البرقية فى ٢٦ يوليه باللغة الفرنسية إلى ناظر الحربية محتوية على ٥٦٦ كلمة، فتلقاها مكتب تلغراف الأزبكية وأرسلت مباشرة إلى نظارة

الحربية وحملها إلى الناظر فى منزله جاويش انكليزى، فاطلع عليها واحتفظ بسريتها.

ولكن ظهرت « المؤيد » بعد ذلك بيومين وفيها ترجمة البرقية كلها حسبما تقدم، فانزعجت لذلك نظارة الحربية. وكانت جريدة « المؤيد » توالى منذ حين نشر كثير من الأنباء السرية عن سير الحملة المصرية وأعمالها مما يرد إلى نظارة الحربية فى برقيات سرية متعاقبة دون أن تهتدى السلطات إلى المصدر الذى يمد «المؤيد» بهذه الأنباء، واضطهد من أجل ذلك عدة من موظفى إدارة التلغراف وشردوا فى مختلف الأقاليم.

فلما نشرت « المؤيد » هذه البرقية السرية الخطيرة ضاقت السلطات ذرعا بهذا التحدى، ونشطت إلى تحرى الحقيقة، فبثت العيون والأرصاد فى مكتب التلغراف، وسرعان ما اتجهت الشبهة إلى موظف ملحق به يدعى توفيق أفندى كيرلس ضبط وهو ينقل محتويات برقية كانت مرسلة إلى جريدة «الديلى تلغراف» بلندن من مراسلها فى القاهرة فقبض عليه، وظهر فى التحقيق أنه كان وقت ورود برقية السردار يقوم بأعمال النوباتجية بالمكتب، وإذن فقد كان من الراجح أنه هو الذى نقل البرقية السرية وسلمها إلى صاحب « المؤيد ».

وفى الوقت نفسه تقدم الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة « المقطم » إلى السلطات يشكو بأن مراسل جريدته فى ببا أرسل إليه برقية رآها منشورة بنصها فى جريدة « المؤيد » فى يوم ٢٨ يوليه قبل أن تظهر فى « المقطم » وكانت خاصة بنبأ قبض السلطات على أحد كبار الأشقياء الفارين. فكان ذلك دليلا جديداً يعزز الشبهة ضد الموظف المقبوض عليه. ولكن توفيق كيرلس أنكر ما نسب إليه، وأنكر بنوع خاص أنه هو الذى أمد « المؤيد » بنص البرقية السرية، وأنه لا يعرف صاحب « المؤيد » إلا معرفة سطحية جدًّا.

وكانت سلطات الاحتلال تحاول بكل وسيلة أن تنكل « بالمؤيد » وصاحبه الشيخ على يوسف خصوصاً وأن « المؤيد » كانت منذ البداية تعارض بشدة فى تسيير الحملة المصرية إلى السودان وتنتقد الظروف التى نظمت فيها الحملة وما جرته على موارد البلاد من إرهاق لا يحتمل، وكانت فى اليوم السابق لنشر البرقية قد نشرت مقالا شديداً تكررفيه مطاعنها وتبين فيه ما لحق البلاد من عنت وما أصاب جيشها من الشدائد والمهانة من جراء هذه الحملة الخطيرة التى

أرسلت على عجل والتى أريد بها تحقيق مشاريع الانجليز قبـل كل شىء .

ولـكن التحقيق الذى أجرته النيابة العمومية وقام به وكيل النيابة الشاب محمد فريد (الزعيم الوطنى محمد بك فريد فيما بعد) لم يسفر عن دليل يمكن إقامته ضد صاحب «المؤيد» . ولهذا قرر الأفوكاتو العمومى أنلا وجه لإقامة الدعوى ضده.ولـكن هذا القرار لم يرق الإنجليز، وأوعز المستشار القضائى الإنجليزى جونسون باشا لناظر الحقانية بوجوب إعادة التحقيق مع الشيخ على يوسف وتقديمه للمحاكمة ، فنزلت النيابة العمومية عند هذه الرغبة ، وكان هذا التصرف مثار الإنـكار والنقد ، ونشرت الصحف الوطنية مثل «الوطن» و «الرائد المصرى» وغيرها مقالات شديدة اللهجة تلوم فيها النيابة العمومية على نقض قرارها الأول ، وشاركتها بعض الصحف الأجنبية المحلية مثل «الفار دالـكسندرى» فى هذا اللوم ، وكانت جريدة « المؤيد » تنقل هذه المقالات إلى قرائها تباعا .

على أن هذه الحملة لم تغن شيئاً ، فحقق مع صاحب « المؤيد » كما حقق مع توفيق أفندى كيرلس ، ورفعت الدعوى العمومية على الرجلين ووجهت إليهما تهمتان : الأولى تهمة إفشاء الأسرار البريدية والتلغرافية المنصوص عليها فى المادة ٦٨ عقوبات (١٥٤ جديدة) والثانية تهمة إفشاء تلغراف جريدة « المقطم » . واعتبرت توفيق كيرلس فاعلا أصليا فى التهمتين والشيخ على يوسف شريكا له .

ونظرت القضية أمام محـكمة جنح عابدين فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦ وعقدت الجلسة برياسة القاضى محمود خيرت بك وجلس فى كرسى النيابة على بك توفيق ممثلا للاتهام، وتولى الدفاع عن الشيخ على يوسف الأستاذ أحمد بك الحسينى وعن توفيق أفندى كيرلس الأستاذ إبراهيم بك الهلباوى ، وكان كلاهما من أعلام المحاماة فى ذلك العصر ، واستمر نظر القضية ثلاثة أيام متوالية ، وكان من شهودها ناظر الحربية ومستر ويلى مدير التلغراف وعدد من الصحفيين منهم الدكتور فارس نمر وتادرس أفندى شنوده صاحب جريدة « مصر » ، وكان الجمهور يتتبع حوادث القضية باهتمام بالغ ويحتشد فى ساحة المحكمة وحولها أعظم احتشاد . وأبدى الدفاع مقدرة عظيمة فى تفنيد الأدلة التى تقدم بها ممثل النيابة وعارض فى التطبيق القانونى وطالب ببراءة المتهمين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر أصدرت المحـكمة حكمها فى القضية وهو يقضى بحبس توفيق أفندى كيرلس ثلاثة أشهر عن تهمة إفشاء تلغراف السردار

وتبرئته من تهمة إفشاء تلغراف «المقطم» وتبرئة الشيخ على يوسف من التهمتين، فاستقبل الجمهور الحكم بالهتاف المدوى للقضاء العادل، وكانت له رنة فرح عظيم فى سائر الدوائر الوطنية، واعتبر نصراً عظيما للصحافة الوطنية وحرية الصحافة، واستمرت «المؤيد» مدى أيام تخصص صفحات كاملة منها لنشر المرافعات فى هذه القضية الرنانة.

كان لصدور حكم البراءة بالنسبة لصاحب «المؤيد» وهو المقصود بالذات وقع سيء فى الدوائر الرسمية، وكان من آثاره الأولى أن صدر الأمر بنقل القاضى الذى أصدره إلى محكمة مصر، وكذلك صدر الأمر بنقل محمد بك فريد وكيل النيابة الذى قام بتحقيق القضية إلى إحدى نيابات الوجه القبلى، وكان فى تصرفه منذ البداية ما ينم عن وطنيته وعطفه على المتهمين. ولكن فريد بك رفض تنفيذ الأمر إذ وجد فيه مساساً باستقلال القضاء وآثر الاستقالة من منصبه واشتغل بالمحاماة، ولم يلبث أن انضم إلى صديقه الشاب النابه مصطفى كامل فى العمل على تنظيم الحركة الوطنية وقيادتها.

وأوعزت الحكومة إلى النيابة باستئناف حكم محكمة عابدين مؤملة أن يستدرك القضاء الأعلى ما فات القضاء الجزئى. ونظر الاستئناف على عجل أمام محكمة الجنح المستأنفة فى يوم الثلاثاء ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٦ وتولى رياسة الجلسة على بك ذو الفقار، وتولى الدفاع عن المتهمين نفس محامييهما أمام محكمة عابدين، وكان ظاهراً من التلخيص الذى تلاه القاضى على هيئة المحكمة أن الجو ممهد للدفاع مشبع بالعطف على المتهمين. ولم تطل المرافعات فى القضية واختلت المحكمة للمداولة مدى ساعتين كاملتين ثم أصدرت حكمها على الأثر بتأييد حكم البراءة بالنسبة لصاحب «المؤيد» وإلغاء الحكم المستأنف بالنسبة لتوفيق افندى كيرلس وبراءته من التهمتين المنسوبتين إليه. فاستقبل الحكم بأعظم مظاهر الحماسة وهتف الجمهور الحاشد هتافا عاليا بحياة القضاء العادل، وأبى إلا أن يحمل الشيخ على الأعناق. ووصفت «المؤيد» هذه المظاهرة الوطنية فى قولها: «كان الألوف من الناس فى قاعات المحكمة فلما نطق الرئيس بالحكم هتف الناس لتحى العدالة، ليحى الاستقلال، ليحى المؤيد، وحملوا الشيخ من قفص الاتهام حتى سلم المحكمة.»

وعلقت « المؤيد » فى نفس اليوم على صدور هذا الحكم بما يأتى : « ونحن نقول عن حكم الاستئناف فى قضيتنا هذه كما يحق لكل المصريين الذين سرهم هذا الحكم اليوم إن هذا الحكم العادل جاء برهانا قاطعا على أن القضاء الأهلى فى مصر لا يزال باقيا على ما كان عليه من الاستقلال وعلى أنه إنما يصدر أحكاما لا أنه يؤدى خدما . »

وهكذا خاب أمل الإنجليز وأمل الحكومة الاحتلالية فى تسخير القضاء لرغباتها وفى الايقاع بصاحب « المؤيد » الذى أزعجت صيحاته المدوية سلطات الاحتلال ، وفى إرهاب الصحافة الوطنية التى أخذت تعمل لإيقاظ الرأى العام ، وإحباط الدعاية المنظمة التى كانت تقوم بها الصحافة الاحتلالية لتثبيت قدم الاحتلال وتوطيد أركانه .

بل كان للقضية بالعكس أثرها فى تقوية الحركة الوطنية التى كانت يومئذ فى بدايتها وفى ذيوع جريدة « المؤيد » وارتفاع مكانتها [1] .

محمد عبد الله عنان

---

(١) كانت اعداد جريدة « المؤيد » أخصب مصادرنا فى عرض حوادث هذه القضية وقد رجعنا أيضاً إلى مذكرات المرحوم شفيق باشا ج ٢ (القسم الثانى) ص ٢٣٠ — ٢٣١ وإلى ترجمة محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى بك ص ٢٥ — ٢٧ .

الضياء المظلم

[كانت ليالى القاهرة الدامسة فى سنى الحرب ، تفتح
له أفاقاً موشية من الأنس والبهجة ! حتى إذا رجع إليها
الضياء هبط إلى عالم الأناسى الموحش الكئيب !]

عاد الضياء فعدتُ منطوياً على بَرْح الأسى
ذهب الظلامُ به ، وكا نَ لىَ الرفيقَ المؤنسا
أرعى « سُهيلا » فيه ورْ داً ، و « الثريّا » نرجسا
أترى فؤادىَ صار خُفّا شاً يلذّ الحندسا [1]
كمْ ودّ لو طمستْ غوا شيهِ النهارَ المشمسا
تتنفسُ الأشجانُ فيه إذا الصباحُ تنفّسا
يا من أضاء [2] لنا الدجى هلّا أضأتَ الأنفُسا

لا تأسَيَنّ مرزّأً من كلّ شيء أوكسا
كانتْ « عسى » بعضَ العزا ءِ له ، فخانته « عسى »
فقدَ الحياةَ وطيبَها مَنْ باتَ مفقودَ الأُسى [3]

على الجندى

---

(١) الليل الشديد الظلمة .
(٢) المراد « شركة النور » .
(٣) بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة : ما يتعزى به الحزين ، وتطلق على الصبر .

جولة فى « ما بعد الحرب »

السفر – لوندرة – باريس

[سافر ففى الأسفار خمس فوائد]
من بيت شعر ضعيف

مطار ألماظة — أو ألماسة ، وقيل أدماسة ، كما يريد ولا شك أصحاب المذياع والشاطر والمشطور بينهما لا أدرى ماذا — يتوهج تحت لمسة الشمس المائلة إلى الغروب ، ذات يوم من أيام يوليه . وكأنى عائد إلى الإسكندرية بالطيارة كما اعتدت منذ أنشئت الشركة المصرية . ولكنى فى هذه المرة أحمل جواز سفر وأقف فى دورى لتفحص أوراقى وحقائبى . فرحلتى تنتهى إلى أبعد من الإسكندرية ومن حدود مصر وغيرها . اليوم أسافر إلى لوندرة ، إلى عالم « ما بعد الحرب » لأول مرة .

الطائرة « داكوتا » ذات العشرين مقعداً أو نحو ذلك ، واتجاهها إلى الغرب فوق الصحراء ، وهذا أيضاً ليس جديداً علىّ ؛ فقد ركبت سنة ١٩٣٢ طائرة « ڤيكرز ڤيكنج » الحربية التى تحمل عشرين جندياً ، وطرت بها فى اتجاه الغرب حتى المُغَـرّة ، وفوق منخفض القطارة إلى واحة سيوة .

والطيران بعيد المدى عبر حدود الدول عرفته بعض الشىء حين سافرت من أثينا الى بوخارست ، ومن روما إلى أثينا ، ومن القاهرة إلى بيروت .

وأنا بعيد العهد بالطيران . أول ما حلقت فى الجو كان عام عبور لندبرج للمحيط الأطلانطى — لندبرج خمر أميريكا الذى استحال خلاً بجرثومة النازية — سنة ١٩٢٧ إذا كنت أذكر جيداً . ركبت حينذاك طائرة ذات مقعدين مكشوفين ، فى حفلة « التعميد الجوى » كما تسمى . طائرة كانت إلى طائرات اليوم عربة كارو هوائية ، ألبست قبل الصعود إليها « لاسة » من

الجلد ، وحلقت عشرين دقيقة أشاهد المدينة الفرنسية التى كنت أسكنها ذاك العام .

ثم سافرت بعـد ذلك من باريس إلى لوندرة ، فى أول زيارة لانجلترا بالطائرة .

ومع هـذا لم يخل سفرى إلى إنجلترا فى صيف ١٩٤٦ من الجدّة ، لطول المسافة ، ومدة الطيران ، والطيران فى جنح الظلام ؛ وأهم من ذلك ، لأنه أول سفر لى بعد الحرب إلى بلاد « ما بعد الحرب » إلى أوربا ، مثلنا الأعلى فى كل ما نريده لبلادنا من خير ورفعـة ، أوربا التى دافعتُ وأدافع عن حضارتها رغم تلك الحركات الرجعية التى تريدنا أن ننظر إلى الشمس فى مطالعها ، والموكب يسير غربا ، أن نولى شطر القرون الوسطى ، والتاريخ ينهب حقبته العشرين . أول سفر إلى أوربا المريضة التى انتهى بها المرض إلى نوبة جنون قاتل دام ستة أعوام .

القاهرة — العضم — مالطة — مارسيليا — لوندرة . بدأت الرحلة من ألماظة الساعة السادسة مساء ، وختمتها بمطار هيث رو الساعة الأولى بعـد ظهر اليوم التالى : عشرين ساعة بحساب فرق الوقت ، جلها طيران ، إلا ساعة انتظار فى مطارات العضم ومالطة ومارسيليا . كل ما أذكره من تلك الرحلة : هزيم الآلات المستدير ، ومنظر الصحراء يتقلب من الذهبى إلى البنفسجى والرومادى فالأسود الحالك . والمصباحان الأخضر والأحمر إلى طرفى جناح الطائرة ، وشرارات تنبعث من جسم الطائرة الضخمة ، وأضواء تنتشر فى المطارات وسط الليل البهيم ، منها الثابت ومنها المتحرك كفنارات الموانى . وأكلات إنجليزية ازدردتها فى شبه غفوة النائم ، يقدمها جنود سلاح الطيران البريطانى فى جنح الليل أو قرب مطلع الفجر ، وصخور مالطة ، وزرقة البحر الأبيض ، وجزائره الساحرة ، والإفطار الفرنسى الخفيف تقدمه مرسيليات حسناوات ، وفرنسا بطولها فى اتجاه وادى الرون . والمانش بسحبه الكثيفة ، والريف البريطانى الجميل بمنازله ذات الطراز الموحد الممل .

لم أتعرف فى فرنسا على غير نهر الرون ، عند ذلك الكوبرى العتيق المهدم الذى عرفته فى أفنيون باسم قنطرة ساذ بنازيه . وكان دليلى إليه الكوبرى المعلق القائم إلى جواره يصل بين ڤيلنوف وافنيون .

بدأ « ما بعد الحرب » . لعينى عند هيث رو المطار البريطانى الكبير ، المزدحم بالطائرات من كل صوب وحجم وشكل . خلو من المبانى ، تقوم إدارته فى خيام عسكرية كالحة اللون . يتلقاك رجال البوليس والجمارك بالنظرات المعهودة فى كل زمان ومكان ، نظرات عابسة حازمة ، كلها تشكك فى أمانتك ، وتجهم لقدومك ، فأنت فم ومعدة وشهية تضاف إلى الملايين من أشباهها فى بلاد لا تفى بحاجة سكانها . ثم إنك لا بد تحمل فى طيات ثيابك الذهب والجواهر والنشرات والقنابل . فإذا عرف الموظفون بهويتك ، وبما فى حقائبك من هدايا غذائية لأصحابك فى انجلترا ، ابتسموا فيما يشبه الاعتذار ، وتمنوا لك سفرا طيبا .

ثم اختراق تلك الضواحى الهائلة حول لوندرة التى تجعل من المستحيل عليك تحديد نهاية الأرباض وبدء المدينة . ساعة طويلة فى أتوبوس شركة الطيران ، أخترق أثناءها ذلك المزيج بين الريف والحضر ، الذى يميز الانجليزى . فهو إذ يبتعد عن المدينة لوندرة ، لا يعرف على وجه التحقيق أهو يعيش فى الحضر والريف عند أقدامه ، أو يسكن الريف والحضر فى متناول يده .

وأخيرا هذه هى لوندرة ، بحدائقها السندسية البهجة ، وأبنيتها السوداء القبيحة ، وازدحامها المرهق ، وأتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر ، الشامخة بطابقيها ، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار للطريق بدل يمينه ، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية .

كلا ! لم أنس لوندرة منذ سنة ١٩٣٨ . فلم يمض علىّ فيها يومان حتى وجدتنى أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل . ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد ، وشعور « عدم المبالاة بالآخرين » ، والحدود الموضوعة للسلوك فى البيع والشراء ، والاتصال بالناس .

هم هم الانجليز بوجوههم التى لا تنم عن شعور ، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى . ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن ، وربما كن أشد صلفاً واعتدادا إذا كان رجالهم بدوا أشد تعباً وإنهاكا . نبذوا القبعات السوداء المستديرة التى يسميها الفرنسيون « السنطاوى » والتى كانت مصدر عجبى عند ما زرت لوندرة لأول مرة سنة ١٩٢٧ فلم أك أتصور شعباً

با كله يقلب على رأسه هذه الآنية المضحكة التى عرفتها أول معرفتى لها على رأس شارلى شابلن ابن السبيل المهلهل الأنيق .

شعور واحد يتملكنى فى عشرة أيامى الأولى بلوندرة : شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى أنقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل . قلب الأمة الباسلة العنيد التى وقفت وحدها فى مواجهة الأفاقين البرابرة الذى تحدوا البشرية جمعاء ، والتى تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمما ونارا ، ومن قاع البحر حمما ونارا .

كنت فخورا بإنسانيتى إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا واقيا للحضارة . وسواء عندى أن يكون دفاع الانجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته ، ما دام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعا .

أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا . غُلبوا على أمرهم ، وطردوا من أوربا والملايا ، وقُطعت عليهم أغاب طرقهم البحرية ، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات فى كل مكان ، وأُنذروا بالفناء قبل الغزو ، أو بالغزو فالفناء . ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق ، على حدود مصر والسودان ، وفى العراق وكريت ومالطة والهند . ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودوفر وجبل طارق ، وردوا الضربات بأقل منها ، فبمثلها ، فبأضعاف أضعافها . ثم جاء دورهم فى الغزو ، فنزلوا بالقارة الأوربية ، وحرروا فرنسا والبلجيك وهولاندة وإيطاليا ، ثم استعادوا بورما والملايا ، واكتسحوا قطعان الذئاب الفاشستية يردونها إلى عقر أوكارها ، حتى قضوا عليها . وهم اليوم يتحكمون فى ديارها . إن قدّموا الخير فبشعور إنسانى كريم ، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم ، عادل أو غير عادل تبعا لمزاج من يريد أن يبدى حكما .

اشتركت فى الغلبة شعوب أخرى بدمائها وذهبها وصناعاتها ، ولكن أمر هؤلاء وأولئك ليس موضوعى ، ورحلتى فى « ما بعد الحرب » بدأت هنا فى بريطانيا . ومناظر التدمير الماثلة لعينى تخص عاصمة بريطانيا . والشعب حولى هو الشعب البريطانى ، بذل وأعطى ، دافع وهجم ، قاتل وضحى ، صبر وصابر ، حتى ظفر وانتصر .

كانت آثار التدمير فى لوندرة هى مزارى هذه المرة . وإذا كانت زيارة الآثار القديمة مبعث الشعور بالجمال الفنى ، ووحى التاريخ الغابر ، فالبيوت

المدمرة ، والكنائس المبقورة — تلك الكنيسة الأسكتلندية كتب الأسقف على جانب من حائطها المهدم : تجرى الصلوات بالجناح الأيسر — والميادين الجديدة فسحتها قنابل هرمان جورنج حول كاتدرائية سان بول ، هى أيضاً مبعث شعور خلق ، ووحى تاريخ قريب ، نطالع فيه عمى البربرية وتخرّص النازية التى نادت بالمدافع بدل الزبد ، لتفقد فى آخر أمرها المدافع والزبد ، ولا تجد فى نهاية الطريق سوى حبل المشنقة ورصاص البنادق وأنابيب سيانور البوتاسيوم ، والجوع والذلة وخصاصة العيش فيما أبقت عليه مدافع الروس وقنابل القلاع الطائرة .

قال لى صاحبى الانجليزى : لقد اعتدنا أن نرى المحايدين أقل إحساساً بما تركه التدمير من آثار فى بلادنا .

قلت له : ولكنى لست محايداً .

أجابنى : ولكنك لم تكن محاربا .

فطأطأت رأسى ، ولم أجرؤ أن أذكر له تاريخ دخول بلادى الحرب ، بل اكتفيت بترداد جملتى : ولكنى لم أك محايداً .

والإنجليزى رجل مهذب ، لا يحب الوصول بالحديث إلى غايته ، فسكت .

فى رويال ألبرت هول لحضور حفلات البرومناد كونسرت ، أحسست بروح شعب محب للموسيقى . والبريطانى كان فى كل عصوره سميعاً للموسيقى ، وإن لم يجد فى تاريخه ما يفاخر به شعوبا أكثر إنتاجا فى التأليف الموسيقى . ولم أنس هنا البحث فى أنحاء البناء المستدير الواسع ، أثر قنابل النازى .

وفى الناشونال جاليرى والتيت رأيت الشعب الحريص على تراثه الفنى يخرج توًّا من المخابئ ليؤكد القيم الباقية . وفى الجامعة والأكاديميات والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات عرفت للمرة المائة بعد المائة سر رقى الشعوب . فهو فى غير الزبد والمدفع ، إنما هو فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى .

هنا سر الدفاع الباسل عن حضارتنا . فكل إنسان ، حتى الهمجى ، مستعد للبذل فى سبيل الذود عن حومته . كل يدافع عما ملكت يمينه ويساره ، ولكن . . . فرق بين أن أدافع عن منازل أجدادى وآثارهم الفنية

والذهنية ، عن نوع من الحياة أساسه الكرامة الإنسانية ، وبين أن أدافع عن حياة دنيا ، ووطن استأثر به غنيه دون فقيره ، ورفض أبناؤه الشعور بتاريخه ومجده المؤثل . وحياة الانجليزى تنقلت بين الفقر والغنى والنجاح والخيبة ، والنبوغ والغباء ، والمغامرات شريفها وخسيسها ، ولكنها كانت حياة مجموعة بشرية لا تعرف الذل ، ولم تقبل الضيم يوماً فى تاريخها ، ولم تنكر حقبة من هذا التاريخ .

مسائل الدفاع هذه قد لاتدور بخلد الجندى البسيط بنفس الوضوح الذى تبدو فيه لعين المفكر المتعلم ، ولكنها حية فى نفسه ، كأنها قلبه النابض الذى لايفكر به وهو ينبض ، وليس مضطراً إلى التفكير فيه لكى ينبض . بمثل هذا تحيا الأمم وتنهض .

هذا الشعب المنتصر يعيش قريباً من الجوع ، يُقَتَّر عليه فى الخبز واللحم ، ويحسب عليه الكساء وأدوات النظافة ، هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إيراده لترد عنه غوائل المعتدى ، يرى نفسه فى آخر المطاف غالباً يصرف بعض إيراده على المغلوب ، ويعيش ثلاثة أرباعه على إيراد الربع الباقى . فالدولة تأخذ من الغنى لتعطى الفقير . ومهما كثر ما تأخذ من الغنى ، فهى أبعد من أن تجعل من الغنى فقيراً ومن الفقير غنيا . ولكنها خطوات فى طريق التحرير ، تحرير البشرية من العوز ، طريق العدالة الاجتماعية ، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده ، بل أمام الاقتصاد أيضاً .

أعشى البصر من لايرى فى الشعب البريطانى اليوم أثر هذا الانقلاب الاقتصادى الخطير . قال لى أحد أثرياء الإنجليز ، ممن عاشوا طوال الحرب بعيداً عن إنجلترا : غير أنك تجد الشعب أقل تهذيباً وأدبا . ولكنى لم أر أثراً لهذه الملاحظة الرجعية الخاطئة . فقد رأيت فى الشعب البريطانى اليوم قوة اعتداد بنفسه اجتماعيًّا ، ورفضاً لخيالات الماضى ، وتمسكا بحقائق الاقتصاد والاجتماع . يرفض أن ينحنى للكبراء لأنه كسب الحرب بعرق جبينه ودموعه ودمه ، إذا كان الكبراء كسبوا الحرب بمالهم . وكم كسبت الحروب بدم الفقير ومال الكبير ، فخرج الكبير أكثر غنى وأسعد حالا ، وخرج الفقير أشد فقراً وأفقر دما . والشعب البريطانى اليوم يرفض هذا النوع من كسب الحرب . فلكلٍ بقدر ماضحى ، ولكل بقدر ما بذل من جهد وعناء لا من مال ورخاء .

كان انتصار العمال وهزيمة الطغام الرجعيين موضع دهشة لنا فى مصر؛ لأننا لم نكن نعرف من أمر تطور « مابعد الحرب » شيئاً ، ولأن صورة العالم الخارجى لا تأتينا إلا عن طريق صحافة المال والأنانية ، وهى صورة أعدّتنا لغير انتصار حزب العمال . ولـكنى بعد زيارتى القصيرة جدًّا للوندرة عرفت أن هذا الانتصار كان طبيعيا ، منطقيا ، متوقعاً ، وأن العكس هو موضع الدهشة لو تم .

لم أر إنسانا يجمع الكل على احترامه أكثر من ونستون شرشل كزعيم حرب ، كرجل قاد أقدار أمته فى أحرج فترة من تاريخها وتاريخ البشرية . . . ليس غير . أما فى حكم البلاد بعد الحرب ، فهو آخر من يصلح ، بسبب ماضيه ومزاجه ورجعيته وحزبه الذى آذنت خاتمة حياته ولا يريد أن يموت .

وإذا قدّر لحكومة العمال أن تفقد جزءاً من أغلبيتها فلن يكون ذلك لحساب المحافظين بحال ، ولـكن لشعبة يسارية من حزب العمال غير راضية عن سياسة حكومة العمال فى بطئها وترددها ومواربتها ، وفى سياستها الخارجية التى لم تتغير إلا قليلا جدًّا عن سياسة المحافظين ، ولم تقم بعد بدورها الشخصى فى العالم كمركز التوازن بين الشيوعية الروسية والرأسمالية الأميريكية .

ومع هذا حققت حكومة العمال غير قليل من آمال الطبقة العاملة ، فى إخضاع كثير من المرافق للدولة ، وفى التأمين الاجتماعى بأنواعه ، وفى كسر شوكة أدعياء الحقوق التقليدية سواء كانوا من أصحاب رءوس الأموال أو من الهيئات ذات العزة والسلطان .

والصورة التى انطبعت فى رأسى لبريطانيا بعد إقامتى القصيرة فى لوندرة هى صورة شعب عامل مجد ، محب للنظام والعدالة ، يحترم حكومته لأنه اختارها ، ويتبرم بها تبرم الأخ بأخيه يوما أو بعض يوم . صورة شعب أمين فى معاملاته ، منطقى فى عمله دون أن يكون للمنطق حساب فى تفكيره ، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله فى العالم ، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التى تترجم بالعلم والفن والأدب ، والقيم الروحية فى السياسة التى تترجم بالنظر إلى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشرية .

وهذه فى رأيى مقومات الحضارة فى شعب كبير وأمة عظمى .

باريس

هل بلغك أمر الجميلة الأنيقة ، السرية ذات الدلال ، الذكية ذات الثقافة ؟ هل عرفت كيف كان منزلها ملتقى العظماء والمبرزين من رجال العلوم والفنون والآداب من أولادها وأصدقائها ؟ هل جاءك خبر الجميلة وقد استحال جمالها وفقدت أناقتها وضاعت ثروتها ، وتفرق أبناؤها يتلقون فتات الغاصب ، وراح ضيوفها والأدعياء لصداقتها يحطون من قدرها ويطعنون فى أخلاقها وحسبها وذكائها وكفاية أبنائها ؟

أنا اليوم طائر من لوندرة إلى المنزل العتيد للقاء الجميلة بعد طول الفراق ، وجل متعثر المشاعر والطائرة تقترب من البورچيه . أستمع لمضيفة الطائرة الفرنسية ، شقراء دقيقة المفاصل ، تحدثنا عن سرعة الطائرة فوق المانش — قاربنا الخمسمائة الكيلو مترا فى الساعة — وتسير إلى مواضع من أرض فرنسا ، فرحة بالعودة ، وقد غيرها جو بلادها فانطلقت تتكلم الفرنسية بلا انقطاع ، وكانت فوق انجلترا والمانش تنتقل بين لغتها والإنجليزية برشاقة وجاذبية لا حد لها .

لحظة اللقاء ، لمست أقدامى أرض فرنسا بعد طول الغياب ، أمنا فرنسا كما يقول أهل لبنان ، ومربيتنا باريس . لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسى . تقطع يداى قبل أن يغدر بك ربيبك يا باريس !

أنا اليوم سائر إلى المنزل القديم ، دنسته أقدام الغاصب أربع سنوات . لا تبرح خيالى صورة الفيلد جراو يمشى فى أرض باريس مرحا ، مصعر الخد ، شامخ الأنف ، ينظر إلى أعلام منشورة فوق قوس النصر واللوكسمبور . وقصر البوربون ، ويرقى الشانزليزيه فى دورية يومية تتقدمها الموسيقى إلى قبر الجندى المجهول .

لا تبرح خيالى جحافل النازى تدخل باريس ذات يوم من أيام يونية سنة ١٩٤٠ ، أمام منازل مهجورة ، ونوافذ مقفلة والجرّاح الكبير دى مارتل يفضل الانتحار على رؤية العلم الأحمر ذى الصليب الأسود يرفرف فى سماء باريس .

هل أنا فى طريقى إلى الحاضر أم أنا أسير القهقرى ؟ وماذا يهمنى الماضى إذا كذبه الحاضر ؟ ولكن ما قيمة الحاضر إذا كان يرفض كل صلة بالماضى ؟

ولم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا ، تصل حاضرها بماضيها دائماً ، صفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء . وما دامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت . إنما تموت الأمم إذ يموت تاريخها فى نفوس أبنائها . كلام معاد ، ودروس أولية ، وحقائق بالية ، تقمصت بعد زيارتى لباريس حياة جديدة حين وجدت فرنسا تضم إلى تاريخها ، وتقبلها ، تلك الصفحة المظلمة من الذلة والهوان ، التى عاشتها تحت أقدام النازى . عبرة ودرساً للأجيال الحاضرة والمقبلة لا من الفرنسيين وحدهم ، بل ومن غيرهم . ففرنسا لا تستطيع أن تحد دروسها بحدود جغرافية أو قومية . عرفت دائماً كيف تتحدث إلى كل الشعوب .

كل ما رأيت فى فرنسا لم أتوقعه ، والذنب فى هذا واقع على الصحافة العالمية التى تعيش بمال المنتصرين ، وبأغراض الطامعين فى تراث أم الحضارة وزينة الحضارة .

توقعت أن أرى فرنسا ترفض أمسها الذليل فى ظل الصليب المعقوف لتنسج لنفسها لبوساً من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة . فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ، ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار . لهم فى ذلك قولة مشهورة : سنوات الاحتلال النازى هى أيضاً من تاريخ فرنسا العريق . وفى هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخار والاندحار .

توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب ، فوجدتها مطأطئة الرأس ، مفكرة حزينة تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها . تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن نهج جديد فى حياتها .

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة ، قذرة تقتحمها العين . فرأيت شعباً جريحاً يضمد جراحه ، أنيقاً يرتق ثيابه ، نشيطاً إلى البناء ، متحفزاً للنهوض من كبوته . أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الدمن .

رأيت فى أيامى الأولى الصورة التى أعدتها لى الصحافة العالمية : مطاراً مهدماً زرى الهيئة ، يحتفظ ببقايا اليونكرزو المسرشميت المدمرة ، وأتوبوساً عتيقاً يحملنى إلى باريس . يسير بأى شىء غير البنزين . وضواحى باريس وسكانها يشتملهم الفقر والأسى ومتاعب الحياة .

أيامى الأولى بقطارات المترو ، وفى الأوتوبوس ، وفى الحدائق العامة ، وفى

الشوارع ، أيام وجوم ويأس . لا شك أنى كنت أعيش فى مدينة الأشباح ، أشباح الماضى ، باهتة ساهمة ، بطيئة الحركة ، عاطلة السيماء . هل أكون فى مدينة بلقانية كانت تعجب بباريس فقلدتها ؟ أأكون فى بوخارست ، باريس الصغرى كما كان يسميها الأغرار من أبنائها ؟

السلام عليكم يا أهل القبور ! قبور بوخنڤالد وداخاو وأوشڤتز ، وأقبية الجستابو ، وأعماق سجون ڤرين ، وجدران الإعدام فى ڤانسين ومونڤاليريان !

باريس بدت لعينى أول ما بدت كسيرة النفس ، مجروحة العزة ، مقروحة الكبرياء . اختفت ابتسامة بناتها ذوات العيون الضاحكة والقدود الهيفاء ، وخفتت حركة أبنائها الطريرين لا يحملون هما .

لكل أسرة مفقود فى المعتقلات القريبة والبعيدة ، ذهب ولم يعد ، قضى بين شعاب الماكى وخلف أسلاك الأوفلاج والستالاج . كيف تعود إلى هذا الشعب المعذب ضحكاته ؟ ومتى ينسى همومه ، والحاضر محتفظ بقسوة الماضى المادية ، وإن انقشعت عنه الغمة الروحية ؟

هذه أيامى الأولى فى باريس ، شبح حزين بين الأشباح الحزينة !

ثم بدأت أتجسد وتتجسد الأشباح . أو هى الغشاوة ارتفعت عن عينى بتأثير الجمال وحده ، فبدأت باريس تحيا . قامت الأميرة النائمة وقد فك عنها عقال الساحر المشئوم . حركت ذراعيها البيضاوين أو نشرت شعرها الذهبى ، أشعة الشمس تتجاوب بين قباب الأنڤاليد والڤال دى جراس ، وأسهم السانت شابل ، وقبوات قوس نصر الكاروزل ، وإذا هى باريس تتلقى عشاقها وتشير إليهم . أنظرونى إلى غد إن كنتم تستطيعون معى صبرا ، وإلا فها كم صفحات تاريخى صفحة صفحة تتلهون بها عن حاضرى ، وما غدى إلا صورة من أمسى .

سرتُ بعدذلك حاسر الرأس مكشوف الغطاء ، فعرفت أننى الواهم الخاطىء ، وأن باريس هى باريس ، لم تتحول عن مُثُلها العليا لحظة واحدة فى الفن والجمال والإنتاج الذهنى .

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح ، وارتدت المكاتب العامة وبيوت النشر ، والمعامل ودور الحكم ، وطالعت وراء سطور الصحف السياسية والأدبية والفنية ، فإذا الشعوب لاتعيش بالخبز والزبد وحدهما ، ولا تموت بالحديد والنار فحسب .

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقى الشعوب : هو فى فكر الفيلسوف ، ومعمل العالم ، وريشة المصور ، وقلم الكاتب والموسيقى .

وإذا كنت وجدت فى لوندرة شعباً فخوراً بانتصاره ، وفى باريس شعباً كسيراً بانكساره ، فقد عرفت فى الشعبين نفس المثل العليا التى عقدت لها الحضارة ألويتها منذ ازدهرت أثينا ، وحكمت روما ، ورسم ليوناردو ، وحفر ميكل أنجلو ، واحتج لوثر ، واحتكم ديكارت إلى العقل وحده .

وإذا كنت فى لوندرة وجدت النظام البرلمانى يسير سيره وئيداً واثقاً ، فقد عرفت فى باريس شعباً لما يهتد إلى ضالته فى استقرار سياسى أو هدوء اجتماعى أو طمأنينة اقتصادية . هنا أمة ناقهة تنتابها بعض بقايا الحمى ، قلقة لاتعرف اتجاها داخليًّا أوخارجيًّا . تتمخض عن دستور لاهو دستور الجمهورية الثالثة ، ولا هو دستور الثورة الجديدة . بين بين ، اضطرت إليه أحزاب ثلاثة كبرى لترضى أشتات نزعاتها جميعاً ، وتسىء إلى نزعاتها كافة .

عقد مؤتمر السلام بين جدران باريس فى جو خانق من تبادل اللوم ، وتناقر المناقير ، جبهة تناطح جبهة . وفرنسا بينهما كأنها بين شقى الرحى . شعب يناهض الحكومة ، وحكومة تراضى الشعب . . . على حساب الشعب . واليمين يرفع رأسه الذى دنسه التعاون مع النازى ، وينظر شزراً إلى اليسار طهرته المقاومة ، وعلمته المحن كيف يعرف أعداءه بين أصدقائه . والمقاوم الفرنسى الأول يحارب اليسار فلا يجد لظهره سنداً أقوى من طغمة التعاون والرجعية ، يستترون اليوم خلف اسمه الرنان ، بحجة الدفاع عن النظام والسلطان ، نفس الحجة فى مؤازرة أنصار الهدنة الشائنة والمريشال .

خضم من النشاط ، وأفق ممتد من الترقب . وحياة مادية صعبة ، ونشاط عقلى وفنى مزدهر . واستهتار بالقانون فى سبيل العيش ، وبالعيش فى سبيل المثل العليا . جسور تصلح ، وطرقات تنشأ ، وصناعات تنظم فى جو عاصف هائج ، تصوره أصدق تصوير صحافة صاخبة طويلة اللسان .

هذه هى فرنسا اليوم وأمس . . . وغداً . وبغير هذا لا تكون فرنسا . ومن يريد لفرنسا غير هذا فهو لا يعرف روح شعب حى بكل معنى الحياة . حياته فى خلافاته ، ومنازعاته ، وتقلباته . لا تتحد كلمة إلا على مبدأ واحد لا شريك له : الفكر الحر .

ولم تقل فرنسا بعدُ كلمتها فى عالم « ما بعد الحرب » ؛ فهى لاتزال تنفض بقايا عهدها التاعس ، وتنظف بيتها ومرابط الخيل فيها . ثم هى فى حاجة إلى لحظة من الهدوء تفكر فيها بأقدارها وأقدار الإنسانية . وما زال العالم يطلب من فرنسا ما طلبه منها على ممر التاريخ : روحا جديدا وفكرا جديدا .

كل هذا فى ذمة المستقبل . ولكن ما يهم عشاق باريس اليوم أنها عادت إلى الحياة ، واستأنفت سيرها فى موكب البشرية . أتيح لى أن أشترك فى أعياد تحريرها يوما بيوم وليلة بليلة ، فذكرت كلمة سمعتها من إذاعة سكسونية ليلة تحرير باريس بأيدى أهلها فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٤ : « لقد عادت منارة من منائر العرفان فى العالم إلى إضاءة العالم » .

حسين فوزى

ستيفان زڤايج

ورسالته الإنسانية الكبرى

روّعت أوربا عام ١٩١٤ بقيام الحرب الكبرى التى شبّت نارها على حين فجأة ، فطوقت البطاح والوهاد ، والتهمت ماصادفت من إنسان وحيوان ، ومن دور ونبات . تعكر جو أوربا الصافى واكفهرت سماؤه ، فأخذت النفوس الهادئة الوادعة تنفعل وتضطرم ، والأعصاب تتوتر وتتهدج ، وطاش الصواب وطاحت الحماقة بالحكمة . وطفقت الجماهير تتجمع فى كل مكان ، وتضج وتصخب ، فيفقدها الضجيج والصخب وعيها ، وتنقلب إلى قطيع من البَهْم المفترسة ، تردد فى غير إدراك تلك الصيحة الطائشة الفاجعة « إلى الحرب .. إلى القتال » .

امّحت الحكمة حتى كأن الأمم لم تعرفها فى يوم من الأيام ، ولم تمجّ أساليب العنف ، ولم تستنكر وسائل القوة والبطش ، ولم تؤمن بالخير وتعتز بحضارتها الحديثة التى جادت بها أصفى القرائح وأسمى المشاعر . . . لقد غاض العقل الراجح ، وجمدت المشاعر السامية . وعند ما رددت الحناجر الدعاء إلى الحرب أشبه صداها نعيق البوم .

فى وسط هذا العباب الطافح بالأحقاد وقف ستيفان زڤايج يرقب مايجرى حوله بعين الحسرة المريرة ؛ فإن جنون الحرب لم يستطع أن يؤثر فى نفسه الشاعرة . ذلك الجنون الذى سرت عدواه من الأمم المحاربة إلى الأمم المحايدة ، فانقسم العالم إلى معسكرين متخاصمين ، ينصر كل معسكر منهما أحد الفريقين المتناحرين بما يمده به من أدوات التخريب والتدمير ، أو بالدعاية المسمومة ، حتى فاضت نفوس البشر بالحقد والمقت ، ولم تعد له متعة إلا فيما كانت تطالعه من أنباء الفجائع التى عصفت ببنى الإنسان .

ولكن نفس زڤايج كانت ،كما قلنا ، مطعمة بأسمى الخوالج الإنسانية ، فثبتت

لتيار الأهواء الطائشة ، ولم تتردّ فى مهاويها . بل إن نفوره من الشرور التى استفحلت واستشرت أشعره بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقه . أدرك أنه صاحب رسالة جُلّى عليه أن يؤديها ؛ فهو الشاعر الألمعى الذى درج على أن يبث أجمل أحاسيسه فى قلوب الناس ، وأن يحدوهم إلى غايات الخير والعدل والجمال . والساعة الرهيبة التى تجتازها البشرية تتطلب منه أن يبذل قصاراه ليبشر برسالة الحب والسلام ، وليفيض على العالم ما يكتنزه قلبه الكبير من عطف ورحمة .

آمن بعظم المهمة التى آلى على نفسه أن يضطلع بها ، وهبطت عليه المعانى والمشاعر كأنها إلهام منزل ، وفطن إلى وجه الشبه بين رسالته وبين رسائل الأنبياء ، فجرّد قلمه الصغير السن ، الخطير الشأن . . . جرده ليحطم بسنه الصغير السيوف الفاتكة ، ويخترق الدروع السميكة ، ويزلزل حصون الشر والضلال .

ولكنه لم يغب عنه وهو يهم بتدبيج رسالته أن الأنبياء لم يوفقوا فى بث تعاليمهم ، وتوطيد العقائد التى بشروا بها باعتمادهم على القدرة السماوية ، وأن الأمم لا ترعوى عن غيها ولا تهتدى إلا بهدى السماء . ولما كان أوان التنزيل قد مضى وانقضى فقد ارتأى أن يستعين بأحد الأنبياء الأقدمين فيبعثه من جديد فى ملحمة شعرية ، ويجرى على لسانه ما يشاء أن يجريه . ولم يجد من هو أقمن من إرميا ، نبى السلام ، بتحقيق هذه الغاية .

كتب زفايج قصة إرميا ، وصور فجائع الحرب التى وقعت فى عصر ذلك النبىّ . ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فقد جاءت القصة صورة مطابقة لعصر كاتبنا الفذ فى شروره وآثامه . ولما كان إيمانه بالخير كإيمان ذلك النبى ، وتعلقه بالسلام كتعلقه ، وتجرده الروحى وسمو شعوره هيأه لتلقى الوحى ، فقد استحال إرميا فى القصة الحديثة إلى زفايج نفسه .

لما تجمعت الجيوش الجرارة إبان الحرب الكبرى ، وسارت إلى ميادين القتال وهى تضرب فى الأرض بأقدامها ، لم ينخدع زفايج كغيره من الناس فى مظاهر الفتوة البادية على الجنود الأشداء ، ولم تبهره سيوفهم المشهورة اللامعة ، ولم يفتنه نظامهم الحربى الرائع ، ولم تتهدج أعصابه حماسة لأهازيج موسيقاهم العسكرية ، إذ كانت نظرته أبعد من ذلك مدى ، وأدق تمحيصا ، فنفذت من

حجب الغيب ، وسبقت الزمن ، ورأتهم وهم عائدون من غمار القتال فلولاً هائمة على وجوهها عفرها التراب ، ونهكها التعب ، وحنت ظهورها الذلة وخيبة الأمل . وفى هذا يقول على لسان إرميا :

« شفّت المرارة نفسى ، فطفرت الكلمات إلى فمى . . . نبئونى بالله يا إخوتى أبلغت الحرب من النفاسة مبلغا يدعونا إلى الترنم بمديحها ، والإشادة بآلائها ؟ أهى مستطابة إلى الحد الذى يسوّغ تهافتكم عليها ؟ أهى كريمة فتستحق منكم هذه التحية المنبعثة من سويداء قلوبكم ؟ . . . أما أنا فأسجل عليها أنها ضارية كالحة الأديم . فهى تفرى جلود الأصحاء وتمتص نخاع الأشداء ، وتطحن المدن بين فكيها ، وتمحق الحقول بوطء نعليها . ومن يثرها يعجز من بعد عن قمعها . ومن يستل السيف يمت بحد السيف . . . ويل لأولئك السفهاء الذين يوقظون الفتنة بكلمة تخرج من أفواههم ، فإذا سلك هؤلاء طريقهم إلى القتال ، عادوا أدراجهم لدى فرارهم من سبع طرق . . . الويل لأولئك الذين يكتمون أنفاس السلام . احذروا هؤلاء . . . احذروهم . . . »

ساد أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر اعتقاد بأن الحروب قد انقضى عهدها ورقّقت الرفاهية شعور الشعوب التى غرقت فى بحبوحتها ، وأحدث ازدهار العلوم والفنون تأثيره ، فأيقن أبناء الحضارة الحديثة بأنهم سائرون بخطى واسعة صوب المثل الأعلى الذى بشرهم به المتفائلون من أئمة كتاب القرون الثلاثة الأخيرة . وما طلع سبنسر على العالم المتحضر بفلسفته حتى قوبل من أبناء القرن التاسع عشر بلا استهجان ؛ فقد رأى على ضوء بحوث داروين أن الإنسان لم يخلق من طينة تختلف عن طينة غيره من أنواع الحيوان ، وأنه خاضع لقانون الغاب ، قانون السيطرة للقاهر الغلاب ، ولا يخطو فى وشائج هذه الحياة خطوة إلا وهو مدفوع بحكم تنازع البقاء . ولم يلبث مقتنعو هذا المذهب أن طنطنوا به ، وأهابوا بالناس أن يفيقوا من خوادع الأوهام ، وأن ينزلوا إلى دنيا الحقائق ، ويجابهوا مشكلاتهم على أساس الواقع .

وما هلّ القرن العشرون حتى ازدادت العلوم ازدهارا ، وتعددت المخترعات التى بهرت الألباب ، ورسخت العقيدة بأن الإنسان سيد هذا الكون ، فهو قاهر الطبيعة ومسخر عناصرها لتحقيق غاياته ، والمهيمن على مصادرها

ومواردها . وبدأ المستقبل باهرا ، حتى خيل للعالم المتحضر أنه يرى خلاله غايته المنشودة ، وهى الكمال .

وازدادت الزراية بنظرية سبنسر ومؤيديه على مر الأيام ، وامتعض راكب السيارة والمستمع إلى الحاكى ، والمستضىء بالكهرباء من أن يحشدوا فى زمرة الحيوان . ولكن حدث فى عام ١٩١٤ أن انقلب هؤلاء السادة بالفعل إلى ضوار كاسرة كشّرت عن أنيابها ، واقتحمت ساحات الوغى مزمجرة ، ونهشت لحوم بنى جلدتها من البشر ، واستماتت فى ميدان هى قاتلة فيه أو مقتولة . وهكذا حققت الأيام ما ذهب إليه سبنسر وهاكسلى وهايكل وأضرابهم ، وأيد أبناء الحضارة الحديثة فلسفة هؤلاء بأساليب لا تختلف عن أساليب الوحوش بعد أن شبعوا منها سخرية .

وأظهرت كثرة الكتاب يأسها من البشرية التى نكصت على أعقابها بعد أن خيل للمتفائلين أنها سائرة قدماً فى سبيل أوج الحضارة ، وتعالى نداؤهم بتوديع الأحلام الذهبية والتسليم بالواقع . ولا غرو فى أن تودع البشرية آمالها بعد أن كثرت الدعاية لمذهب تنازع البقاء ، وبعد أن جاءت الحرب الكبرى داعمة لهذا المذهب الخطير .

ولكن فريقا من الكتّاب ذوى النفوس العامرة بالإيمان أبى أن يكفر بالخير ، وأن يسلم بأن للغرائز البهيمية الغلبة فى النهاية على الفضائل الإنسانية ، ولم ير فى الحرب الكبرى إلا حلقة من سلسلة الحروب السابقة التى لم تنشب إلا لحكمة سماوية .

رأى هذا الفريق ، وعلى رأسه زفايج ، أن القدرة الصمدية الخارقة لم ترد بالإنسانية إلا خيرا ، ولكن النقيض لا يعرف إلا بنقيضه ، ولا يظهر الضد إلا الضد ، ولا سبيل إلى الخير العميم الشامل إلا بعد أن تبلو الإنسانية ألوان الشرور جيلاً بعد جيل ، وبعد أن تنصهر فى بوتقة المكاره والآلام ، فتتخلص من عللها ، وتنفر بعد ذلك من شرورها وآثامها نفورا لا رجعة بعده إليها ، وترقى بعد أن تتطهر من أثرتها الفانية إلى الخلود .

حرص زفايج على بث هذه العقيدة فى آيات القصة التى نتناولها فى هذا العرض ، فكرر القول فى أكثر من موضع منها بأن سبيل الخير هو فى تجرد الإنسان من صلفه وكبريائه ، وبأن الله قدم البلاء

لتستساغ من بعده النعم والآلاء . وفيما يلى نتف مما كتبه فى هذا الصدد

قال إرميا يخاطب المولى :

طهرتنا بالخير ثم رفعتنا . . . من بعد أن جمحت بنا الأوزار
وبثثت فينا جذوة الحب الذى دار الوجود عليه حيث يدار
لما أردت الخير قدّمت الأذى ليشوقنا بعد العناء يسار
فبدت لنا نعم الحياة جزيلة من بعد ما عصفت بنا الأقدار

وقال أيضاً :

لست أشقى إلا لينعم غيرى بشقائى فى كل عصر وجيل
ويدول العهد المقيت ويزهو عهد حب من بعده مأمول
إن فى موتى المبكر يا قو م حياة للعالم المخذول

وقال كذلك يخاطب المولى :

لك أجثو يا إلهى خافض الرأس خشوعا
أضرم النار وقطّب واغمر الأرض نجيعا
وانبذ الشعب الذى اختر ت فرادى وجموعا
كلما أبعدتنا أر جعنا الحب رجوعا
كلما عذبتنا ازدد نا ولاء وخضوعا

لا غرابة فى أن يطلع علينا علماء التاريخ الطبيعى بنظرية تنازع البقاء، وفى أن تتأسس هذه النظرية لا على أن الإنسان نظير الحيوان فى غرائزه فحسب، بل على أن كل إنسان يشبه نوعاً من الحيوان فى صورته كذلك، ويخضع الجميع لقانون طبيعىّ واحد. ذلك لأن أولئك العلماء توفروا على دراسة الحيوان ومراقبة التطور الطبيعى الذى يطرأ عليه، وتسجيل طباعه وعاداته. وهذه الممارسة الدقيقة، وهذا الإدمان الطويل مما يزيغ البصر ويضل الحواس. فلا يلبث الممارس المدقق الذى انحصر فكره وحسه فى دائرة بحثه أن يتأثر حكمه على الأشياء الخارجة عن هذا النطاق بما استقر فى وعيه من سوانح ونظريات

خاصة بذلك البحث ، وإذ به يرى الدنيا بمنظار هـذه السوانح والنظريات .
وإذا كفر علماء التاريخ الطبيعي بما تحلى به الانسان من سجايا وخلال تؤهله لبلوغ المجد الذي يصبو إليه ، فمن مقتضيات الطباق أن يمج شاعر مثل زفايج بدعة هؤلاء ؛ لأن الشاعر الذي رق حسه وصفت نفسه ونفذ بصره إلى مواطن الجمال المادي والمعنوي في عالمنا الأرضي ، وحلق في سبحات الفكر الساميـة ، استطاع أن يرى أي بون شاسع يفرق بينه — وهو من بني الإنسان — وبين سائر الحيوان . . . إن الشاعر الملهم هو الآية الإلهية التي تدحض فرية أولئك العلماء ، وهو الذي يصوغ في روائع شعره أغاني الخلود فتترنم الإنسانية بها وهي تخطو قدماً إلى مثلها الأعلى . وقد اضطلع زفايج بمهمة الشاعر الكبير وصاغ قصة إرميا الشعرية ليحلق من يقرؤها في أجواء الملائكة ، ويتبين وهو في عليائه مبلغ ما في رأي المتشككين في سمو الإنسان من خطل .

تقع حوادث هذه القصة في عصر قويت فيه شوكة آشور حتى صارت خطرا على جيرانها . ولم يَخْفَ على حكومة مصر أن الآشوريين وقد أنسوا من أنفسهم القوة يحلمون بالعيش في ظل وادي النيل الممراع ، فأوفدت بعثات عسكرية إلى الدول المتاخمة لها بقصد الاتفاق معها على دفع الخطر الآشوري الداهم . وفي ذات يوم وصل بعض قواد الجيش المصري إلى أورشليم لتحقيق الغرض المذكور ، فقابلهم الشعب بالهتاف والتهليل ، ورحب بتحالف الجارين على دفع أذى المعتدين . وبينما كانت حماسة الجماهير في ذلك الحين على أشدها تصدى لها إرميا ، وحاول إقناع الهاتفين للحرب بأن في دعوتهم إليها هلاكهم وخراب بلادهم ، وبأن سلام الله أولى بالدعوة إليه . ولـكن الحـكمة لا تجد سبيلا إلى لب من طاح بلبهم الطيش ، وكان نصيب ذلك الداعي إلى الخير أن رمى بأقبح الصفـات : رماه بعضهم بالجبن والخور وبخيانة الوطن ، ورماه بعضهم الآخر بفساد الرأي وقلة الإدراك . وعندما صارحهم بأن الله جل شأنه هو الذي بعثه إليهم ليحذرهم مغبة الحرب ويدعوهم إلى السلام ، وأن الوحي السماوي هبط عليه في المنام ، رموه متهكمين بخبل العقل ، وبأنه مريض بداء الأوهام والأحلام .

وبينما كان المتظاهرون يضجون فى ساحة المدينة الكبرى داعين إلى امتشاق الحسام إذ بمليكهم صدقيا يخرج من قصره، ويتجه على رأس البعثة العسكرية المصرية صوب المعبد ثابت الخطى شاهر السيف. ولكن صرخة مدوية تصدر فى اللحظة من أعماق قلب إرميا وتطبق الآفاق :

— ياصدقيا . . . أغمد سيفك . . .

يتوقف الملك مأخوذا برهبة ذلك الصوت، ويرتجف السيف فى يده وتتخاذل يمينه وتتساقط، ويتلفت ليتبين مصدر ذلك الصوت. ولكن صيحات الشعب الغاضب تجلجل فى هذه الأثناء، وتعم الأرجاء فتغمر صوت إرميا. ولا تلبث حماسة الشعب أن تدب فى أوصال الملك من جديد، فيشهر سيفه كما كان، ويعود إلى مشيته الأولى صارم الوجه ثابت الخطى.

تقع الحرب، وتروج إشاعات بانتصار المصريين على الآشوريين، فينتشى شعب أورشليم زهوا وطربا، ويوسع إرميا سخرية وتنديدا. ولكن النبى يصرخ فى الساخرين المنددين قائلا :

— الرسول فى طريقه الآن .

وما هى إلا هنيهة حتى يبدو من وراء سور المدينة الرسول الذى رآه إرميا وهو لا يزال فى حجاب الغيب. أقبل ذلك الفارس ينهب جواده الأرض، وأعلن للشعب المتكأكئ حوله الحقيقة سافرة بالغة من السوء مبلغا تنقلب معه العجرفة والصلف إلى ذلة ومسكنة. فالجيش الآشورى قد تغلب على جيش مصر، وانكشف طريق أورشليم أمام بختنصر.

سقطت مدن فلسطين فى أيدى العدو مدينة بعد مدينة، ورأى شعب أورشليم من فوق أسواره أعمدة اللهب تتصاعد فى ظلمة الليل من تلك المدن، فيتوقع حتفه الزاحف إليه، وينتظر انقضاضه مرتعد الفرائص وجلا، ولم تلبث الحرب التى دعا إليها أن صبت ويلاتها عليه. ففى ذات ليلة سمع هديرا كهدير البحر يتصاعد من الصحراء المترامية وراء أسواره، فأدرك أن ملك الظلام قد أقبل بجحفله الجرار، وحاصر مدينته العزيزة عليه.

تقع مقابلة فى هذه الآونة العصيبة بين صدقيا الملك وبين إرميا النبى. ويفطن أولهما إلى أن الثانى هو الذى أهاب بالسلام فى ساحة المعبد يوم دعا الكافة إلى الحرب، فيقول له :

— لم تحاشيتنى ؟ . . . لم تخليت عنى ؟

فيجيب إرميا :

— إنى لم أبعد عنك لحظة ، ولكنك لم تفطن لوجودى . أنت لم تهتد إلىّ .

— كم من أمور تنبأت بها يا إرميا فحققت الأيام جميع نبوءاتك ، حتى صار لحكمك تأثير بعيد المدى من نفسى . ولهذا سأطلعك على سر يجهله الجميع لتدلى برأيك فيه . بعث إلىّ بختنصر برسول يعرض الصلح .

— لله الحمد . . . افتح لهم الأبواب ، افتحها . . . وافتح أبواب قلبك .

— لا تتعجل . . . إن شروط العدو قاسية .

— أنت بادرته بالصلف والكبر ، فاحتمل كبره وصلفه .

— أليس صون الشرف من مهام الملك ومن مفاخر التاج ؟

— لا تكن حريصا على ما ملكت يداك . . . فما أجل الشرف الذى يفوز به من يحتمل العذاب فى سبيل الكافة ، ويشقى لينقذ المتعلقين بأهداب الحياة . . . طأطئ هامتك فلا نجاة إلا فى خضوعك . . .

يأبى صدقيا أن ينصاع لنصيحة إرميا ، فيثور هذا الأخير ويتهم مليكه بأنه عرض بلاده برعونته للدمار ، ودفع بشعبه إلى الهلاك . فيغضب المليك وينذر ويتوعد ، فيجيبه النبى :

سوف يلقى بك العداة إلى الأر ض فتجثو قسراً على ركبتيكا
ويمس الثرى جبينك حتى يغمر الترب صفحتى خديكا
اللظى فى الأتون يهدر كالوحـ ش ويترو منه اللهيب إليكا
فيه نصل يحمونه تحت عينيـ ك لمحو الضياء من عينيكا
فاذا ابيض بعد جمرته النصـ ل هوت طغمة العداة عليكا
تدفن النصل بين عينيك حتى يتعالى الدخان من محجريكا
ما يزالون طيلة الليل يحمو ن لظاهم ليسملوا مقلتيكا

يتراجع صدقيا مرتاعا ، ويمد يديه كأنه يدفع عنه القدر ، ولكن إرميا لا يباليه ، ويتم نبوءته الرهيبة :

قبل أن يطفىء العدا — منك نور النواظر
سوف تبتلى بمحنة — فى بنيك الأصاغر
ستراهم ثلاثة — فى مهب المقادر
جاء جلادهم إليـ — ـهم بخوف البوادر
أنت عن دفع ما قضى — فيهم غير قادر
قيد القوم ساعديـ — ـك فزمجر وهاتر
كل ما تملك الصيا — ح وشق المرائر
ثم تهوى رءوسهم — صاغراً بعد كابر

صدقيا

رحمة بى يا إرميا رحمة بى

إرميا

ستنادى كما تنادى الآنا

راجياً من إلهك العفو عما — قارفته يداك والغفرانا
يا أعز الملوك جاهاً ستمسى — مدقع الفقر يائساً حيرانا
باسطاً للسؤال كفيك منبو — ذاً من الناس جائعاً عريانا
هائماً كالغريب فى بلد كنـ — ـت عليه فيما مضى سلطانا
لا يباليك من لقيت من الرو (م) — اد أو من سألتهم إحسانا
جهلوا أمر ذلك السائل العا — نى ولم يعرفوا المليك المهانا
فإذا ميزوك صبوا على رأ — سك من جام حقدهم ألوانا

يملأ الفزع قلب صدقيا ، ويترنح كالأعمى ، ويتساقط على مقعده وقد ضعضعته شخصية إرميا الغلابة ، ثم يناشد هذا الأخير متضرعاً أن يرحمه ، فيجيبه بأنه قادر على التنبؤ بسر الأقدار ، ولكنه غير قادر على دفع غوائلها .

تفلت الفرصة من يد صدقيا لأن رسول بختنصر عاد أدراجه ، قبل ذلك اللقاء الذى وصفنا تفصيله ، يحمل إلى ملك الظلام رفض اقتراح الصلح . ويصور زقايح آخرة صدقيا الذى أقحم شعبه فى حرب سحقته بين شقيها . فقد كبله العدو بعد اقتحام أورشليم بالأغلال ، وقاده إلى الساحة الكبرى ، وضرب الجلاد عنق

أولاده الثلاثة على مشهد منه ، ثم أطفأ نور عينيه . . . وهكذا تحققت نبوءة إرميا بحذافيرها .

ويتخذ زفايج من هذا الملك التاعس فى آخر قصته عظة لكل متكبر صلف . فنراه يخرج من باب قصره كفيف البصر ، محاطا بأمراء كلدية السكارى الذين اتخذوه أداة للهو والمفاكهة ، فأخذوا يتقاذفونه وهو يترنح ويكاد يسقط بين كل خطوة وأخرى . ثم تعالت أصواتهم الساخرة منادية :

— يا قاهر بابل . . . قف وناهض بختنصر .

— لا تسقط على الأرض فأنت عماد أورشليم .

— لم لا ترقص لنا رقصة داود ؟

— دعوه يشرب ظلمة الليل ، ولنعد نحن لنشرب السلاف الصافية .

يبتعد الملك الطريد عن قصره متعثرا مادّا يديه فى الفضاء حتى يقبل على شعبه المتهيّئ للرحيل الى منفاه ، فيقابل بعاصفة من السخط والاستنكار ، ويرمى بأنه كان السبب فيما حل ببلده من أرزاء .

وبينما الهم يقطع نياط قلب الشيخ الأعمى الذليل ، إذ يقبل عليه إرميا مشفقاً ، ويأخذ بيده ، ويخاطبه بصوت يسمعه الملأ :

— لقد أمسيت ملك الآلام ، ولم يبلغ مُلكك فى يوم من الأيام مثل الذروة التى سما إليها اليوم . كنت أناهضك يا سيدى حين ازدهار جاهك ، واكتمال سلطانك ، ولكننى أنحنى اليوم أمام من حناه ربه .

ثم يلتفت إلى الحشد ويستطرد قوله :

أغمض الله له عينيه حتى	لا يرى إلا أقانيم السماء
غضّ جفنيه فدارت مقلتاه	فى امتداد الأفق الضاحى السناء
سخرت جمهرة الجهال منه	وهو مولى الأشقياء السعداء

عاهل المستضعفين الشهداء .

والشخصية الأخرى التى نفث فيها زفايج الحياة فى قصته ، وسخرها كذلك لتبيان مقصده ، هى أم إرميا . اعترضت هذه الأم سبيل ابنها ، ونددت بالدعوة القدسية التى آلى على نفسه أن ينشرها بين الناس ، وانضمت إلى زمرة

الساخطين عليه ، وحرمت عليه دخول دارها حتى يرعوى ويؤمن بأن شعب الله المختار لا يقهره قاهر ، وبأن معبد الله فوق متناول التخريب . ويحاول النبي أن يقنعها بقدسية رسالته ، فتزداد عليه سخطا وتكيل له اللعنات . فيغادر دارها ثابت الجأش بعد أن يصارحها بأنه وطن نفسه على تأدية رسالته مهما قام فى سبيلها من عقبات ، وبأنه يستعذب فى تلك السبيل كل تضحية حتى لو كان حب أمه له وعطفها عليه مما يضحى به . ذلك لأن الكلمات التى تخرج من فمه هى كلمات الله ، وهو لا يملك إلا الشفة التى تنطق بها .

تشعر الأم بعد هجران ابنها لها بوحشة لا قبل لها باحتمالها ، ويبرح بها همٌّ مقيم لا يلبث أن يسلمها الى مرض عضال . وسرعان ما تستغرق فى غيبوبة طويلة لا يقطع سكونها إلا أحلام مفزعة تمثل لها ابنها معرضا عنها ، نافرا منها . ويخشى خادمها الأمين أشعب على حياتها ، ولا يرى وسيلة لتخفيف وطأة مرضها إلا أن يستقدم ابنها . فأرسل فى أثره من يبحث عنه ويعود به إليها ، وكانت الهزيمة قد حاقت أثناء مرضها بأمتها ، ولكنها لم تعلم من أمرها شيئاً .

وقف إرميا بباب غرفة أمه ، فسارع إليه أشعب ، ونبهه إلى جهل المريضة بالمحنة التى حلت بأورشليم ، وأوصاه بألا يلمح إليها بكلمة عنها إبقاء على حياتها . ونظر الولد إلى أمه المستلقية على فراشها ولم يجرؤ على التقدم . ففتحت جفنيها ، ونصّت فى فراشها ، ونادت وحيدها بصوت يتهدج ضعفاً وحناناً ، ولم يلبث الحائر المتردد أن أسرع إليها وارتمى فى أحضانها ، ودار بينهما حوار طويل فاض بالعتب الرقيق ، وبالحب والعطف المتبادل بينهما . وعرّجت الأم على نبوءة ابنها فقالت :

أنا آمنت بالحقـــائق لم أعـ ـدل بهـا خادعا من الأوهام
أنا لقنتك الحقـــائق هذى منذ عهـــد الطفولة البسام
لن ينال العـدو منا فإن الـ (م) ـــه راع لعـــابديه وحام

اكفهر وجه إرميا ، وانتفض جسده ، وردد فى ذهول :

لن ينال العـدو منا فإن الـ (م) ـــه راع لعـابديه وحام !

وامتقع وجه الأم ، وسألته :

لم هذا الخوف المريب الفجائى ؟ لم هذا القنوط بعد الرجاء ؟

ازداد اضطراب إرميا ، وعجز عن أن يحير جواباً . فتوسل إليه الخادم أشعب أن يعيد إلى سيدته طمأنينتها :

قل لها قولا يسرّى يُرَحاء الهم عنها
بعد أن صار رداها دون قيد الرمح منها

وقالت سيدة من أقربائه كان المجلس يضمها :

موّه عليها الحقيقه وارفق بأم رفيقه

وحاول إرميا الكلام من جديد فلم يسعفه القول . وعاود أشعب إلحاحه :

بلفظة يا إرميا واحدة ترحمها

وقالت القريبة :

أيامها محدودة أبالأسى تختمها

فهمس إرميا متخاذلا :

لا أستطيع أن أقو ل لفظة توهمها
يأبى علىّ أن أقو ل لفظتى ملهمها
قد مكّنت من عنق وأوشكت تحطمها
يد لها قدرتها من الذى يفصمها ؟
يا رب أطلق قيدها فلست من يظلمها

وأدركت الأم الحقيقة فولولت :

الويل والدمار شبت بجسمى النار
وبلدى ومعبدى كلاهما ينهار
أودى بنا البوار وأظلم النهار . . .

وسقطت على فراشها جثة هامدة .

هكذا يختتم زفايج حياة أم النبي . فهى لا تتبين مغبة وقوفها فى سبيل الدعوة إلى السلام حتى تموت حسرة وغما .

أما الزعماء والأنبياء الذين عملوا على إذكاء الحرب وأغروا الشعب بخوض غمارها ، فلم تلبث رحاها أن هشمت عظامهم ، وسحقت مشاشهم . وعملت ريشة الشاعر الفنان على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلا بأورشليم وأهلها . فأسوار المدينة مهدمة ، ومعبدها مخرب ، وطرقها ملوثة بالدماء الآدمية ، والجثث ملقاة على الأرض متحجرة معفرة ، شاخصة العيون ، فاغرة الأفواه ، مطبقة الأيدى على التراب .

يستهول إرميا هذا العقاب الصارم الذى أنزله الخالق بعباده ، وينخلع قلبه جزعا عليهم ، فتثور ثورته ، ويكاد إيمانه ببارئه يتزعزع . ولكن حكمة الخالق لا تلبث أن تتجلى له ناصعة ، فيثوب إلى رشده ، ويدب الإيمان إلى قلبه قويا عازما على مثل ما كان من قبل . ويشعر بأن عليه مهمة كبرى جديدة يجب أن يؤديها ، وهى أن يواسى الشعب المنكود ، ويعيد إليه ثقته وإيمانه .

يذهب إلى ساحة المعبد فيرى الملك صدقيا يتخبط فى الظلام على النحو الذى وصفناه سابقا ، ويبشر القوم بقرب انهزام بختنصر وزوال ملك آشور ، ويقول فيما يقول :

كل من جـرد نصل الـ	سيف بالسيف هلك
أو أسال الدم سال الـ	دم منـه وانسفك
والذى عادى يعـادى	هكذا دار الفلك

يحدث هذا القول تأثيره المنشود ، فيواصل النبي وعظه :

« كأنى وأنا أخبر آلامكم يا إخوتى أطالع كتابا مفتوحا ، وتتكشف لى معانى السطور التى خطها الشقاء والعذاب . ولكنى أتبين فى نفس الوقت حكمة النوائب التى بليتم بها ، وأرى ذات البارئ تتجلى خلالها . . . وإذا عمر الإيمان قلوبكم ، بث الله فيكم الروح ، وبعثكم من جديد . لا تملأوا الدنيا

شكاية وولولة، فنحن نشقى فنستمد القوة من شقائنا، ونكبو فننهض ثانية ونحن أثبت قدما وأقوى عزماً .»

ولا يزال إرميا بمستمعيه حتى تفور بين الشعب فورة حماسة جارفة، وينتصر الروح انتصاره الخالد على قوة المعتدين المادية، وينبثق الأمل فيبدد ظلمات اليأس . ويحين ميعاد رحيل المقهورين إلى منفاهم فى بابل فيغادرون بلدهم فى موكب وراء موكب، ويرددون أثناء مسيرهم أناشيد زادت حماستهم تأججا حتى أخذ بعضهم يرقص من شدة الطرب .

يرقب زعماء كلدية هذه المواكب المنشدة الراقصة فيتملكهم العجب، ويسأل أحدهم :

— أى شعب هذا ؟ أليس هو الشعب المهزوم !

ويعقب آخر :

— بم يترنم ؟ . . . ياله من شعب عجيب !

فيجيب ثالث :

— هناك سر يبدلهم من حال إلى حال . هناك قوة خفية تملؤهم نشوة . إنهم يؤمنون بعالم غير منظور .

ويسأله الأول متعجبا :

— وكيف يؤمنون بما لا يرون ؟ لابد من أن نتعلم عنهم هذا السر الغريب .

إننا نستطيع إبادة الرجال، ولكننا لا نستطيع إبادة الروح الكامن فيهم .

بهذه العبارة تنتهى قصة زفايج الخالدة . ولكننى لا أستطيع أن أنهى كذلك هذه العجالة حتى أعرض لمشهد استوقف نظرى من أحد الفصول الأولى لتلك القصة .

قلنا فيما تقدم إن الشعب كان يهتف للبعثة العسكرية المصرية فى ساحة أورشليم الكبرى، ويدعو إلى امتشاق الحسام، وخوض غمار الحرب . وقد وقع قبل أن تصل مظاهرة الشعب إلى تلك الساحة أن اعترض إرميا سبيل المتظاهرين وحاول إقناعهم بالعدول عن دعوتهم الطائشة والتمسك باهداب السلام، وطفق يندد بجالبة الشرور ومخربة الديار، ويعدد آلاء السلم ونعم

الوئام ، ولـكنه قوبل بغضب صاخب . وخرج له من بين صفوف الحشد شاب ترتجف أعصابه حماسة ، وطلب إليه فى لهجة الآمر أن يتنحى عن طريق المظاهرة . فلم يكن من إرميا إلا أن هتف فى وجهه للسلام ، فهدده الفتى بضرب عنقـه بحد سيفه ، فظل النبيّ ثابتاً فى مكانه ، باسطا ذراعيه ، مناشدا المتظاهرين بأعلى صوته أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن الغرض الذى قصدوا إليه

يهوى الفتى عندئذ بسيفه على إرميا فيصيبه فى جبهته ، ويغادره ملقى على الأرض متخبطا فى دمه ، ويسير مع الجماهير إلى ساحة القصر الملـكى . ولـكنه سرعان ما يتوقف ، ويدفعه دافع من نفسه إلى استطلاع أمر ذلك الرجل الذى اعتدى عليه . فيعود أدراجه بطئ الخطى ، مزاحما تيار المتظاهرين . ولا يصل إلى حيث يرقد إرميا حتى ينحنى عليه ويقول :

— لا تتحرك . دعنى أجفف الدم المتدفق على عينيك .

يفتح إرميا جفنيه ويسأل فى لهفة :

— أين ؟ . . . أين النـاس ! . . . الطريق مقفر . . . آه . لقد ذهبوا إلى القصر ينعقون ويستنزلون غضب السماء . . . إحملنى إليهم . . .

فيتعجب الفتى ويجيب :

— اترغب فى محاولة أخرى تناهض بها الـكافة وحدك ؟ أنت تلقى بنفسك إلى التهلـكة .

ويناديه إرميا :

— أمسك بى . . . أعنى على النهوض . . . سر بى إليهم .

ويقول الفتى وقد ازداد عجبه :

— وأنا الذى حسبك جبانا ! . . . أنا لم أناهضك إلا وأنا واقع تحت تأثير هذا الحسبان الخاطئ !

— ألا تظن السعى فى سبيل السلام كفاحا ؟ إنه يتطلب جلداً وبأساً قد لا يتطلبهما القتـال . إن الذين ينشدون السلام يخوضون حرباً لا يخمد لها أوار .

— إنى أومن بك لأنى رأيت صفاء عينيك وهدوءهما على بريق سيفى المصلت .

— كيف تؤمن بى ، وقد طعنتنى وأنت تناهضنى منذ برهة ؟
— أومن بك لأنى رأيت دمك المسفوك يؤيد دعواك .

كتب زفايج هذه القصة وسط أتون الحرب الأوربية الكبرى . وما وضعت تلك الحرب أوزارها ، ونشر شاعرنا الكبير مؤلفه بين الناس حتى اطمأنت نفسه ، حاسباً أن عهد الحروب قد مضى بغير رجعة ، وأن دعوته السلمية المنبعثة من سويداء قلبه ستجد السبيل إلى كل قلب .

ولكن الأيام بددت حلمه الجميل ، واشتعلت نار الحرب العالمية الأخيرة ورأى أن دعوته إلى السلام لم تكن من القوة بحيث تحول دون وقوع الحرب ، فأراد أن يثبتها ويدعمها بدمه المسفوك فأزهق روحه . وهكذا وضح أن ما سطره فى قصته لم يكن مجرد بديع وبيان ، بل كان أصدق تعبير عن أشرف عقيدة آلى على نفسه أن يبذل فى سبيلها أثمن ما يملك ، وقد بذل حتى نفسه فى تلك السبيل .

محمد منير الشوباشى

من هنا وهناك

نحن والشعر

[تصدر قريبا — او صدرت — فى العراق سلسلة شهرية ، من الرسائل ، باسم « عبقر » خاصة ، أو كالخاصة ، بالبحث فى الشعر والشعراء . كتب إلى رئيس تحريرها الأستاذ الناصرى ، يسألنى مقاطع من شعرى ، أو كلمة فى الشعر — ولعله يريد فى نقده — وهذا جوابى . رأيت له ، أن ينشر فى « الكاتب المصرى » ، إن رأت هى ذاك .]

أخى المحترم .

أنا لا أومن بالنقد ، ولا أراه إلا هامشا كالمرتزقة على متن الفنون ، وقد ينطوى الدهر ، وتمحى الأرض ، والنقد عند أبواب « عبقر » يتطال ، ولا يطول ، ويهم ، ولا يريم .

لذلك ، فأنا إذ أتحدث عن الشعر أوجز ، ولهذا كان جوابى على كتابك كما ترى ، فى خطف وإيجاز .

الشعر العربى فى جملته ، منذ أمرئ القيس ، حتى شوقى ، غنائى ، ابتدائى ، ما برح يدور حول إطار النفس والحالة والمشهد ، ولا ينفذ إلى الصميم ؛ لأن الحياة العربية منذ كانت ، سطح ، وانبساط وتجزئ . والنفس الانسانية التى صدر عنها أمثال برجسون ، ونيتشه ، وڤاليرى ، وبيتهوفن ، ودوستيوفسكى ، عمق ، وتكثيف مركزين ، على شمول وكون .

كانت المحاولات العربية الأولى ، لشق الاطار ، والنفوذ إلى الحالة النفسية ، — محاولات المتصوفة العرب ؛ وإن شئت التخصيص ، فالمتألهة منهم ، كالحلاج ، وابن العربى ، وعمر بن الفارض ، ولكنها — تلك المحاولات — أخفقت ، وانصدعت ، وماتت على الاطار ؛ قتلها الدين ، فى تجميده الحياة ، وتأزيله الأبجدية .

هذا ؛ أو لأن النفس العربية ، فى تاريخها الطويل العريض ، لم تتعقد ، بحيث تصبح كوناً . ولم تتفجر ، بحيث تحدث رجة ، تحيا التاريخ ، وتنحدر إلى جذور الأبد .

تستطيع ، فى غير جهد ، أن تجيئنى بالأدلة والنصوص ، على انعقاد النفس العربية ، وانفجارها ، فى لمحات — من تاريخها الطويل العريض أيضاً — .

أنا أعرف تلك اللمحات معرفتك لها ، وأنا معجب بها إعجابك بها ، ولكنى أرى تعقيد النفس العربية — حتى فى صوفيتها — تعقيداً عقلياً محضاً . والعقل ، فى رأيى ، مظهر ، ليس غير — وهل أقول بليد ! — للنفس الانسانية ، والوجود الكل .

أما انفجاره ، انفجار هذا التعقيد العربى إذ يمتلئ ، فهو ، أبداً . إلى خارج ، لا إلى الداخل ؛ نتيجة منطقية محتومة ، لانبعاثه عن العقل .

وأخيراً ، ماشعرنا والفن ؟
ومانحن والعالمية ؟
عد إلى نفسك ، واسألها الجواب .
أما أنا فقد سألت نفسى، وسألتها ، وعدت من كل ذلك ، بابتسامة كاليأس ، وبمفهوم جديد ، كمكان الصفر من مراتب العدد .
لاتقل : ومصر ؟ فما برحت مصر فى إحياء وتجديد ، وإصلاح . وهذه الألفاظ ، وأخواتها ، وخالاتها ، شئتها لغة ، أو شئتها منطقاً ، — دوران فى الاصل ، واجترار له ، أما الخلق فلا خلق ، وأما الفجر فليس هناك ! .
تلك براعم ، كالحلم ، تستهل على سفوح لبنان ، تتسرب فى كل أفق ، كل فى اتجاه ، حتى لتحسبها إلى ضياع وتيه ؛ ولكنها ، وراء المنعطف ، تلتف ، وتنعقد ، على صميم واحد ، يسمى الحياة ، ويدعى النفس ، ومن ألقابه : الفن !
إقرأ ، إن شئت ، سعيد عقل ، وبشر فارس ، وشارل مالك . وعمر أبو ريشة ، (وأنى يعمر هذا الشعر ، لو لم يكن فى دمائه خفقة من سماء لبنان ؟) وسر — كذلك إن شئت — مع مار مخائيل نعيمة ، فى صوفيته ، وجبران فى ثورته[1] . — وانظره إلى الاطار ، الاطار الذى حدثتك عنه ، ودللتك عليه ، تجده ينشق عن صميمه ، ويحتضن لبنان .
ترى . هل ينغم : مرحباً ياصباح !

[حمص — سورية]

وصفى قرنفلى

وهم من الأوهام فى تأويل حلم من الأحلام

قرأت « حلم ليلة من ليالى الصيف » [2] فيمن قرأوه ، بل زدت عليهم فقرأته أكثر من مرة ، ولم أكن وأنا أقرؤه غافلا عن أنى صاحبه وكاتبه .
وما أحسب أن هذا شأنى وحدى . بل هو — فى أكبر الظن — موضع الضعف فى كل كاتب إزاء بعض آثاره التى ليس فيها كبير دخل لحياته الثقافية ، ولا هى ثمرة من ثمراتها اليانعة الجنية ، وإنما هى الوحى الخالص لصدمة عاطفية ومحنة نفسية .
بيد أنى واجد هنا — فوق ما ذكرته — موجباً من موجبات الساعة لتكرارى مراجعة هذا الحلم الذى رأيته فيما يرى النائم ، والذى أثبته على الطرس كما رأيته لم أخرم حرفا . ولم أخل بوضع ، ثم نشرته كما أثبته لا مفتنا ولا متزيداً . وذلك الموجب — بل ذلك الداعى الملح الذى ركب رأسى — هو ما كنت عليه إلى قبيل كتابة هذه السطور من الشبهة المستبهمة والحيرة الشديدة فى أمر تلك السيدة المحترمة المحتشمة التى لم أتعرفها فى الحلم ، والتى رأيت ورأى القراء معى كيف تدخلت فى الحلم غير محتسبة ولا متوقعة ، فمنعت استمراره وبلوغه إلى غايته .
وليس من شك فى أن الحلم كان إلى قبيل ظهور هذه السيدة متصل السياق ، واضح الدلالة ، لا مشقة فى متابعته ودرك فحواه وبواعثه . فهو — كما يدل ظاهره فى وضوح لا خفاء به —

---

(١) اقرأ ، ان كنت لم تقرأ ، آخر ماخط جبران : « آلهة الارض » .
(٢) الكاتب المصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

حلم أرمل ما برحت زوجه الميتة شاغلة لقلبه ولبه ، مستولية على حبه . وكل حلم غايته — كما هو معلوم — أن يحقق ما لا سبيل إلى تحقيقه فى الواقع . ولقد دخلت عليه — كما هو الشأن فى سائر الأحلام — أفانين من الزخارف الشعرية والاشارات الرمزية . وفيه — كما فى سائر الأحلام — عنصر الخوف فى صورة من صوره الغريزية أو الاجتماعية ، وقد كان الخوف هنا فى أفظع صورة ، لأنها صورة الخوف من الجنون واستلاب العقل عند من يغالى بقدر العقل .

ولقد رأينا هذا الحلم — فيما حكيناه عنه — وقد نشأ رفيقا ، ثم تقدم فى حركة سريعة ، وارتقى فى تعسف أدواره الفاجعة المفزعة العنيفة ، حتى اقترب إلى الذروة ، ولم يبق إلا خطوة ويبلغ الحلم أجمع أدواره وأعنفها وأشدها هولا . فمن تراها تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة التى اندفعت وسط الزحمة ، واستبقت الموكب فعطلت سيره ، وصرخت صرختها المخنوقة التى ملئت رعباً ، فنبهت وعى النائم ، ودرأت عنه الهول الداهم ؟ من تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة ؟

سؤال طفقت أردده بلا طائل ، مدة شهر كامل ، كلما خلوت إلى نفسى . والآن ، الآن فقط ، أحسبنى عرفتها . عرفتها مع ما كان من عمل الحلم فى التبديل فى مظهرها وإخفاء هيئتها .

أجل ! عرفتها ، عرفتها ، تلك السيدة المحترمة المحتشمة .

يا للعجب ! كيف لم أتعرفها فى الحلم !

كيف لم أفطن لها فى اليقظة ، وفى ساعات الأرق بين النوم واليقظة . مع طول التروية والتفكير فيها !

إنها أمى . أمى اندفعت لخلاصى من الهول الداهم . إنها أمى الحبيبة المحبة .

ولكن . . . لكن ، ماذا تراه يخلص من هذا الذى رأيته جميعاً ، هذا الذى رأيته فى تفصيله وجملته ؟

أيكون صورة لذلك الصراع الخالد — سواء فى السر أو فى العلانية ، سواء فى الواعية أو فى باطن الواعية — ذلك الصراع الخالد بين المرأتين المثاليتين ، بين حبيبتى الرجل المحبتين : أمه وزوجه !

لئن كان تأويل حلمى كالذى وقع فى وهمى ليكونن هذا الصراع أروع الصراع وأرهبه . إنه بين امرأتين فى عالمين يفصل بينهما الموت ، تريد أن تستأثر بى فى هذه الحياة أمى ، وتدعونى أن أزف إليها فى الحياة الأخرى زوجى .

ولست أزعم أن هذا هو القول الفصل وكلمة الختام ، فلأصحاب منهج التحليل النفسانى من شيعة فرويد رأيهم فى هذا المقام ، فما أدعى علماً بتأويل الأحلام .

عبد الرحمن صدقى

المسلمون فى إرتريا

قد نشرت بعض المجلات أن عدد المسلمين فى إرتريا يساوى عدد المسيحيين . وذلك غير صحيح ؛ لأن إرتريا تتألف من سبع مديريات وهى مديرية عصب ، ومصوع ، وكرن ، واغردت ؛ فهذه الأربع كلها إسلامية ، وثلاثة منها خليط من المسلمين والمسيحيين ، وهى مديرية حماسين ، وسراى ، وأكلغزاى . وجملة عدد المسلمين فيها لا يقل عن النصف إن لم يزد عنه .

ويبلغ عدد قبائلها ثلاثمائة قبيلة منها ٢٤٠ قبيلة إسلامية . ولغتها الرسمية قراءة وكتابة

هى العربية فقط . وستون قبيلة مسيحية ولغتها الرسمية التجرينية . فلهذا يعد غير المسلمين ربما والمسلمون ثلاثة أرباع .

وفيها ست عشرة محكمة شرعية ، وخمسمائة مسجد وجامع ، ومائة وتسعون وقفاً من الأوقاف الخيرية . وبعض هذه المساجد والأوقاف من خيرات مصرية . كما يوجد فيها حوالى أربع آلاف خلوة لقراءة القرآن . وفيها عدد لا بأس به من المعاهد الدينية والمدارس الاسلامية الخاصة بأبناء المسلمين .

وثقافة المسلمين فيها كلها مصرية ، ويدير الحركة الدينية فيها جماعة من خريجى الجامع الأزهر الشريف .

ولهذه الأسباب كان راى جميع مسلميها الانضمام إلى مصر سوى افراد مؤجرين أو موكلين من أثيوبيا لمطامعهم الشخصية . إلا أنه لما اقتصرت مصر على طلب مصوع فى مجلس الصلح تأسف المسلمون لذلك وعدلوا عنه . ويترجح الآن أنهم يطلبون الاستقلال المنتظر تحت وصاية الحكومة البريطانية أو هيئة الأمم المتحدة إلى أن يقدروا على الاستقلال بادارة بلادهم . وقد أشيع أن إرتريا ستنضم إلى إثيوبيا ، وأن اسمرة ومصوع تكونان مقر إمبراطورها انقطع طمع الأجانب والمهاجرين من جهة مصوع . ولكن هذا مع سيول دعايات إثيوبيا وأموالها لم يجد آذانا صاغية بين جميع المسلمين وبعض المسيحيين بل صار زوبعة فى الفنجان او نفخة فى الرماد .

[عصب]

عيسى على قمر

البـابا والمثال

نبهنا باحث فاضل إلى شىء من اللبس جاء فى عرض الحديث عن البابوات الذين سبقوا البابا يوليوس الثانى مما يبعث على الخطأ فى ترتيب توليتهم . ولذلك رأينا أن نذكر أسماء البابوات الذين جاء ذكرهم فى المقال ومن تبعوهم مع ذكر أسمائهم قبل انتخابهم وتواريخ حكمهم :

نقولا الخامس (توماس بارنتشلى من سارزانا) من سنة ١٤٤٧ إلى ١٤٥٥ .

كاليستو الثالث (الفونسو بورجيا من ڤالنزا) من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ .

بيو الثانى (إنيا سلڤيو بكولومينى من سيينا) من سنة ١٤٥٨ إلى ١٤٦٤ .

باولو الثانى (بيترو باربو من البندقية) من سنة ١٤٦٤ إلى ١٤٧١ .

سستو الرابع (فرنشسكو دللاروڤيرى من ساڤونا) من سنة ١٤٧١ إلى ١٤٨٤ .

إنوشنق الثامن (ج . باتستاشيبو من جنوه) من سنة ١٤٨٤ إلى ١٤٩٢ .

آليساندرو السادس (ردريجو لنزول بورجيا من ڤالنزا) من سنة ١٤٩٢ إلى ١٥٠٣ .

بيو الثالث (فرنشسكو تودسكيى بيكولومينى من سيينا) سنة ١٥٠٣ . ولم يتول غير ٢٥ يوما)

جوليو الثانى (جوليانو دللاروڤيرى من ساڤونا) من سنة ١٥٠٣ إلى ١٥١٣ .

شهريات

شهرية العلم

بعث العلم فى فرنسا [1]

أنبأتنا الجرائد أن الرئيس ترومان قد أنشأ منذ قليل لجنة للبحوث العلمية غرضها ذو ثلاث شعب : « دعم الدفاع الوطنى ، وتنمية الاقتصاد الأمريكى ، وزيادة مجموع المعارف الأمريكية الأساسية . » وذلك عمل سبق الأخذ به فى فرنسا قبل الحرب ، وسيؤتى ثمراته عما قريب فى السنوات الآتية ، بعد فترة الاختناق التى مرت بنا أثناء الاحتلال . وأقصد بذلك « المركز الوطنى للبحث العلمى » ومركزه الرئيسى بباريس رقم ١٣ كى دورسيه وقد جاء أخيرا نتيجة لجهود عدد من العلماء ولا بد أن نذكر فى مقدمتهم العالم الطبيعى الشهير جان بيران Jean Perrin المتوفى بالولايات المتحدة أثناء الحرب . وقد لاحظ أولئك العلماء ، وكلهم تقريباً من الجامعيين ، أن البحث العلمى قد نضب معينه بفرنسا لانعدام الموارد المعدة لذلك ولانعدام التنظيم . وحتى من أيام بارس Barrès ، سمعنا صيحته عن « بؤس المعامل » . ولم تكن الاعانات المقدمة من الحكومة إلى الجامعة ضئيلة جداً فحسب ، وإنما كانت الأعباء التعليمية مانعة أيضاً الأساتذة من قصر أنفسهم على البحث العلمى الخالص . وكان الشبان متجهين بعد حصولهم على إجازاتهم العلمية . إلى ناحية المهن الصناعية ؛ إذ أيأسهم قلة ما يجنونه من وراء العلم الخالص ، وأصيب التجنيد العلمى من جراء ذلك إصابة جسيمة . ولم يعد ينبغ أحد فى بعض فروع العلوم الطبيعية ، حتى صاح الأستاذ بوفييه صيحة الاستغاثة فى أكاديمية العلوم .

واستخدم جان بيران كل ما أوتيه من بلاغة ليشعر الحكومة والرأى العام بالخطر المهدد ، فكتب يقول : « يجب قطعاً أن ندرك أن البحث العلمى هو أملنا الوحيد لنخلق أحوال جديدة حقاً بحيث تكون الحياة فيها بالنسبة للبشر جميعاً حياة حرة قوية غنية بما تحتويه من مؤهلات السعادة ؛ ولذا يبدو من الحمق ألا تكون الأمم المختلفة قد قامت إلى الآن بأى مجهود جدى نحو أولئك الذين أوتوا حب البحث العلمى حتى لا تقصيهم عنه الضرورات المادية . وهكذا فقدنا الكثير من الرجال ذوى العبقرية ، حتى صارت حالتنا اليوم أتعس وأشق مما كانت تؤول إليه لو استطاع أولئك الباحثون أن يعيشوا . . . »

ولحسن الحظ أصغى البرلمان لتلك الصيحة النبيلة وأقر القوانين والاعتمادات اللازمة لذلك وأسس فى عام ١٩٣٥ صندوق وطنى للبحث العلمى ليقوم بنفقات المعامل والحفريات والبعوث والطبع والمكافآت الدراسية ومكافأة العلماء وأسرهم . وذهب فى ذلك إلى حد أن أقام ذلك القصر الجميل بالشانزليزيه « قصر الاكتشاف » ليبعث حماسة الشباب للعلم وليشيع الحب له بين الشعب . وكل ما اعتمد لذلك هو مبلغ خمسين مليوناً من الفرنكات عام ١٩٣٩ (أى أقل أربع مرات أو خمس مرات من الاعتماد المخصص

(١) هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

لذلك فى ألمانيا) ، ولكنه على أية حال بدء لجهود كان سيؤدى إلى التنظيم التام للبحث العلمى كما أراده بيران .

وكان القصد توسيع الوسائل وتهيئتها لتجنيد صفوة من الشباب ، وزيادة إنتاج الأساتذة الذين يقومون بالبحوث العلمية وذلك باعداد جوائز للانتاج ، بل السماح للباحثين الموهوبين بتكريس أنفسهم تماما لما يعشقون . وقسم الباحثون من غير الأساتذة إلى ثلاثة اقسام : المكلفون بالبحوث وهم يعادلون رؤساء المعامل بالتعليم العالى ، ورؤساء بحوث ويعادلون الأساتذة المساعدين ، ومديرو بحوث ويعادلون الأساتذة أصحاب الكراسى . ولمهمتهم ورواتبهم مدة محدودة ترتفع بارتفاع الدرجة . وأعد للباحثين من هيئات التدريس مكافآت وقتية أيضاً تساوى نصف الراتب بشرط أن يخصصوا للبحث العلمى كل الوقت الباقى لهم بعد العمل .

ويقسم المبتدئون إلى « مساعدى باحثين » و« مرشحين للبحث » ويحصلون على مكافآت ويوضع مجموع تلك « الادارة الوطنية » تحت رئاسة مجلس أعلى للبحث العلمى .

وتحققت هذه الآمال باجراءات تشريعية ، أولها قانون ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ القاضى بتأسيس « مركز وطنى للبحث العلمى » . وترك إنشاء المجلس مؤقتا وللآن لم يؤسس بعد ، وسيكون إنشاؤه فى القريب خير نهاية لتنظيم العلم بفرنسا ، فهو لن يؤدى إلى حماية الحقوق المادية والأدبية للعلماء فحسب ولكنه سيقيم كذلك سياسة حقيقية للبحث العلمى ، وذلك بجمع كل المجهودات المبعثرة وتنظيمها سواء فى الوظائف العامة أو المهن الخاصة . وسيضع حداً لتلك الجهود الضائعة عبثاً ، والتى من أمثلتها وجود معامل عديدة تقوم بنوع واحد من البحوث وتتبع وزارات مختلفة وكل منها يجهل وجود الأخر . وليست فرنسا بذلك الغنى ، ولا العقول القادرة على دراسة العلم بالكثرة التى تسمح بالاستمرار فى ذلك التنافس العقيم . وكم من مرة لاحظنا فيها أن مهمة علمية جديرة بالنجاح تنقصها الوسائل لذلك ، على حين أن هذه الوسائل تستخدم فى ناحية اخرى فرصة النجاح فيها قليلة . وليس هناك إلا الحرب التى تبيح للمصادرات المعقولة . ولكن الأمر اليوم أمر السلام وأمر مصير الحضارة .

وفى انتظار إقامة هذه المؤسسة الأخيرة ، التى ستجعل من فرنسا بلداً نموذجياً فى ناحية التنظيم العلمى ، ترى المركز الوطنى للبحث العلمى لا يضيع وقته عبثاً . وإن العمل الذى قام به لعظيم . ولقد عمل ببطء أثناء الحرب ، تحت رئاسة الأستاذ شارل جاكوب ، واقتصر على تشجيع العلماء وعلى الاستعداد لما بعد الحرب ، وذلك فى أغلب الأحيان دون علم العدو الذى كان يشرف على كل المعامل التى يستطيع الاستفادة منها . وجدير أن يكتب كتاب عن العلم الفرنسى أثناء الاحتلال ، وعندئذ نرى فيه مثلا كيف نجح أحد علماء الطبيعة مثل ريليه بارتلمى فى أن يخفى على الألمان ، وكانوا قد صادروا معمله ، بحوثه عن التلفزيون التى أدت إلى تقدم رائع هو الصورة ذات ألف الخط image à mille lignes وكذلك استطاع المركز العلمى — وكان قد سبق له أن ساعد فى إعداد التعبئة العلمية أثناء فترة الحرب الأولى — أن يمد بالعدد سراً بعض المعامل الجديدة ، وهى التى كانت على أهبة الاستعداد للعمل بمجرد أن حررت فرنسا .

وهناك فكرة قيمة جدا لم تكن فى مشروع بيران الاول ، وهى إيجاد الصلة الضرورية بين العلم البحت والعلم التطبيقى ، وذلك رغم أننا سمعنا مراراً أن ذلك كان سر تفوق الألمان فى العلم : ففى عام ١٩٣٨ أنشأ المركز العلمى

قبيا « للبحث العلمى التطبيق » ، وربط بين جهوده وجهود الانتاج الصناعى والجماعات الفنية . ولقد عممت هذه السياسة اليوم بين هذين النوعين من البحوث . وأصبح مفهوما أن العالم البحت لم يعد يستطيع ألا يهتم بمصير مكتشفاته ، وأن على الرجل الفنى أن يتابع التجديد المستمر فى المعلومات النظرية حتى لاتفلت منه فرصة تحسين وسائله وتحسين إنتاجه . وإن ذلك التعاون ليمكن تحقيقه على خير وجه فى معامل العلم التطبيقى . وتشمل الادارة فى كل المعامل التابعة « للمركز الوطنى للبحث العلمى » علماء خالصين ومهندسين أو فنيين .

ولكن تحولا أبعد من ذلك وأشد عمقا قد حدث فى عام ١٩٤٥ . فبمجرد تحرير الأراضى الفرنسية ، استولى فريق جديد ـ كان قد تميز بروحه وأعماله فى المقاومة ـ على تلك المؤسسة الحديثة بقصد توجيهها نحو غايات اجتماعية أسمى وأعظم . وكان الرئيس هو الأستاذ جوليو المعروف فى جميع أنحاء العالم بدراساته الذرية وحصل من الحكومة على المراسيم اللازمة ، فتألفت لجنة وطنية من ٤٤٠ عضوا أو مستشارا يمثلون كل صنوف النشاط العلمى . وحتى ذلك الوقت ، كان يقصد بكلمة «علوم» الدراسات الثلاث : الرياضية ، والطبيعية والخاصة بالتاريخ الطبيعى . فتقرر أن يضاف إليها العلوم التى كانت تدعى فيما قبل بالعلوم « الأدبية » كالفلسفة والتاريخ والحقوق والاجتماع واللغة بل الأدب . ولم ينسوا أن يضيفوا إليها أيضاً تلك العلوم « البشرية » وهى التى تشمل الجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الحفريات . وهذه الولايات الفكرية تتطلب من العلماء أن يكتشفوها بأدوات علمية تكون أحيانا مادية وبوسائل معملية . ولها اليوم نوابها فى مركز البحث العلمى . والهيئة التنفيذية لهذه الجماعة العلمية هى مجلس مكون من خمسة عشر عضوا . وهناك مجلس إدارة بالمعنى الصحيح يشرف على المصالح العامة .

ولما نظم المركز العلمى بالطريقة السالفة ، أخذ يعمل فى إحصاء الانتاج العلمى وفى وضع خطط البحوث وزيادة عدد الباحثين والفنيين . ووضعت لكل طائفة درجاتها . فقسم الباحثون إلى : طالب بحث ، ثم مكلف بالبحث ، ثم رئيس البحث ، ثم مدير البحث . وقسم الفنيون إلى وكيل فنى ، فمساعد ، فمعاون ، ثم مدير فنى . ومثل هذا التقسيم لو وجد سالفاً لروع علماء المدرسة القديمة ، ولكنه اليوم يتفق مع نظام توزيع العمل . فالمعامل العلمية اليوم هى مصانع صغيرة بعمالها وبآلاتها المعقدة التى تتطلب وجود ميكانيكيين وكهربائيين وعمال مختصين . ورقى « صبى المعمل » فى النظام القديم إلى وظيفة مساعد فنى . وأصبح الباحث ، الذى كان فيما مضى يصنع بنفسه أدواته ، يقتصر على وظيفته العلمية تاركا للمعاون الفنى أو المدير الفنى أمر العناية بالأجهزة .

ولكن الكادرات والنظم لا قيمة لها إذا أعوزتها الروح ، ويجب أن يكون العلم فى كل آن — كما تمناه رنان Renan — بذلا من المرء وتضحية بل أحيانا رسالة يؤديها العالم . ولا يصح على أية حال أن يكون وظيفة إدارية . ولقد أدرك المركز الوطنى للبحث العلمى — بعد أن جدده جوليو وخلفه تيسييه بمعاونة المدير المساعد جوزيف بيريس وبعض أعضاء هيئة الادارة — أن كل معضلة البحث العلمى هى إيجاد كهنة للمعبد . فتراه يرقب المتحمسين للعلم عند انتهائهم من دراساتهم الجامعية ويمنح من يلتحق منهم بالبحث المكافآت والرواتب ، ونجد فى قائمة المنتمين للبحث العلمى عن عام ١٩٤٦ : ٣٠٨ طالب بحث ، ٣٤٥ ملحق بالبحث وذلك من مجموع الأعضاء البالغ عددهم

١١٠٠ عضو ، وعدد الفنيين كذلك ١١٠٠ عضو . وتبلغ الميزانية العامة — وهى على نفقة الحكومة — ٥٦٠ مليون من الفرنكات وقد كانت ميزانية عام ١٩٣٩ تبلغ ١١٠ مليون من الفرنكات . وعلى هذا فلم تزدد شيئاً نظراً لخفض العملة . وليس لنا أن ننتظر خيراً من ذلك ما لم تقم فرنسا ما تهدم من بنائها . وأول ما يجب الاهتمام به هو أن تتعهد شعلة العلم المقدسة ، والاندع الفناء يعدو على الأعمال العلمية التى لا تستطيع أن تنهض بنفسها . ويذهب مركز البحث فى أداء رسالته إلى مدى مساعدة بعض المؤسسات كالمتحف ومعهد باستير وقد أعاد طبع الكثير من البحوث العلمية مبتدئا بمحاضر أكاديمية العلوم . واعترف تيسييه بأنه « لو لم يوجد ذلك المركز لأتلفت المعامل التى تجرى بها أهم البحوث الفرنسية أبوابها » .

وتبدو فائدة المركز جلية فى وضع مشروعات البحوث وتوجيه للمعامل القائمة أو إنشاء معامل جديدة . ويجب أن ننتظر بعثاً للعلم الفرنسى الذى أصابته الحرب والخراب الذى عم البلاد إصابة جسيمة . والمركز يشرف على ٣٥ مؤسسة بعضها يقل نظيره او لا نظير له فى البلاد الأخرى . ويأتى فى المكان الأول من بينها مجموعة معامل « بل فى » المقامة مكان مكتب الاختراعات . وهذه المجموعة تشمل محطة فروا التجريبية ، وتتكون من ثلاثة معامل : للطبيعة وعلم الحياة والتبادل الحرارى ؛ وتشمل أيضاً معامل الكيمياء الحيوية للتغذية ، ومعامل الضغط الكهربائى العالى ، والتحليل الكهربائى ، وأشعة إكس ، والتصوير الشمسى والسينمائى ، والمغناطيسية ، (ومعها المغناطيس الكهربائى الكبير الخاص بأكاديمية العلوم) ، ومعامل التطبيقات للمغناطيسية ، ومعامل الأراضى النادرة (معمل جورج إربان) ، ومعامل للمواد القطرانية .

وهناك سبعة معامل أخرى تحتاج إلى عون المجموعات الفنية ، وهى معامل للمواد ذات المقاومة الكبيرة ، والمواد القابلة للتشكل ، ومعمل شفريل ، ومعامل المواد الدهنية ، وألوان الصباغة والطلاء ، وللمعالجات الحرارية ، والبادلات الحرارية . وهناك معمل ذو لائحة خاصة وهو معمل الوقاية من النار ، وسيلعب دوراً هاما فى إعادة إنشاء المساكن والأسطول

وفى ناحية الفلك ، يتبع المركز مؤسستان لها أهمية عظمى ، وقد كانتا فى طريق التكوين قبل الحرب ، ولم ينته إتمامهما بعد وهما : معمل الطبيعة الفلكية الملحق بمرصد باريس ، ومرصد مقاطعة بروفنس العليا فى ناحية فوركالكييه الجافة المشمسة حيث تصفو السماء صفاء عظيما ، ففى ذلك المرصد أمكن رؤية صور سديمية بتلسكوب بسيط قطره ٨٠ سنتيمتراً . وتلك صور يمكن مقارنتها فى وضوحها بصور التلسكوب الذى قطره ٢٥٠ سنتيمترا الموجود فى قمة ولسون . كما أن تلسكوبا عظيما قطره ١٢٠ سنتيمتراً قد تم صنعه فعلا وأقيم هناك فى انتظار تلسكوب آخر قطره ١٩٢ سنتيمترا يجرى صنعه الآن ، وقد صب زجاجه فعلا فى سان جوبان . وسيكون هذا العمل العظيم أكبر عمل من نوعه فى أوربا . وكذلك تطمع محطة الأشعة الكونية المقامة حديثا — فى قمة أجوى — دى — ميدى قرب شامونيكس على ارتفاع ٣٦٥٠ متراً — فى أن تكون أولى مثيلاتها بأوربا .

وفى ناحية الطبيعة ، والكيمياء ، ما زال المركز يدير معمل التركيب الذرى بأفرى حيث يستمر جوليو فى إجراء بحوثه . وكذلك معمل الكهرباء الاستاتيكية ، ومعمل طبيعة المعادن بجرنوبل ومركز دراسة وبحث الكيمياء التطبيقية ، والمعمل المركزى للعلاجات الكيميائية فى فيترى — سير — سين ، ومعمل التحليل العضوى . ويضاف إلى ذلك

هيئة دراسة الجهد الحرارى للبحار ، ومركز الدراسات العليا الميكانيكية ، ومعمل للاحصاء الميكانيكى .

وفيما يختص بالجيولوجيا وعلم المعادن أنشئت لجنة فنية لفحص الثروة المعدنية الفرنسية فحصاً منظما . ولهذه اللجنة عدة مراكز للتحليل الكيميائى ، ولأشعة إكس ، وللنشاط الاشعاعى والتصوير الطيفى spectographique والتصوير الشمسى ومركز لصناعة الصفائح الرقيقة وللصقل .

ولعلوم الحياة معهد نوعى génétique ، ومركزان لدراسة الأوقيانوجرافيا وعلم الحياة فى البحار ، علم الحياة المائية hydrobiologie ، ومركز لفسيولوجية التغذية ، ومركز لربط الدراسات الخاصة بالتغذية ، والخاصة بالغذاء . ويهتم البحث العلمى عظيم الاهتمام بمسألة الغذاء كما يهتم بصحة الشعب . وخصص أحد المراكز للدراسة العلمية للانسان .

ولنكمل إحصاء المؤسسات الموجودة وهى : مركز الدراسات الصحراوية ببنى عباس ، ومركز الدراسات العلمية الصناعية والبحرية بمرسيليا ، ومركز رسم الخرائط ، ومركز تربية الحيوانات فى المعامل ، ومعمل البيومترية البشرية biométrie humaine ، ومركز اجتماعى ، ومعهد بحوث وتاريخ النصوص ، وإدارة للخرائط النباتية . وهناك عمل آخر يبدو أنه فريد فى نوعه ، وهو إدارة جمع الوثائق ، وهى تصدر صحيفة شهرية تحوى تحليلا للعلوم البحتة والعلوم التطبيقية التى تنشر فى الدنيا كلها (ماعدا الكتب) . وتصور أصول المقالات بطريقة « التصوير الدقيق » microphotographie ويمكن كل باحث الحصول على نسخة بثمن معقول . وأولئك الذين يضيعون وقتاً طويلا فى المكتبات باحثين عن بعض الوثائق سيقدرون أعظم التقدير تلك التسهيلات الجديدة التى توجد بفرنسا منذ بضعة شهور .

وهذا الاحصاء لا يمثل إلا المجهود الحالى فى حيز ميزانية ضئيلة جداً . ولربما دهش المرء لما يبدو من بعد بين تلك الأعمال ، ولكن هذا البعد شاهد على نهج قد يؤدى إلى خير النتائج بحالته المتواضعة الراهنة . والمركز لا يسعى إلى إقامة الجديد من المنشآت ولكنه يفضل استخدام الموجود منها فعلا ، فيغير من صورته ويزيد عليه ، وذلك بالتقريب ما كان يدعو مونتانى Montaigne بطريقة « الترقيد الكرمى » . فبدلا من انتظار الاعتمادات وبدلا من استخدام المهندسين المعاريين لبناء معاهد نموذجية ترى القوم يستقرون حيث يتاح لهم ذلك ويزيدون ما كان موجودا . وتلك حال روسكوف حيث أعارت الجامعة للمركز مكانا فى معمل علم الحياة البحرية . وهذا لا يمنع من تحقيق أوسع المشروعات كذلك المركز الذى سيقام للبحوث البحتة بجيف قرب باريس حيث اشتريت أرض مساحتها ٦٤ هكتارا (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) وستبنى عليها مدينة عظيمة تغمرها الحدائق وتشمل معامل مختلفة وخاصة معامل علم الحياة . ومن المقترح كذلك إنشاء معهد لعلم البصريات الالكترونية optique électronique وإنشاء باخرة للدراسة الأوقيانوغرافية . ومشروعات المركز عديدة وهى سجل طويل لن ينتهى :

وهذه الرغبة فى القوة ، هذه الرغبة التى تجاهد لا لتسخير البشر وإنما لتسخير الطبيعة ، فى بلد بأ كمله ، إنما هى دليل على أننا ندخل فى عصر جديد ، لو أسميناه العصر الذرى لكان ذلك تسمية له بإحدى نتائجه التى تسترعى الأنظار وإخفاء لصفته الأساسية ، ألا وهى وضع العلم بكل صورة فى خدمة البشرية .

ولخير من ذلك أن ندعوه « العصر العلمى » بشرط أن نعطى هذه الكلمة القديمة ــ التى قالها أوجست كونت ــ معناها التام الكامل. وستكون تلك الطرق صدمة لكثير من النفوس الحساسة. فلن يتم غزو العلوم البشرية بالوسائل التى نجحت نجاحا باهراً فى العلوم المادية لو خشينا مايصبو إليه العلم المنظم. ورغم ذلك فان علماء المركز العلمى يؤكدون أنهم لايريدون شراً بالبحث الحر، وأنهم مستمرون فى تأييده. والعقود التى أمضيت بينهم وبين بعض الهيئات الصناعية الخاصة هى الدليل على أنهم يحترمون الأوضاع الاجتماعية الموجودة. ولكن اهتمامهم الكلى يتجه إلى ذلك النوع من العلم المنظم تحت إدارة واحدة، وقد أقاموه وانتظروا منه خير النتائج. وهى تجربة عجيبة تستحق أن تجرب فى فرنسا، ذلك البلد الذى لم يتردد فيه العقل أبدا عن أن يحطم التقاليد بأبادة المقاومات العاطفية. ومن المؤكد أن الوقت لم يحن بعد للحكم على هذا العمل الضخم « للمركز العلمى ». ولكنه لو وجد عونا فى السياسة فسيكون قادراً على تغيير وجه هذه البلاد وعلى إعطاء العالم صورة لثورة جديدة.

دنيه سوده

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

شهرية السياسة الدولية

كان السياسة العالمية فى شهر نوفبر مظهران متمايزان أحدهما مألوف قد شهده الناس منذ انتهت الحرب العالمية الأخيرة ، وهو هذا الصراع المتصل بين المنتصرين حول بسط السلطان والنفوذ . فالذى يشهده الناس من هذا الصراع هو بعينه الذى كانوا يشهدونه فى الأشهر الماضية ، بل فى العام الماضى أيضاً ، سواء اختلفت موضوعاته وأشكاله أم لم تختلف. فروسيا مثلا مصرة على أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط ، وسبيلها إلى ذلك هو الاشتراك فى حماية المضايق . والبريطانيون والأمريكيون يشفقون من هذا الاتصال ويؤيدون تركيا التى تريد أن تحافظ على استقلالها وتأبى أن يشترك الروس معها فى حماية هذه المضايق .

وليست هذه المسألة جديدة ، فعهدنا بها بعيد ، ولكن الحديث فيها لاينقضى ، وروسيا تسلك إلى حلها طرقاً مختلفة ، تلين حيناً وتشتد حيناً ، ترسل المذكرات إلى تركيا مرة وإلى مؤيديها مرة أخرى ، بحيث صح مايقال من أن روسيا تثير بهذه المشكلة حرب أعصاب مرهقة . والمهم هو أن هذه المشكلة لم تتقدم ولم تتأخر ، فما زالت روسيا تصر ، ومازال الآخرون يرفضون ، ومازالت الصحف ورسائل البرق تفيض فى هذا الرفض ، وذلك الاصرار .

وروسيا من ناحيه أخرى تهاجم بوسائلها المعروفة فى الراديو والصحف وفى الاجتماعات الدولية العامة كمؤتمر الصلح وهيئة الأمم المتحدة ، سياسة البريطانيين والأمريكيين التى ترمى إلى التوسع فى بسط النفوذ فى الشرق الأوسط ، والتى ترمى إلى التكتل حول الرأسمالية فى غرب اوربا . والبريطانيون والأمريكيون يهاجمون السياسة الروسية بوسائلهم المعروفة لأنها فيما يرون تلقى الستار الحديدى على جزء من أوربا فى الشرق والجنوب والوسط ، وتجرى من وراء هذا الستار ألواناً من الأحداث ، يصفها البريطانيون والأمريكيون بأنها اعتداء على استقلال الأمم وازدراء لحرية الشعوب ، ويرى الروسيون أنها تحرير للأمم وتحقيق للحرية التى ينبغى أن يستمتع بها الانسان فى هذا العصر الحديث الذى يجب أن يكون عصر الحق والعدل والمساواة .

والعالم يشهد هذا الصراع الكلامى ضيقا به غير مستوثق من نتائجه ، مقدراً أن هذه الدول الكبرى تختصم فيما بينها بالكلام وألوان الاعلان ، لأنها لاتستطيع أكثر من ذلك الآن ، وهى فى أثناء ذلك تصلح من أمرها وتتيح لشعوبها أن تضمد ما أصابها من الجراحات فى الحرب الماضية ، وتستعد استعداداً منكراً لمستقبل قريب أو بعيد .

ولكن العالم لا يقف موقف المتفرج الخائف الحذر الساخر فحسب ، وإنما يقف موقف الذى تصيبه آثار هذا الصراع ونتائجه فى حياته اليومية المباشرة . فالعالم منقسم بالفعل إلى مناطق نفوذ ، تسيطر عليها الدول المنتصرة . وهذه المناطق نفسها هى موضوع النزاع وميدان الصراع ، فمن الطبيعى أن تتأثر مصالحها المباشرة بما يكون بين المنتصرين من تنافس وخصام .

ويكفى أن تنظر إلى المشكلة اليونانية مثلا ، فكل فرد من أفراد الأمة اليونانية متأثر فى حياته اليومية بهذا الصراع بين الفريقين

المختصمين من المنتصرين . وقد كان بعض الناس يظن أن الاستفتاء اليوناني حول نظام الحكم سيضع حداً للمأساة التي يشقى بها الشعب اليوناني ، فتبين الآن في صراحة وجلاء أن الاستفتاء لم يضع حداً لشيء ، ولعله أن يكون قد بدأ مأساة أشد هولا وترويعاً مما كان يجرى قبل الاستفتاء ، فالحرب الأهلية مازالت دائرة الرحا في بلاد اليونان وهى تزداد عنفاً من يوم إلى يوم . وكان الروس يطالبون في الدورة السابقة لهيئة الأمم المتحدة بجلاء البريطانيين عن بلاد اليونان ، ومازال الجنود البريطانيون مقيمين فيها إلى أجل لا سبيل إلى تحديده بعد . ونحن نسمع الآن أن الحكومة اليونانية القائمة تريد أن تشكو إلى هيئة الأمم المتحدة من جيرانها الذين يؤلبون عليها ويمدون الثورة فيها بما تحتاج إليه من قوة ، وهؤلاء الجيران هم اليوغسلافيون والبلغاريون والألبانيون ، وهم كلهم خاضعون للنفوذ الروسى . ومعنى ذلك أن الشعب اليوناني العظيم الذي أبلى في الحرب بلاءه الرائع وكان خليقاً أن يظفر من المنتصرين بالعناية والرعاية والعطف ، يشقى الآن بما يقوم بين المنتصرين من اختلاف شقاء يعرض أبناءه للفقر والجوع والموت في كثير من الأحيان .

والقصة الايرانية ليست خيرا من القصة اليونانية ، فلم تكد إيران تفرغ من الخصومة بينها وبين روسيا وتستريح من مشكلة أذربيجان حتى ثارت الخصومة بينها وبين الانجليز ، ونشأت الاضطرابات والثورات في جنوبها بعد أن لم تكد تهدأ في شمالها . ووقفت إيران هذا الموقف المؤلم الذي لا تجد فيه راحة ولا أمنا لأنها لا تستطيع أن ترضى الروس والانجليز معا .

وحديث الشرق العربي أوضح وأبشع من أن نحتاج إلى ذكره فضلا عن الاطالة فيه . وهذا الصراع نفسه بين المنتصرين يعرض الشعب التركى لشر عظيم فهو مضطر إلى أن يظل في حالة خوف وحذر واستعداد للطوارئ وإبقاء للجيش على أهبة الحرب ، وذلك يكلفه من المال أكثر مما يطيق . ويقال إن الميزانية التركية لم تبلغ قط من التضخم ما بلغته هذا العام ، والفرد التركى هو الذي يمد الدولة بما تحتاج إليه من مال ، وهو يقتطع هذا من نفقات حياته اليومية .

فهذا المظهر المألوف من مظاهر السياسة العالمية ليس من شأنه أن يرضى الشعوب أو يردها إلى الثقة والأمن والاستقرار . ومهما يكن هذا المظهر مألوفاً فان استمرار البلاء واتصال المحن لا يغير من طبيعتها .

أما المظهر الثانى لهذه السياسة العالمية فقد مر به الناس مسرعين إلى حد ما ، مع أنه قد يكون أشد خطرا وأبعد أثرا في السياسة الدولية مما يظنون . وهو على كل حال سيزيد المظهر الأول قوة . وسيضاعف ما في الصراع بين المنتصرين من عنف . فقد حدثت في شهر نوفمبر أحداث ثلاثة لها خطرها حقا .

الأول : نجاح الجمهوريين في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان الديمقراطيون يصارعون روسيا صراعا شديدا عنيفا مع أنهم حزب التقدم والميل القليل إلى الناحية اليسارية ، فكيف بالجمهوريين الذين هم أصحاب اليمين في الولايات المتحدة والمحافظون أشد المحافظة على تقاليد الاقتصاد الرأسمالي ، وعلى تقاليد التشدد في السياسة الخارجية ، وعلى تقاليد إقامة المنفعة المادية وحدها أساسا للحكم وأساسا للعلاقات السياسية الخارجية ! ليس من شك في أن انتصار الجمهوريين سيزيد الولايات المتحدة عنادا في موقفها من روسيا ، وإصرارا على ما أظهرت من التشدد إلى الآن .

الثانى : انتصار الشيوعيين في الانتخابات الفرنسية . وما ينبغى أن نسرف في تقدير

الفوز الذى ظفر به الشيوعيون فى هذه الانتخابات ، فهم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من الحكم وحدهم . ولو قد ظفروا بها لتغيرت سياسة العالم تغيرا أساسيا خطيرا ، بل هم لم يظفروا بالكثرة التى تمكنهم من أن يحكموا مؤتلفين مع الاشتراكيين . ولو قد ظفروا بها لكان من الممكن أن تتجه فرنسا وأوربا الغربية معها اتجاها مقلقا إن لم يكن مزعجا .

ولكنهم مع ذلك قد ظفروا بكثرة تجعل حزبهم أكبر الأحزاب الفرنسية أعواما متصلة ، ويتيح لهم أن يطالبوا برياسة الحكومة ، وتمكنهم كذلك من أن يحولوا بين فرنسا وبين الاتجاه المسرف نحو اليمين ، وتمكنهم من أن يفرضوا على الحكومة الفرنسية المضى فى الاصلاح الاجتماعى إلى أبعد مما مضى الفرنسيون منذ تم تحرير فرنسا .

فما أحدثه انتصار الجمهوريين فى أمريكا من اندفاع نحو اليمين ، يلطفه ويخفف من حدته انتصار الشيوعيين فى فرنسا ، ويمكن أن يقال إن ما تخسره روسيا بانتصار اليمين فى أمريكا البعيدة يعوضه عليها انتصار الشمال فى فرنسا .

فأما الدولة التى قد خسرت من هذين الانتخابين جميعا فهى بريطانيا العظمى ، وهى قد خسرت دون تعويض . ذلك أن الحكومة القائمة فى بريطانيا العظمى ليست محافظة يمكن أن تعتز بانتصار المحافظين الشيوعيين فى فرنسا ، وانما هى اشتراكية ، تخاف المحافظين أشد الخوف ، وتبغض الشيوعيين أشد البغض . فانتصار أولئك وهؤلاء يضعف من مركزها فى العالم كله وفى أوربا الغربية بنوع خاص ، بل هو يضعف من مركزها فى بريطانيا العظمى نفسها ، فسيعتز المحافظون البريطانيون بانتصار المحافظين الأمريكيين ، وستقتضى ظروف الحياة نفسها أن يصبح التعاون بين المحافظين على ساحلى المحيط الأطلنطيق ضرورة محتومة لحماية المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية نفسها .

وأكبر الظن أن وقتا طويلا لن يمضى قبل أن يشترك المحافظون البريطانيون فى الحكم على نحو ما . ذلك إذا لم تقتض الظروف حل مجلس العموم ليعيد الشعب البريطانى نظره فى مركزه من السياسة العالمية ومن الاقتصاد العالمى .

على أن حزب العمال البريطانى قد رمى بصدمة عنيفة حقاً من الناحية النظرية ، أوقل إن شئت من ناحية مبادئه وآرائه وقدرتها على الثبات فضلا عن الانتشار . وهذه الهزيمة تأتيه من الانتخابين جميعا . ففى فرنسا ينهزم الاشتراكيون انهزاما خطيراً ، وتزول بهذا الانهزام فكرة الكتلة الغربية التى كان الاشتراكيون البريطانيون يحلمون بتأليفها بين الأحزاب الاشتراكية فى غرب اوربا . وانتصار المحافظين فى أمريكا يحرج مركز الاشتراكيين البريطانيين فى بريطانيا وفى الخارج ، ويدفع هذا الحزب إلى إحدى اثنتين : فاما أن يتطرف إلى الشمال فيضحى ببغضه للشيوعيين ، وإما أن ينحاز إلى اليمين فيضحى بأساسه الاشتراكى نفسه . ونتيجة هذا كله أن الاشتراكية البريطانية ، بل الاشتراكية العالمية ، قد أصبحت الآن متأخرة بالقياس إلى التطور العالمى ، وستظل وقتا طويلا أو قصيراً مظهراً للقصد والاعتدال بعد ان كانت إلى وقت قريب جداً مظهر التطرف والغلو .

أما الحدث الثالث الذى حدث فى شهر نوفمبر وكان حدوثه صدمة ثالثة للاشتراكية البريطانية ، فهو هذه الثورة أو إن شئت فقل هذا التمرد الذى اندفع إليه عدد غير قليل من

النواب العمال فى مجلس العموم . وقد لاحظ الناس أن الحكومة البريطانية اهتمت لهذا التمرد ، فأرادت أن تطرح الثقة ، وأن حزب العمال اهتم له فأراد أن يعاقب المتمردين ، وأن المحافظين البريطانيين اهتموا له فأيدوا حكومة العمال عند الاقتراع . وقد مرت هذه العاصفة دون ان تسقط الوزارة البريطانية . فظن الناس أنها مرت بسلام ، والواقع أنها بعيدة عن هذا كل البعد . فهى قد أحدثت صدعا خطيراً في حزب العمال ، وأثبتت أولا أن فريقاً من هذا الحزب يضيقون بالسياسة الخارجية التى تناهض اليسارية الروسية ، وأثبتت ثانياً أن فى هذا الحزب فريقاً يخافون على المبادئ الاشتراكية نفسها أن تفقد قيمتها وقوتها بالانحياز أو التحبب إلى المحافظين ، وأثبت آخر الأمر أن الحزب الاشتراكى البريطانى ليس من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى المحافظين تحدياً صريحاً متصلا ، وليس من القوة بحيث يستطيع أن يفرض النظام الدقيق على أعضائه فيضطرهم إلى أن يذعنوا لما تقرره الحكومة والهيئة الادارية . والحزب الاشتراكى البريطانى لايملك ولا يريد أن يملك من وسائل النظام والمحافظة عليه ما يملكه الحزب الشيوعى من جهة والحزب المحافظ من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نثق بأن هذا التمرد ليس إلا أول الغيث ، وبأن الحزب الاشتراكى قد يضطر فى وقت قريب أو بعيد بحكم الظروف الداخلية والخارجية جميعاً إلى أن يشترك مع المحافظين فى الحكم أو ينزل لهم عنه كارها .

أما أثر هذا فى الحياة العالمية الآن فضئيل جداً لايكاد يحسب له حساب . ولكن الشاعر العربى لم يخطىء حين قال :

إن الأمور دقيقها مما يهيج له العظيم

ط حسين

شهرية المسرح

بدا الموسم المسرحى فى القاهرة بمسرحيتين مصريتين فى دار الأوبرا الملكية واثنتين من الأوبريت فى مسرح حديقة الأزبكية

الأرملة الطروب (١)

استهلت نادية دوتى موسمها بأوبريت « الأرملة الطروب » التى وضع موسيقاها فرانز ليهار . ولست أرى مايدعو إلى تلخيص قصة المسرحية فقد رآها الجمهور المصرى فى السنوات الأخيرة على الشاشة البيضاء واستمع إليها من محطة الاذاعة مرات عدة .

أما أداء الأوبريت فجاء ركيكا مبتذلا ، لعدم توافر العناصر الأساسية التى يرتكز عليها هذا النوع من المسرحيات . فالمناظر التى اختارتها الفرقة بالية عتيقة ليس فيها ما كنا ننتظره من جمال وأناقة ورونق النظر ، فالحجرة التى مثل فيها الفصل الأول وهى حجرة فى مفوضية مرسوفيا ، لاتصلح أن تكون فى منزل أسرة متواضعة ، وحديقة الفصل الثانى ليس لها أى جمال أو رونق . وأخيراً منظر محل مكسيم حيث الجدران والأثاث لا تصلح حتى لمقهى متواضع . وما من شك أن الفرقة لم تختر هذه المناظر البالية إلا مضطرة ؛ إذ ليس فى مسرح حديقة الأزبكية — وهو مسرح حكومى — أى منظر صالح للعمل ، ولم يهتم المشرفون عليه بتجديد أدواته وأثاثه حتى أصبح هذا المسرح أسوأ دعاية لمصر أمام الفرق الأجنبية التى تمثل فيه والجمهور الأجنبى الذى يرتاده .

ومن العناصر المهمة فى الأوبريت الاستعراضات الراقصة والملابس . فالراقصات ، إذا استثنينا الأخوات شاسينى ، لم يكن يرقصن بل كن يأتين بحركات تنقصها الرشاقة والانسجام . وخاصة فى « باليه » الفصل الأول إذ كان عدم انسجام الحركات بين الراقصات واضحاً جلياً . ولم تكن ملابس الراقصات أنيقة ذات ذوق مترف ، وملابس الرجال فى الفصل الأول لم تكن ملائمة للشخصيات التى يمثلونها .

أما التمثيل والغناء فلم يكن مرضيا ؛ لأن الممثلين أباحوا لأنفسهم أن يجعلوا من أوبريت « الأرملة الطروب » ملهاة مبتذلة بإيماءاتهم أو بالنكات التى أضافوها على نص المسرحية . وكانت نادية دوتى ، وهى الوحيدة التى لها صوت يصلح للتمثيل الغنائى ، تمثل شخصية ميسيا الأرملة . ولربما وجدت سبيلها إلى النجاح لو أنها لم تبتذل فى إيماءاتها ونكاتها . وقد أبدت رشاقة فائقة فى رقصاتها وحركاتها . غير أن فى اللهجة الأمريكية التى اتخذتها فى تمثيلها شيئاً من التكلف . وقام ليون فيرلى بدور الأمير دانيلو ، وهو شاب مرح لا عمل له إلا مغازلة الغوانى . ولست أدرى لماذا كان مسيو ليون فيرلى مقطب الجبين عبوساً حتى فى المواقف المرحة : أيرجع هذا إلى أن

---

(١) *La Veuve Joyeuse*. Livret de Victor Léon et Léo Stein. Musique de Franz Lehar.

صوته في الغناء لم يكن يتعدى الصفوف الأولى في الصالة ؟

وخلاصة القول أن « الأرملة الطروب » التي افتتحت بها فرقة الأوبريت موسمها التمثيلي الغنائي لم تلق نجاحا عند الجمهور ، فالقصة تافهة وكان أداء الفرقة ضعيفاً بحيث لا يستر تفاهة القصة .

سوزان العفيفة[1]

قصة مرحة لا تخلو من مواقف طريفة ونكات مستملحة قدمتها الفرقة على مسرح دار الأوبرا الملكية ، فجاءت مناظرها جميلة أنيقة ، على خلاف ما كانت عليه تلك المناظر على مسرح حديقة الأزبكية .

وسوزان العفيفة امرأة ريفيــة ، ظفرت بجائزة الفضيلة لما تظهره من أخلاق حميــدة ونشاط في ميدان البر والاحسان . ولــكن هذه المرأة حياة أخرى يجهلها زوجها ويجهلها الذين منحوها تلك الجائزة ، فان لها عشيقا اسمه بوالوريت يريد أن يتزوج من قريبتــه جاكلين . ويعارض البارون ديزوبريه والد جاكلين في هذا الزواج ؛ لأن لبوالوريت مغامرات عدة ، فهو يحيا حياة لهو لا يرضاها ، فيسأله الشاب هل يرضى به زوجاً لابنته لو أنه بلغته في إحدى محلات اللهو ، فيعد الأب بذلك . وينتهي الفصــل الأول بخروج جاكلين مع عشيقها ، والبارون ، وابنه هوبير دون أن يعلم كل منهم بأن الآخر قد غادر المنزل .

وتزاح الستار في الفصل الثاني عن مرقص مولان روج حيث شــغل كل فرد من هذه الأسرة حجرة خاصة في الملهى منفرداً يلهو دون أن يعلم بأمر الآخرين ولــكن الحوادث تجمعهم جميعا ، وحينئذ يبر والد الفتاة بوعده للشاب العاشق .

وما الفصل الثالث إلا خاتمة للفصلين الأول والثاني . ففي الصباح التالي يعلن البارون خطبة ابنته إلى بوالوريت . وتعود سوزان التي أثارت فضيحــة كبرى في مرقص مولان روج مع ابن البارون إلى زوجها بعــد أن أقنعته أنها لم تذهب إلى هذا المرقص إلا لبث روح الفضيلة بين الغانيات !

وليس للقصة أية قيمة أدبية أو اجتماعية ، ولــكنها ملهاة حافلة بالمواقف الظريفة والنكات اللبقة ، والأغاني المرحة واستعراضات راقصة مستحبة ، وقد أحسن الممثلون في أداء أدوارهم ، وخاصة نادية دوتي التي قامت بدور سوزان ، فأظهرت لباقة وإتقاناً ورشاقة نالت بها إعجاب جمهور النظارة ، ولو أنها غالت في المواقف المضحكة في حركاتها وفي نكاتها . وقد وفق ليون فرلي أيضاً في تمثيل دور هوبير ، الشاب الذي لم يمارس حياة اللهو والمجون ، فمل حياة الزهد وارتمى في أحضان سوزان دون أن يكون له بالنساء خبرة .

وأدى الممثلون الآخرون أدوارهم في توفيق إلا أنهم جميعا يعتقدون أن الأوبريت ما هي إلا مهزلة تبيح للممثل أن يلجأ إلى التهريج أحياناً . وهم في ذلك مخطئون لأن الأوبريت تستنــد إلى شيء من الفن في التمثيــل والغناء والأداء الموسيقي . وهذه العناصر لم تــكن مكتملة في حفلة الفرقة الفرنسيــة .

---

(١) *La Chaste Suzanne.* Livret d'Antony Mars et Maurice Desvallières. Musique de Jean Gilbert.

عفريت مراتي لسليمان نجيب بك

هذه مسرحية اخرى يضيفها الأستاذ سليمان نجيب بك إلى مسرحياته المقتبسة وينجح فيها نجاحا كبيراً . فالحوار فى فصول المسرحية الثلاثة لذيذ ممتع ، إذ فيه فكاهات ظريفة مضحكة .

والقصة لاتخلو من مفاجآت سارة ومواقف هزلية . وقد أظهر الأستاذ سليمان نجيب إتقانا فى ربط حوادث الملهاة وفناً فائقاً فى إضحاك الجمهور وتسليته . وقد يعد حضرة الأستاذ ثانى اثنين عملا على إحياء فن الكوميديا فى مصر بمسرحياتهما المؤلفة أو المقتبسة ، والأول هو الأستاذ نجيب الريحانى . وهما بنشاطهما فى عالم المسرح يمهدان السبيل لنشأة الملهاة المصرية الخالصة .

عفريت مراتى هو عفريت زوجة توفيق بك الذى فقد زوجته أمينة منذ سبع سنوات فتزوج بفتاة أخرى تدعى سنية . يبتدىء الفصل الأول فى المنزل الهادىء بين الزوجين حيث يقيم توفيق وامرأته سهرة استدعيا إليها أحد محضرى الارواح . وفى الظلام تبتدىء جلسة التحضير ويتصل الحاضرون بعالم الأرواح فعلا . ولكن توفيق يتملكه الخوف ويقف الجلسة وينصرف المدعوون . وحينما يخلو الزوج وزوجته نرى روح أمينة الزوجة الأولى تدخل القاعة وتلاحق زوجها أينما سار وتلح عليه ليخلو بها ، وتتمادى فى إلحاحها حتى تغضبه ، فيرميها بألفاظ جارحة تعتقد الزوجة الثانية أنها موجهة إليها لأنها لا ترى شبح أمينة ، فتغضب من زوجها وتنصرف .

وفى الفصل الثانى لايزال شبح أمينة يواصل الإقامة فى المنزل وقد ساءت العلاقات بين الزوجين ، إذ تحققت سنية من وجود شبح أمينة تغار منه لأنه يستأثر بزوجها . ويدبر شبح أمينة مؤامرة لقتل زوجها حتى تفوز به فى « الرفيق الأعلى » كما تقول . ولكن سنية تذهب ضحية هذه المؤامرة .

وفى الفصل الثالث نرى توفيق يحاول بمساعدة محضر الأرواح طرد شبح أمينة ، ولكنه لايخفق فحسب بل يحضر شبح سنية ويصبح توفيق بين شبحى زوجيه . وأخيراً بعد جهد كبير ينصرف الروحان ، فيعزم توفيق على السفر ويهم بالانصراف هو أيضاً ، فاذا بروحى الزوجين يعبثان فى ستائر المنزل وأوانيه وصوره لكى يثبتا وجودهما معه على الدوام .

وكنا نود أن يكون إخراج مثل هذه القصة المليئة بالمواقف الشائقة أكثر إتقانا مما كان عليه ، وأن يتغلب المخرج على المصاعب التى نتجت من وجود الأشباح مثلا . فأحيانا كان الشبح يبدو أخضر يميل إلى الصفرة ، ويبدو أحيانا أخرى أزرق صافى الزرقة . ولم ينجم هذا التغير فى الألوان إلا لأن الضوء لم يكن يتابع الشبح تماما فى تنقلاته ، وكثيراً ما كان يترك الشبح ويشع على جدران الحجرة فيصبغها بلونه الأصفر . ومسرحية هذه حوادثها تتطلب حركة مستمرة إلا أن بعض المناظر ظلت جامدة لا حراك فيها ولا حياة .

وقد قام الأستاذ سليمان نجيب بك بدور توفيق ، فبدا طبيعياً للغاية . ومن يعرف الأستاذ سليمان فى حياته الخاصة لايجد تغييراً فى لهجته وحركاته وهو على المسرح . فأداؤه لهذا الدور لم يكن فيه تكلف ولا تصنع ، وقد دل على أنه يتقن فن الكوميديا ويلم به إلماما واسعاً .

وقام بدور شبح أمينة السيدة زوزو

حمدى الحكيم . فكان النجاح حليفها فى هذا الدور ، لأنها ملأت المسرحية حياة وأظهرت رشاقة وخفة فى الحركات تناسب الشخصية التى تمثلها فظفرت بإعجاب النظارة وتقديرهم .

ومثلت السيدة إحسان شريف دور سنية . ومن رأى إحسان فى تمثيلها عهد فيها ممثلة بارعة . ولكن خانها التوفيق فى هذه المرة فبدت مضطربة حيناً وتعثرت فى إلقائها حيناً آخر . وقد يعود هذا الاضطراب وهذا التعثر إلى أنها تؤدى هذا الدور لأول مرة أمام الجمهور .

إن للممثل البارع فى فن تسلية الجمهور وإضحاكه لا يلتجىء عادة إلى المغالاة فى إشاراته . فالتزامه الاعتدال فى التعبير وخاصة إذا كان دوره مضحكا يمده بالمادة الهزلية الكافية . ومن يحاول غير ذلك يقع فى تهريج مبتذل . فكنا نحب للأستاذ فؤاد شفيق أن يقتصد فى حركاته وهو يؤدى دور محضر الأرواح ، وأن يعدل عن أسلوبه فى الأداء الذى يبتعد به كل البعد عن فن الكوميديا الرفيع .

ولا يسعنا أخيراً إلا أن نحمد للفرقة المصرية هذا المجهود بالرغم مما شابه من هنات ، وأن نقول إن مسرحية « عفريت مراتى » قد ظفرت بنجاح كبير .

رشدى كامل

حواء الخالدة للأستاذ محمود تيمور بك

افتتحت الفرقة المصرية موسمها التمثيلى هذا العام على مألوف عادتها بدار الأوبرا الملكية . وكانت رواية الافتتاح مسرحية للأستاذ محمود بك تيمور أسماها « حواء الخالدة » . والأستاذ تيمور فى عالم القصة والأقصوصة من ذوى الشهرة ونباهة الذكر . وإنه ليسرنا أن نراه يساهم فى حركة التأليف المسرحى ، كما يسرنا أن يجتذب المسرح إليه الكثير من أدبائنا الذين لا يزالون على ترفعهم عنه واعتزالهم الكتابة له .

وقد اختار الأستاذ تيمور لمسرحيته بطلا من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية . وقد بلغ من شهرته — على كثرة ما ظهر بعده من الأبطال المغاوير فى الاسلام — أن ظل أفشاهم ذكراً فى كل زمان ، وأجراهم إسماً على كل لسان ، ولا سيما فى مصر حيث وضعت قصته المشهورة التى امتزج فيها التاريخ بالأسطورة . وظاهر أننا نعنى بهذا البطل عنترة بن شداد . ومعلوم أن أباه كان من أشراف العرب ، وأمه من الاماء حبشية ، وعنها سرى إلى لونه السواد .

وما دمنا قد عرفنا أن بطل المسرحية عنترة ، فلم يبق أدنى خفاء فى أن بطلتها عبلة . فما يذكر الناس عنترة الفارس ، إلا ذكروا معه عنترة العاشق . فقد عاش عنترة للحب كما عاش للحرب ، بل كان لا ينفك ذاكراً لحبيبته متمثلا خيالها حتى فى حومة القتال ، ومعترك الطعن والنزال . وإذا جاز لنا التشكك فى معظم أخباره ، فما يجوز ذلك فى مأثور أشعاره ، وكلها شاهد على ما قدمناه .

ولقد أدار مؤلفنا الأستاذ محمود تيمور بك روايته على ما كان من حب بين عنترة وعبلة ، وأورد من أخبار عنترة بلاءه فى الحروب ، واشتغاله أثناء السلم بصيد الأسود . ولكنه إلى ذلك أراد أن ينهج بالمسرحية منهج المحدثين من المؤلفين الأوربيين ، فينظر إلى

الأساطير الخالية والتواريخ القديمة على ضوء جديد يتفق وطريقة ابناء اليوم فى النظر إلى الأشياء .

فماذا تهيأ لمؤلفنا من الأخذ بهذه الطريقة ؟

لقد عرض لنا عنترة كما نعرفه فارساً مغواراً ، ولكنه ساذج ، ساذج جداً ، وقد بلغ من سذاجته فى الفصل الأول من روايته أن نزل بكلمة من عبلة عن صاحب غيرته ومأثور أنفته . ثم ظهر من سلطان عبلة عليه أن أسرع — تلبية لها — فأتى على لحيته . ولا تنزل الستار على الفصل الأول حتى نتبين أن بطل القصة فى الواقع هو عبلة لا عنترة .

فاذا كان الفصل الثانى استأثرت عبلة بالمسرح وباهتمام النظارة . فهى امرأة قوية تلهو بالرجال ، ولا هم لها إلا الشعور بسلطانها عليهم ، ولا شئ تشفق منه إلا أن تجرح فى عزتها وتفجع فى غرورها بفتنتها .

وتتوالى مشاهد الرواية ، فنرى عنترة عائداً من فارس وقد زالت عنه سذاجته وزادت بالنساء خبرته ، فاذا هو فاتر أو على الأقل يتظاهر بالفتور من ناحية عبلة . فيجن لذلك جنون هذه المرأة ، لا حرصاً على عنترة الفارس وهو من قرابتها وحامى قبيلتها ، ولا على عنترة الشاعر الملهم الولهان الذى سارت بشعره فيها الركبان . كلا ! بل اعتزازاً منها أن يخرج رجل أيا كان عن طاعتها .

وتعمد عبلة إلى الحيلة تتقوى بها ، فتستعين على عنترة بقلب عنترة ، فلا تزال تستحي فيه ذكريات حبها حتى تغلب على الرجل طبيعته المحبة ، فيقبل عليها بكليته كسابق عادته . فهل تحمد له عبلة ذلك فيستقيم أمرها معه وينصلح الحال ؟ كلا ! بل هى تمضى للزواج بغير عنترة ، بعدأن تم لها ما ارادت من تثبيت الحجة على دوام تعلقه بها وعجزه عن سلوها .

فما بقى للمسكين عنترة ؟ لقد كان أكبر الظن عندالحاضرين أنه خسر المعركة . ولكن لا ! فقد بقى معه سيفه ، وبقى معه ما أفاده من درسه . فهذا هو يتعرض لركب خطيبها ويأخذها أسيرة أخذ العزيز المقتدر .

وبهذه العبرة تنتهى القصة .

ولعله من حق القارئ علينا ان نورد مايتوجه إلى مسرحية الأستاذ محمود بك تيمور من مراجعة فى نقطتين : الأولى أن عنوان « حواء الخالدة » الذى اختاره المؤلف لمسرحيته ، يوهم أن جنس النساء لا يعدو ما صوره . والناقدون لا يحسبونهن جميعاً كذلك ، وإنما ذاك نمط من أنماط ، وقد يغلب على وسط دون سائر الأوساط . والثانية أنه — مع عدم الاعتراض على تحليل أبطال التواريخ والأساطير على هذه الطريقة المحدثة الطريفة — لا يرى الناقدون مندوحة من أن يكون البطل القديم مظنة للتفسير الجديد ، وأن يكون بين الشخصيتين موضع مشاركة . ولا يظن الناقدون الحال هنا كذلك .

وعلى كل حال فان هاتين الملاحظتين — إذا صحتا — لا تتجاوزان الشكل . وأما صميم الرواية فلا يفقد من قيمته ولا من طرافته شيئاً .

وما من شك عندنا فى أن إخراج الرواية وتمثيلها قد أعانا على تقريب فهمها وإبراز كنهها . ولعل فى نجاحها ما يدعو إلى معالجة إخراج بعض ماذاعت شهرته وراجت بضاعته فى المسارح الاوربية من الروايات الحديثة الطريفة التى هى أكثر توجها بالخطاب إلى الفكر منها إلى العاطفة .

عبد الرحمن صدقى

من كتب الشرق والغرب

كتاب « مؤسس الإسماعيلية فيما يقولون » (١)

منذ ظهر عبيد الله المهدى على مسرح السياسة ببلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وأسس الدولة التى عرفت فى التاريخ باسم الدولة الفاطمية ، والناس مختلفون فى نسبه ، وأكثروا من الحديث عن ذلك ، ووضعوا الكتب حول نسبه ، بل صدرت نشرات رسمية من قبل العباسيين وعليها خطوط العلماء والفقهاء والنقباء فى معنى أن هؤلاء الذين يحكمون باسم الفاطميين لا يمتون إلى فاطمة الزهراء بصلة ، وأنهم أدعياء وأن نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح الديصانى الملحد ؛ وبجانب هؤلاء الذين طعنوا فى نسب الفاطميين نجد الدعوة الفاطمية الاسماعيلية تنتشر فى جميع أنحاء البلاد الاسلامية ويعتنقها عدد كبير من العلماء، بل اتخذها بعض ملوك البويهيين وأمراء اليمن والعرب دينا لهم واعتقدوا اعتقاداً رسخ فى أذهانهم أن الفاطميين من نسل فاطمة البتول .

وورث المحدثون هذا الخلاف بين المنكرين والمؤيدين لنسب الفاطميين، فنرى كتباً لاتزال تصدر فى نسب الفاطميين، واهتم به المستشرقون خاصة بسبب ما أذيع ونشر أخيراً عن عقائد الاسماعيلية التى كانت سرا لا يقربه إلا خاصة من اعتنق دعوتهم. فأصبحت الآن هذه العقائد فى كتب متداولة يطلع عليها من يشاء متى شاء .

ولعل أكثر العلماء المحدثين اهتماما بدراسة الاسماعيلية هو الأستاذ المستشرق الروسى و . ايڤانوف ؛ فقد نشر أكثر من سبعة وعشرين بحثا عن طائفة الاسماعيلية تناول فيها تاريخها وعقائدها . وهذا الكتاب الذى نحن بصدده هو آخر ما أنتجه ، حاول فيه أن يكشف القناع عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون الذى ينسب إليه بعض العلماء تأسيس الدعوة الاسماعيلية ، وأنه جد الخلفاء الفاطميين .

تتبع المؤلف تاريخ الرواية القائلة بأن القداح هو رأس أسرة خلفاء الفاطميين ، فوجد أن أول القائلين بها هو أبو عبد الله محمد بن رزام الطائى فى كتاب له ألفه فى القرن الرابع للهجرة . وقد فقد هذا الكتاب ، ولكن ابن النديم صاحب الفهرست نقل عنه . ويظهر أن ابن النديم لم يكن واثقاً تمام الثقة بما حكاه صاحبه؛ ولذلك قال: «وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه » . ثم جاء أخو محسن أبو الحسين محمد بن الشريف الدمشقى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فوضع كتابا فى الرد على الاسماعيلية ذهب فيه إلى أن الفاطميين أدعياء ، وتوالت بعد ذلك كتب المؤرخين وأصحاب الفرق ، ونحا أكثرهم إلى أن الفاطميين ليسوا من نسل النبى صلى الله عليه وسلم . وقد لاحظ ايڤانوف أن هؤلاء

(١) The Alleged Founder of Ismailism للأستاذ و . ايفانوف . نشرته الجمعية الاسلامية ببمباى سنة ١٩٤٦ ، طبعه Thacker & Co. .

للمؤرخين اختلفوا فى حديثهم عن نسب الفاطميين وعن مؤسس دعوتهم، فكان المتأخر منهم يضيف شيئاً جديداً من عنده لم يذكره المتقدمون، حتى كملت قصة القداح واتخذت هذا المظهر الذى نراه عند المتأخرين. ولعل التعصب المذهبي كان من أهم أسباب اختلاق هذه الروايات المختلفة عن نسب الفاطميين وعقائدهم؛ حتى إن رجال الشيعة الاثنى عشرية قاوموا الدعوة الاسماعيلية قبل ظهور عبيد الله المهدى؛ فقد ألف فارس بن حاتم بن ماهويه القزوينى المتوفى سنة ٢١٩ هـ كتاباً فى الرد على الاسماعيلية، ووضع محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب النعمانى المتوفى سنة ٢٧١ هـ رداً آخر، وكتب محمد بن موسى الكاتب المتوفى سنة ٢٨٣هـ رداً ثالثا، وهكذا قاوم الاثنى عشرية الدعوة الاسماعيلية وهى لاتزال فى مهدها. ولكن من الحق علينا أن نقول إن الاثنى عشرية لم يعرضوا لمؤسس الدعوة أو لنسبه، إنما كانوا يعملون لاثبات الامامة لموسى الكاظم بعد أبيه جعفر الصادق ونفيها عن اسماعيل بن جعفر، فكأنهم كانوا يعترفون أن مؤسس الدعوة الاسماعيلية وإمامها هو إسماعيل وأبناؤه من بعده.

وبالرغم من أن الفاطميين انتصروا سياسياً واسسوا لهم ملكا واسع الارجاء ونافسوا العباسيين منافسة كان لها خطرها، بل استطاع الفاطميون أن يمتلكوا بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ، بالرغم من ذلك كله فان الفاطميين لم يصدروا وثيقة واحدة تدحض نشرات العباسيين فى مسألة نسبهم. وقد علل ايفانوف ذلك بأن الفاطميين كانوا يعتقدون بالستر على الأئمة المستورين، ومن المحرم عندهم أن يذكروا أسماء هؤلاء المستورين. قد يكون هذا الرأى مقبولا، وعقيدة الستر على الأئمة المستورين ليست من عقائد الفاطميين فحسب، بل قال بها الاثنى عشرية أيضاً حتى إنهم لا ينطقون باسم الامام الثانى عشر الذى اختبأ فى السرداب بسامرا وقالوا «لا يسميه باسمه إلا كافر». ومع ذلك فانى أرى دعاة المذهب الفاطمى وحججه لم يخشوا بأسا من ذكر أسماء هؤلاء المستورين؛ فأحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى حجة العراقيين المتوفى سنة ٤١٢ هـ ذكر فى الباب السادس والعشرين من كتابه «تنبيه الهادى والمستهدى» أسماء الأئمة المستورين وسلسل الأئمة حتى إمام زمانه الحاكم بأمر الله. ويحدثنا المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى حجة المستنصر فى سيرته أنه بنى مشهداً فى الأهواز ونقش على محرابه أسماء الأئمة من اسماعيل بن جعفر حتى المستنصر بالله الفاطمى. وكذلك أجد فى كتب دعاة اليمن حديثاً عن هؤلاء الأئمة؛ فالراعى ابراهيم الحامدى ذكرهم فى كتابه «كنز الولد» وهكذا، ويعلل أستاذنا الدكتور طه حسين بك صمت الفاطميين عن نشرات العباسيين بأن الفاطميين أجادوا فن السياسة وسياسة الجدل على وجه الخصوص، فلم يمكنوا أعداءهم العباسيين من الحصول على وثائق رسمية منهم بها ذكر نسبهم أيا كان هذا النسب؛ حتى إن العباسيين كرروا إصدار نشراتهم فلم يقابلها الفاطميون إلا بالصمت.

عرض الأستاذ ايفانوف لتاريخ عبد الله ابن ميمون القداح وأبيه. واتجه إلى كتب الحديث وطبقات المحدثين يستعين بها، فبحث فى كتب الشيعة الاثنى عشرية وكتب أهل السنة، فوجد فى هذه الكتب كلها ذكرا لميمون القداح الكوفى المخزومى، وتجمع هذه الكتب على انه كان تقيا ورعا متقشفا، وكذلك قالت عن ابنه عبد الله بن ميمون، وأن كل الأحاديث التى تروى عن طريقهما إما عن الصلاة او عن المأكل والمشرب والملبس، وأنهما كانا على صلة وثيقة بالامامين

الباقر والصادق ، حتى لقب كل منهما بمولى الامام . على أن كتب أهل السنة ترفض الأحاديث التي تروى عن طريق ميمون القداح لأنه ضعيف الحديث ، ولكن لم يذكر مصدر واحد من هذه المصادر أن ميمونا أو ولده كان ملحداً منكراً للأديان .

وناقش ايفانوف معنى القداح ؛ فالقدماء يذهبون إلى أنه قادح العيون ، فخالفهم وذهب إلى أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان موكلا بالأواني الحجرية الكبيرة التي كانت لمواليه الباقر والصادق . وليس عندنا من النصوص التاريخية مايثبت هذا الرأى أو ينفيه ، وسيظل فرض ايفانوف قائماً إلى أن تظهر حقيقته . وكذلك بحث المؤلف قصة كنية القداح ، فقد كناه القدماء بأبي شاكر ، فذهب إلى أن هذه الكنية لم تذكر فى كتب المحدثين ولم يذكرها ابن رزام أول من قال إن عبد الله ابن ميمون هو مؤسس الاسماعيلية ، ورجح أن أول من أسند هذه الكنية للقداح هو ابن شداد الحميرى المتوفى سنة ٥٠٩ ه على ماروا ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٦ ه ورد إيفانوف على ابن شداد بأن الموالى لم يكن لهم أن يتكنوا فى القرنين الأول والثانى من الهجرة . ولكن كتب الطبقات على اختلافها وكتب التراجم لاتؤيد رأى إيفانوف ؛ فقد حفظت لنا هذه الكتب كنى عدد كبير من الموالى ؛ فالشاعر بشار بن برد وكان معاصراً للقداح كان يكنى بأبى معاذ ، والشاعر الحسن بن هانئ كنى بأبى نواس ، وصاحب دعوة العباسيين كنى بأبى مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، والدراوردى المحدث كان يكنى بأبى محمد . وقد يطول بى الأمر لو أتيت على كنى جميع الموالى الذين كانوا فى القرنين الأول والثانى من الهجرة .

وناقش إيفانوف قول أعداء الفاطميين بأن عبد الله بن ميمون القداح كان ديصانيا وثنيا ، وبين الخلط الذى وقع فيه القدماء بأن توهموا أن الديصانية وثنية أو مجوسية ؛ إذ أن الديصانية هى إحدى فرق الغنوسطية المسيحية ، نشأت فى الرها على يد ابن ديصان المتوفى سنة ٢٢٢ م . وانتشرت فى الجزيرة وفارس وتركستان وخراسان واستمرت مدة طويلة حتى عصر ابن النديم ، فهى فرقة من الفرق المسيحية وليست كمجوسية مزدك أو وثنية العرب . وقد كان لهذه الفرقة أثرها فى الفرق الاسلامية التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . ولكن ليس هناك مايثبت صلة ميمون القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون بالديصانية ، وإذا فرض أنهما كانا ديصانيين أى مسيحيين قبل إسلامهما فلم يذكر رجال المحدثين شيئاً عن انحرافهما عن الاسلام أو عدم إخلاصهما للامامين الباقر والصادق . أضف إلى ذلك أننا نجد فى كتب الاسماعيلية الأولى ردا على بعض عقائد الديصانية ، وأن بارديصان قد زج به مع زعماء الزنادقة .

وفى فصل ممتع من فصول هذا الكتاب عرض الأستاذ ايفانوف للفرق الشيعية التى ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ ه ، وهى الفرق التى ذهب القدماء إلى أن للقداح صلة بها . وقد يكون هذا اللون من البحث من أشق البحوث العلمية وأدقها ؛ فكتب الفرق الاسلامية قد خلطت بين الفرق ولم تستطع تمييز كل فرقة تمييزاً دقيقاً من ناحية التاريخ والعقائد ؛ فهناك بعض فرق تتشابه فى العقائد وتختلف فى الأسماء ، وهناك فرق أخرى ذكرت أسماؤها دون عقائدها ، وبعض مؤرخى الفرق نسبوا إلى فرق ماهى بريئة منه . ويخيل إلى أن مؤرخى الفرق لعبوا دورا كبيراً فى وضع عقائد بعض الفرق وتاريخها دون الرجوع إلى أسانيد تاريخية . ثم إن التشيع فى القرن الثالث

للهجرة كان فى محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلا فى تاريخهم ، فأبناء الصادق كانوا بين مشرد ومسجون ، وكل من اتهم بالتشيع كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى ، ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون فيه ويتبادلون الدرس والرأى فتفرقوا ، واتخذوا التقية على أنفسهم ، واتصلوا بأهل السنة ودرسوا مذاهبهم ، بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين الشيعى والسنى ولاسيما فى رواية الحديث ، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة بهم تعرف بها خصائص مذهبهم . ثم جاءت القرون المتعاقبة ، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم ، ومن هنا كان البحث عن الفرق الاسلامية التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة من أشق البحوث وأدقها . ومع ذلك فقد أدلى الأستاذ ايڤانوف دلوه فى هذا البحث ، فناقش ماقيل عن فرقة الميمونية ولا سيما قول ابن رزام « إن ميمونا تنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التى أظهرت اتباع أبى الخطاب محمد ابن أبى زينب الذى دعا إلى ألوهية على بن أبى طالب» إلى أن قال : «وكان ميمون وابنه ديصانيين ، وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة» . ناقش ايڤانوف هذا النص وانتهى إلى أن هذه القصة موضوعة ، وناقش كل ما ذكره أصحاب كتب الفرق عن الميمونية وسخر بقول ابن رزام فقال : « من الجائز أن مؤرخا كان قد سمع بوجود فرقة إلحادية عرفت بالميمونية وعرفت أخيراً بالخطابية فبحث عن شخص اسمه ميمون ممن كانوا يتصلون بالامام الصادق ليسند إليه رياسة هذه الفرقة فلم يجد سوى ميمون القداح التقى الورع ، وأن هذا الشخص الذى اخترع قصة نسب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح لابد أن يجعله زنديقاً ملحدا فقال إنه من نسل ديصان وأنه ادعى النبوة » . ومن الطريف أن الأستاذ المستشرق دى جويه ناقش نص ابن رزام أيضاً وانتهى إلى رفضه.

وقد وقف الأستاذ ايڤانوف عند فرقة المباركية والميمونية وقفة طويلة ، ورجح أن ميمونا الذى تنسب إليه الميمونية هو نفسه عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مستنداً على نص عثر عليه فى كتاب عيون الأخبار للداعى ادريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وهى رسالة أرسلها المعز لدين الله الفاطمى إلى داعى دعاته باقليم السند ، ينكر فيها المعز أنه من نسل ميمون القداح ، ويثبت أنه من نسل عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الذى كان يسمى نفسه أحيانا على سبيل التقية « ميمون النقيبة » . أما المباركية فقد رجح أنها نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق الذى كان يلقب بالمبارك ، مستدلا على نص فى كتاب « سلم النجاة » الذى ينسب لأبى يعقوب السجزى (وكان فى النصف الثانى من القرن الثالث) : « إن المبارك عليه السلام سادس أئمة دور محمد ، والامام السادس هو اسماعيل بن جعفر» . هذا مارجحه الأستاذ ايڤانوف عن الميمونية والمباركية. ولكنى أقف بدورى أسائل الأستاذ إيڤانوف كيف وثق برواية الداعى إدريس وهو متأخر (فى القرن التاسع للهجرة) على حين لم تذكر هذه الرواية فى أى كتاب من كتب الدعوة ، وكيف لم تذكر فى كتب القاضى النعمان وكان جليس المعز وصفيه وقاضيه ، مع أن القاضى النعمان روى فى كتابه « المجالس والمسايرات » فى الجزء الخامس ما نصه : « وقد وصل المعز خطاب من أحد الدعاة ، وكان فيما رأيت فى هذا الكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم ، ثم جعل (المعز) يتعجب من هذا القول.» إلى أن قال : «فكيف ينبغى أن

ينقطع القول فيه بأن قد صار إلى بعيدين كالذين ذكرهم هذا من ميمون القداح وغيره» . وقد ذكرت أن بعض علماء الدعوة قد عرضوا لذكر الأئمة المستورين ، ولكنى لم أجد فى كتبهم أن عبد الله بن محمد بن اسماعيل قد لقب بميمون التقية بل لقبه جميعهم بعبد الله الرضى ، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن خصوم الفاطميين قالوا إن عبد الله ابن ميمون القداح ادعى أنه عبد الله بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر . فكأن الأستاذ ايفانوف يوافق خصوم الفاطميين فى هذه الدعوى دون أن يشعر . هذه كلها مسائل تحتاج إلى جهود أخرى نرجو أن يبذلها الأستاذ إيڤانوف للكشف عنها وتحقيقها وهو قدير على ذلك .

وقارن الأستاذ إيڤانوف بين عقائد الخطابية وعقائد الفاطميين بعد أن بحث عن الخطابية بحثاً تاريخياً ، فكان موفقاً كل التوفيق فى آرائه وبحثه .

أما الفصل الذى كتبه عن « البنوة الروحية » والذى رد فيه على ماذكره الاستاذ العلامة لويس ماسينيون فى مقاله عن سلمان الفارسى ، فقد حاول الاستاذ إيڤانوف أن يجعل من قول النبى عن سلمان « سلمان من أهل البيت » تكريماً لسلمان ، وأن كل ما جاء على هذا النحو فهو من قبيل التكريم فحسب ، بخلاف ماذهب إليه ماسينيون بأن الفاطميين كانوا يقولون بالبنوة الروحية والدينية . فلعل الاستاذ إيڤانوف يعود إلى قراءة ما جاء فى المجلس السابع عشر من المائة الأولى من المجالس المؤيدية وفيه حديث طويل عن « الولادة النفسانية » و « الأبوة الدينية » وتأويل قول الله تعالى « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فقد ذهب المؤيد فى الدين إلى أن النبى (ص) أبو المؤمنين نفسانياً ودينياً . كما نجد فى رسائل إخوان الصفا عدة نصوص فى مواضع متفرقة عن الأبوة الروحية ، وأن المعلم أبو التلميذ نفسانيا إلى غير ذلك من الآراء والبراهين التى تؤيد راى الأستاذ لويس ماسينيون . ولعل الأستاذ إيڤانوف يغير هذا الرأى بعد أن يعيد قراءة النصوص التى أشرت إليها .

وليس لى بعد أن قرأت هذا الكتاب القيم إلا أن أشكر الأستاذ إيڤانوف وأهنئه تهنئة صادقة على هذا المجهود الذى بذله للكشف عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وأشكره خاصة لهديته القيمة التى كانت متعة لى عدة أيام .

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب

من وراء البحار

هل يعيش الأديب من أدبه ؟

أرادت مجلة هورايزن أن تستطلع رأى طائفة من الأدباء الانجليز فى أحوالهم المعيشية وهل يستطيع الأديب أن يعيش بأدبه ، فوجهت إليهم بعض الأسئلة ونشرت آراء بعضهم فى عدد سبتمبر .

سألتهم المجلة : ما مقدار المال الذى يستطيع الأديب أن يعيش به ؟ وهل يستطيع الأديب الجاد أن يحصل على هذا المقدار بكتاباته ؟ وكيف ؟ وإذا كان ذلك غير مستطاع فما هو العمل الآخر المناسب له ؟ وهل تظن أن الأدب يتأثر بتوجيه مجهود الأديب إلى عمل آخر أم أنه يزيد خصبا ؟ وهل يظن أن من واجب الدولة أو أية هيئة أخرى أن تساعد الأديب ؟ وهل هو قانع بالطريقة التى حل بها هذه المشكلة ؟ وهل لديه نصيحة معينة يقدمها للشبان الذين يريدون كسب قوتهم بالأدب ؟

ووصلت إلى المجلة إجابات من عدة من الأدباء البارزين أكثرهم من الشعراء . أما الروائيون فالعدد الذى أجاب منهم على هذه الأسئلة كان قليلا .

ويرى الكاتب بتجمان أن الأديب لا يختلف عن غيره فى مقدار ما يحتاج إليه من مال . وهو يرى أن الأديب وهو فى حاجة إلى المشروبات الروحية والسجائر والاختلاف إلى السينما والمسارح وإلى طعام فوق المستوى المعروف فى المطاعم البريطانية ، لا يستطيع المعيشة على أدبه من النثر إلا إذا ثبت مركزه وصار معروفاً . أما الشاعر فلا يستطيع العيش بشعره ولو كان مشهوراً . ويفضل هذا الكاتب أن يشغل عمل ناظر محطة ريفية فرعية ، وهو لا يدرى أيؤثر مثل هذا العمل فى أدبه ، وهو لا ينشد مساعدة من الدولة ، كما أنه غير راض عن حالته الآن . ولكنه يرى أن الذى ولد للأدب لا يسعه إلا أن يكون أديباً . وربما كانت تجارب اليوم على مرارتها فيها نفع لمستقبله .

وترى القصصية البارزة اليزابث أوين أنها تود لو كان إيرادها الصافى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه فى السنة . وفى رأيها أن الأديب بما له من كتب نشرها فى الماضى ولا يزال يعاد طبعها ، وبما يخرجه بانتظام من كتب ، يستطيع أن يحصل على ثلثى هذا المبلغ وهو فى الستين من عمره أو الخامسة والستين ، إذا كان اسمه لا يزال معروفا . وخير عمل يمتهنه الأديب إذا كان رجلا هو الطب أو العمارة أو القانون ، أما النساء فلا يستطعن الجمع بين عملين ، لا سيما أن تبعاتهن المنزلية تستغرق منهن وقتاً طويلا . والعمل الثانى يزيد فى نشاط الأديب إذ يعاشر غير زملائه . ولكن فى العمل الآخر خطراً هو أنه لا يحصر ذهنه عند الكتابة فى الأدب . وهى لا تعرف كيف تساعد الدولة الأديب ، وإن كان من واجبها أن تساعده بعض الشئ فى حالة العجز والمرض . وعلى الشبان الذين يقبلون على الأدب أن يعملوا له غير منتظرين منه فى بادئ الأمر ربحاً كبيراً .

ويقول الأديب الشاعر ألكس كمفارت إنه شخصياً يعيش على إيراد من جهات مختلفة يبلغ نحو خمسمائة جنيه فى السنة ، وله زوجة تنتظر طفلا . وهو لا يظن أن الأديب يستطيع

أن يعيش بالأدب وحده ، وهو الآن يدبر أكثر ماله من الأدب ، ولكن الناشئين لا يستطيعون ذلك . وهو لا يعطف على القصص التي تروى عن شترتون ورامبو وتؤدي بالأديب إلى أن يعيش في غرفة حقيرة ، أو يعيش على أصدقائه من غير الأدباء . فليس لرجال الفن ميزة على غيرهم ، ولعل الفن هو أكثر أنواع النشاط الانساني توقفا على الشعور بمسئولية نحو الناس . وهو يرى أن يتخذ الأدباء البحث العلمي مهنة لهم ، وفي رأيه أن يبتعد الأديب عن الدولة ونفوذها ، وهو راض كل الرضا عن معيشته . ونصيحته أن يكون الأديب إنسانا يقاوم الخنوع والطاعة ، وأن يعمل كأي إنسان ، ويحتقر التملق والمشاركة في العمل الأدبي .

ويرى الأديب سيريل كونولي ، وهو رئيس تحرير المجلة نفسها ، أنه إذا كان للأديب أن تمتع بشيء من الراحة والمتعة الشخصية ويتزوج ويشترى الكتب ويجوب البلاد ويأدب لأصدقائه ، فانه في حاجة إلى خمسة جنيهات يومياً على الأقل . أما إذا أراد أن تقتله العلل لمجرد صفة الأديب فليعش على أقل من ذلك .

وهو لا يحصل على هذا المال إلا إذا كتب قصة طويلة أو قصيدة أو مسرحية تشتريها هوليوود أو إحدى الجمعيات الأمريكية ، ولكنه يستطيع أن يزيد كثيراً دخله إذا سعى لأن ينشر ما يكتبه في المجلات الأمريكية في الوقت الذي ينشره في كتبه . وخير عمل آخر هو الزواج من امرأة ثرية . ويرى أن للمهنة تؤثر في الأديب ، وأن من واجب الدولة أن تحل محل الأسخياء الذين كانوا يحنون الأديب على ألا تقوم مساعدتها على نتيجة عمله ، فتساعد الناشئين ، وتضاعف الاعانة لأرامل الأدباء ، وأن تكون علامات الشرف التي تمنح للأديب مصحوبة بنفحة من المال . وهو غير راض عن موارده ، وينصح الشبان بألا يمتهنوا الأدب إلا إذا وجدوا ذلك أمراً لابد منه ، واستطاعوا أن ينظروا إلى سعادة الذين هم في خدمة الدولة واستقرارهم وتنعمهم بغير الشعور بالموجدة والحسد . وإن لم يفعلوا فيكون مثلهم مثل الأمريكي الذي أراد أن يكون شاعراً وانتهى رجلا يمتهن سبع مهن .

ويرى داي لويس الأديب والشاعر أن خير مركز للكاتب أن يكون ذا إيراد خاص صغير ، كي لا يشجعه على الكسل واعتبار الكتابة هواية ، وكبير ، بحيث يبعد عنه مشاغل الفقر ومتاعبه . وليكن بين مائة وخمسين جنيهاً وثلاثمائة جنيه في السنة . فاذا لم يكن لديه هذا الايراد فليقبل على الكتابة العادية للصحف والمجلات أو يتخذ مهنة أخرى وميزة العمل الأول أنه متصل بعمله كأديب . وميزة المهنة أنه يستطيع أن يتعرف هل خلق للأدب . فاذا لم يكن قد خلق له برز اهتمامه بالمهنة الأخرى وإقباله عليها . ويحسن أن تكون المهنة الأخرى فيها اتصال بالناس إذا كان روائيا ، كالطب والقانون أو التجارة المتنقلة . أما إذا كان شاعراً فليكن التوظف أو التعليم أو الجندية أو العمل في منجم حيث الاتصال بالزملاء أعمق وأبعد أثراً . ولا مانع من مساعدة الدولة ، على أن تكون المساعدة من هيئة غير سياسية كمجلس الفنون مثلا . ولا يجب أن تمهد الحياة للأديب فان نضاله في الحياة هو الذي يشحذ من عزيمته .

وفي إجابة روبرت جريفز الشاعر والأديب والذي كان في إحدى السنوات أستاذاً للأدب الانجليزي بجامعة فؤاد الاول ، أنه لا مانع من العمل في مهنة أخرى لاسيما للروائي ما دام لم يرث أو لم يتزوج مبكراً ؛ فقد كان فيلدنج من قضاة الشرطة ، وترولوب موظفاً بمصلحة البريد ، وأمثالهم كثيرون في الوقت الحاضر .

ويستطيع المؤرخ الأديب أن يشغل عملا فى الوسط الجامعى بحيث يتصل بالمكتبات وبالزملاء على ألا يشغل وقته بالتدريس . أما الشعر فهو حالة أكثر منه مهنة ، والشاعر فى حاجة لأن يكون سيد نفسه ، وذلك لايحتاج لنفقة كبيرة ، وقد حل و. هـ. داڤيز هذا المشكل بأن صار متشرداً . وهو يرى أن فى مساعدة الدولة خطرا ، فالذين يستأجرون الزامر يختارون عادة الألحان .

وهو لا يريد أن يتخذ نفسه مثالا فى حياته ، ويرى أن كل شخص يجب أن يحل مشكلة دخله بطريقته الخاصة . وكثيراً ما يبتدئ الكتاب بالشعر ، وينتهون إلى الصحافة العادية . وهو عند ما ترك خدمة الجيش بعد الحرب العالمية الأولى أقسم لنفسه أن ينقطع للشعر وبر بقسمه حتى الآن ، والمهنة الوحيدة التى قبلها لبضعة أشهر كانت أستاذ الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة . وكان فيها سيد نفسه ، ولا يعطى غير محاضرة واحدة فى الأسبوع ، واستقال بمجرد قيام مصاعب بينه وبين زملائه من الفرنسيين والبلجيكيين وكان ذلك منذ عشرين سنة . وعاش بعد ذلك بكتابة تواريخ الحياة والقصص التاريخية ، وهى أعمال تتفق مع الشعر .

ويحتاج روبن إيرونسايد وهو ناقد فنى للتصوير إلى مبلغ خمسة عشر جنيها فى الأسبوع وهو مبلغ لم يصل إليه ، ويظن انه لن يصل إليه ، وبسبب فاقته لم يزر اليونان ولا أمريكا مع أن مثل هذه الزيارة لناقد فى الفنون الجميلة ضرورية جداً . وهو لم يحل مشكلة المهنة الأخرى حلا مرضياً فهو يعمل فى متحف تيت للفنون ، ولكنه مثقل بالعمل الادارى بحيث لا يجد فراغا للدراسة ، ولو كان له دخل قدره خمسة جنيهات فى الأسبوع ، أو لديه رأس مال قدره ألف جنيه ، لترك هذا العمل غير آسف ، يدفعه أمل غير محقق بأن يكتسب بالنقد الفنى من المال ما يساعده على أن يكون أديباً ناقداً . وإذ كان لايجد العيش بالنقد الفنى ميسوراً فهو لايستطيع نصح الشبان فى هذا الموضوع .

أما روبرت كى وهو أديب برز فى هذه الأيام ، فان عنده ان الكاتب قلما يحصل على أربعمائة جنيه فى السنة من الأدب وهو المبلغ الذى يراه مناسباً لمعيشته ، ولذلك فهو يقبل على العمل الصحفى أو على وظيفة . وهذه الأعمال تضر بمواهبه ، ولكن بما أن عمل الأديب متصل بالألفاظ ، فلتكن المهنة التى يتخذها متصلة باللفظ .

وإذ كانت المهنة الأخرى تعطل عمله كأديب فهو يرى معالجة هذه الحال بأن يدفع الناشرون أكثر مما يدفعونه الآن للأدباء ، فان العلاقة بينهما الآن غير معقولة ، مثلها مثل الرجل الذى يتناول نفقات جيبه من خادمه . ومع ذلك لو دفع الناشرون أجراً مناسبا لما انتفع من ذلك الأديب المقل ، أو الذى لاتجد آراؤه من عصره قبولا . وإذن على الدولة أن تدفع مبلغاً سنوياً قدره أربعمائة جنيه لمن يريد أن يكون أديباً . وهذه المنحة تتجدد كل سنة . ويظن هذا المبلغ ضئيلا بحيث لا يغرى به المحتالين .

وفى رأى لورى لى أن الأديب فى حاجة إلى الوقت أكثر منه إلى أى شئ آخر . ولذلك كانت حياة الأديب قديما فى اعتماده على سيد كريم خيرا من حياته الآن .

وترى روز ماكولى أن خير حل هو فى أن يقدم الناشرون مبلغا من المال على حقوق الطبع يكون نحو ثلاثمائة جنيه . وهم لا يقدمون الآن غير خمسة وسبعين أو مائة جنيه .

وعند جورج أورويل أن الأديب المتزوج فى حاجة إلى عشرة جنيهات فى الأسبوع على الأقل ، وغير المتزوج إلى ستة جنيهات على

الأقل . وخير إيراد للأديب فى هذه الأزمان هو نحو ألف جنيه فى السنة ، وعندئذ يستطيع أن يتخلص من الأعمال الثانوية ويعيش عيشة رغيدة دون أن يبلغ مبلغ الطبقة المترفة . فالأديب لا يستطيع أن يخرج ما عنده إذا كان إيراده معادلا لايراد العمال . وهو يشير بامتهان مهنة كاتب فى مصرف أو ما ماثلها . وكل ما تستطيع الدولة أن تفعله هو توجيه مبلغ أكبر نحو شراء الكتب للمكتبات العامة ، ويرجو أن يزيد اقبال الجمهور على المكتبة . وهو الآن راض عن معيشته وإن كانت حياة الأدباء فى المبدأ تاعسة .

ويذكر الأديب برتشت أن مداتن مرى ذكر فيما قبل الحرب أن الأديب يستطيع أن يكون دخله أربعمائة جنيه سنوياً . وقدر الدس هكسلى هذا الدخل بنحو سبعمائة جنيه . وهذا يعادل فى هذه الأيام من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ جنيه . وقد يستطيع المؤلف الروائى أو المسرحى الناجح جدا أن يكتسب أكثر من ذلك . ولكن الذين يبدأون حياتهم أو الذين هم فى أول سلم النجاح ، لن يحصلوا على مثل هذا المبلغ بكتابة الكتب أو القصص القصيرة أو الأشعار . وحينئذ يجب أن يلجأوا إلى الصحافة والاذاعة والقراءة للناشرين وتولى التحرير فى المجلات أو أن يكون لهم دخل خاص . ولكن يجب ألا يرهقهم هذا العمل ولا يشغل وقتا طويلا . وهو لا يرى أن الدولة تستطيع أن تساعد الأديب . ونصيحته إلى الشباب أن يعود نفسه على عادة الكتابة كل يوم ، كأنه فى مكتب ، فان الوحى يأتى من وراء العمل الشاق لا من السماء .

والكاتب هربرت ريد يقدر أن الأديب يحتاج إلى ألف جنيه فى السنة إذا كان متزوجا وله طفلان أو ثلاثة . ويحب الطعام الجيد وحياة الرخاء فى منزله . ولا يستطيع الحصول على هذا المبلغ إلا إذا كان يبيع ثلاثين ألفا إلى خمسين ألف نسخة من كل كتاب . والأديب الجاد يعمل فى الكتاب نحو سنتين أو ثلاث . والراجح أنه لا يبيع أكثر من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف نسخة . وخير عمل فى رأيه هو أن يعمل فى متحف . أما الأعمال المتصلة بالثقافة والناشرين ، فهى أسوأ أنواع الأعمال الأخرى لأنها لذيذة بحيث قد تتغلب على غرضه الأول . ولعل من الخير له أن يحذو حذو سبينوزا فيحترف صقل العدسات .

وفى رأى الشاعر ستيفن سبندر أن الأديب غير المتزوج يحتاج ما بين خمسمائة وستمائة جنيه فى السنة ، أما المتزوج فيحتاج إلى سبعمائة جنيه إذا كانت الزوجة تطهى طعامها . أما إذا لم تفعل وكان لهما أطفال فهو يحتاج إلى الف جنيه فى السنة وأكثر . وهو يسأل هل يستطيع أحد أن يحصل على هذا الدخل فى هذه الأيام ؟ ويقول فلتجرب ، فانك تجد أن الناشر ليس لديه من الورق ما يطبع به أكثر من خمسة آلاف نسخة ، وهذه لا تكسبه غير مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة وخمسين جنيهاً ومعنى هذا أن يكتب أربعة إلى ستة كتب فى السنة أو يتجه إلى الصحافة . ويقول سبندر إنه عندما يكتب ثلاث مقالات و أربع مقالات فى الأسبوع يصير أولا سريع الغضب ، ثم يصير من الصعب عليه ثانياً أن يقرأ قراءة جدية . وأكثر من ذلك ثالثاً أن يقرأ ما يكتبه ثم تتولاه ، رابعاً كراهية عظيمة لآرائه وطريقة تفكيره وحديثه . ثم يجد نفسه مدفوعاً خامسا إلى الصحافة ويقل إقباله على الشعر .

وخير عمل آخر يمتهنه الأديب عمل فيه اجتناب للتعبير بألفاظ تنزل من مستواه ، وألا تتعب نفسه عقلياً ولا جسديا ، وأن لا يتخذ واجباً يصير لديه أهم من الأدب . وألا يلعب دورا هاماً فى الحياة كأن يصير موظفاً ، أو معلماً ، فان ذلك يقضى على شخصيته الخالقة

وهو يحض الأديب على أن يعود إلى طفولته بأن يتخذ مهنة يتعلم منها شيئاً جديداً وتكون نافعة له فى كتاباته . وخير علاقة مع زملائه هو أن يجعلهم يعتقدون أن به مسا من الجنون ، ولكنه حسن النية .

ويحتاج الشاعر دايلان توماس إلى نقود تكفى لنفقاته بعد مسكنه ، وطعامه ، ودفئه ، وملابسه وتربية أطفاله ، وهو يرى أن هذه الأشياء من واجب الدولة التى ينبغى أن تتولاها . وهو إذن من القائلين بأن الدولة يجب أن تقوم بتدبير أمور الأديب فى الماديات وما يكتسبه بعد ذلك ينفقه فى شؤون الترف .

البلجيك فيما بعد الحرب

ماهو موقف البلجيك الآن ؟ وكيف أخذت تسترد حيويتها بعد أن عادت إلى الحرية ؟ وماهى المصاعب التى تكتنفها ؟ ذلك ما بحثه باحث فى عدد أكتوبر من مجلة « العالم اليوم » الانجليزية التى تظهرها جمعية الشؤون الدولية ، ومن قول هذا الباحث أن كثيراً ما يقال إن البلجيك كانت أسرع من أية دولة أخرى من الدول التى احتلها الألمان إلى استرداد نشاطها . ولا ريب فى أن هذا الرأى له وجاهته ، ولكن الحالة فى البلجيك بوجه عام لا تبعث على الرضا ، ومستقبل البلاد فيما يتعلق بالوجهتين السياسية والاقتصادية غير ثابت ومحفوف بالأخطار .

فقد كان البناء السياسى فى البلجيك قبل الحرب الأخيرة بسيطاً جدا : فى اليمين حزب قوى من الرجال المتدينين هو الحزب الكاثوليكى ، وفى الوسط حزب الأحرار ، وفى اليسار حزب العمال أو الاشتراكيين ، وكان لهذه الأحزاب ١٧٠ من مائتى مقعد فى البرلمان سنة ١٩٣٩ . ويوجد عدا هذه الأحزاب ثلاثة أحزاب أخرى قليلة النفوذ : فى أقصى اليسار الشيوعيون . وفى أقصى اليمين حزبان فاشيان : حزب الفلمنكيين الوطنيين ، وحزب ركس ، وكلاهما كاثوليكى صميم . ولم يتول حزب من هذه الأحزاب الصغيرة الحكم ، بل كان الحكم بين الأحزاب الكبيرة إما لحكومة ائتلافية من حزبين من الأحزاب الكبيرة وإما بائتلاف الأحزاب الثلاثة .

وكان الحزب الكاثوليكى مؤلفاً من خليط كبير من أصحاب الأراضى وأصحاب الصناعات ورجال المال الكاثوليك وأبناء الطبقة الوسطى والعمال الكاثوليك والفلاحين ، وهو منظم بحيث إن الزعامة فيه للمحافظين . وعلى ذلك كان هذا الحزب قبل الحرب محافظاً فى نزعته ، وأدى ذلك إلى ثورة العناصر الديمقراطية فيه واتفاقها مع الاشتراكيين وتأليف حكومة فى سنة ١٩٣٦ أسقطتها مؤامرة دبر مالى أحكم تدبيرها . وفى سنة ١٩٣٦ حدثت مثل هذه الأزمة عند ما ثار الشبان فى هذا الحزب وأنشأوا حزب ركس الفاشى الذى كان يتلقى معونة مالية من إيطاليا . أما الحزب الوطنى الفلمنكى فيعد أقرب إلى الثورة على الكنيسة التى تؤيد بطبيعة الحال الحزب الكاثوليكى .

وكان حزب الأحرار مؤلفا من الطبقة الوسطى ، فهو مؤلف من العناصر غير الكاثوليكية فى عالم الصناعة والمال فضلا عن رجال الطبقة المتوسطة العليا والسفلى وكثيراً من المثقفين . وهو يتألف من جناح أيمن كانوا أشد الأعضاء رجعية فى البرلمان ، ومن جناح أيسر يعمل على التقدم . وكان الجناح الأيمن متغلبا بحيث إن هذا الحزب انقسم أكثر من

مرة إلى الحزب الكاثوليكي في تأليف الحكومة ، ولكنه لم يتحالف قط مع الاشتراكيين إلا عند قيام حكومة ائتلافية من الأحزاب الثلاثة .

وقد عدّل الحزب الاشتراكي من آرائه الثورية وجنح إلى الاعتدال والعمل على التنظيم عند ما صار من جهة العدد الحزب الثاني في البلاد بعد تقرير الانتخاب العام سنة ١٩١٩ . وقد نجح سريعاً في تحقيق برنامجه المبدئي الاجتماعي ، ووجد نفسه في موقف الحزب الذي حقق برنامجه فلم يعد له برنامج .

أما الفلمنكيون الوطنيون فتاريخهم يرجع إلى استقلال البلجيك في سنة ١٨٣٠ . فبلاد البلجيك تتألف من منطقتين ڤالونيا وأهلها يتكلمون الفرنسية ، وفلاندر وأهلها يتكلمون الفلمنكية . وهي لغة قريبة من اللغة الهولندية . والفلمنكيون أكثر عددا من الڤالونيين . ولكن اللغة الفرنسية كانت حتى سنة ١٩١٤ سائدة في المدارس والمحاكم والجيش والادارة ، وقد تغيرت هذه الحال تدريجيا ولكن بعد أن تألف حزب ڤلمنكي وطني اتخذ نظاما فاشيا .

أما حزب ركس الفاشي فقد نشأ من الخوف الذي انتشر قبل الحرب من حركات الشيوعيين ، والفضل في نجاح هذا الحزب وظهوره لزعيمه دجريل ومقدرته الخطابية والاعانات الكبيرة التي أمده بها رجال الصناعة . وكان من أنصاره فضلا عن هؤلاء بعض ضباط الجيش العظام وبعض أعضاء البلاط الملكي .

ثم جاءت الحرب وغزا الألمان البلجيك في ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ وسلم الجيش في ٢٨ مايو وظل الألمان يحتلونها نحو أربع سنوات ونصف سنة أي لغاية سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، وهذه تجربة مر بها البلجيكيون مرتين في عشرين سنة . وهو أمر يجب ألا يعزب عن البال عند ما نريد أن نفهم مسلكهم . ومن الضروري أن نعرف أنه بينما وقف الاحتلال النشاط العادي وقفا تاما ووقف نشاط النقابات لحد كبير ، في ميدان السياسة الاقتصادية والادارية ، فان الحياة العامة ظلت مستمرة دون تغيير كبير . ومن الطبيعي أن مسائل السياسة العامة التي هي من عمل الحكومة ، كانت تسويها السلطات الألمانية ، ومن الطبيعي أيضاً أن البلجيكيين كانوا يهتمون بهذه الأوامر إذا عجزوا عن التهرب منها .

ولقد عاش البلجيكيون تلك السنوات عيشة غريبة ، فقد كانوا من غير زعامة سياسية أو أخلاقية ، فالصحافة والاذاعة في أيدي الألمان وأعوانهم فلم يكن من الممكن تصديقهما . والاذاعة من لندن بوعودها التي لم تحقق ، كان تأثيرها في الشعب بعد التحرير باعثاً على اليأس . ونجح الألمان في أمر واحد هو إذكاء المخاوف من الشيوعيين لدى الكاثوليك ورجال الكنيسة ، مما أوجد حتى في عهد الاحتلال جميات الغرض منها مقاومة الألمان ثم بعد التحرير مقاومة الشيوعيين .

وهنالك مسألة شائكة هي مسألة ملك بلجيكا ، وهذه المسألة لم تكن قائمة في عهد الاحتلال ؛ فان تسليمه للألمان زاد من تعلق الناس به لأنهم كانوا يائسين لما بدا من ضعف الحلفاء . ولكنه فقد حب رعاياه فجأة عند ما تزوج للمرة الثانية ، فقد كان الناس يحبونه ويعطفون عليه بسبب المأساة التي أدت إلى وفاة زوجته الأولى ، وزاد حبهم له عند ما آثر أن يكون أسيراً في بلاده على الالتجاء لانجلترا ، ولكن زواجه أصاب مركزه الاجتماعي بضربة شديدة ولم يعلم إلا القليل من رعاياه أنه زار هتلر .

وتحررت البلاد وعادت الحكومة التي كانت في لندن ثم استقالت ، وتكونت حكومة أخرى تميل إلى اليسار ، ويقال إذ

بريطانيا تدخلت فى تأليفها، ولم تستطع هذه الحكومة أن تظل فى الحكم طويلا. وتولت الحكم وزارة يرأسها ڤان أكر الاشتراكى. وجاءت مسألة عودة الملك من الأسر، وكان ڤان أكر فى مبدأ الأمر يميل إلى السماح للملك بالعودة إلى بلجيكا، ثم غير رأيه فى أثناء المفاوضات. وقام النزاع بين الملك المبعد والوزارة، كل منها يهدد بنشر أسرار عن الآخر، ولكنه لم يفعل. ولا شك فى أن الوقوف على الحقيقة فيما يتعلق بأعمال الملك صعب، فأكبر ما يتهمه به خصومه محاولته الاتفاق مع الأعداء، كحديثه مع هتلر وإرسال برقيات تهنئة أو تعزية لملك إيطاليا وللمرشال بيتان.

على كل حال قرر ڤان أكر رسمياً أن يحول دون عودة الملك، وان يظل أخوه الأمير شارل وصياً على العرش. فأدى هذا القرار إلى استقالة الوزراء من الحزب الكاثوليكي وانضمامهم إلى المعارضة اليسارية وهذا الموقف هو الذى يحول دون سير الحياة السياسية على طبيعتها فى بلجيكا. وعلى ذلك لن تقوم فى بلجيكا حكومة إلا إذا كانت مكونة من ائتلاف بين الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين. ولكن بما أن هذا الائتلاف لا يتمتع إلا بأغلبية ضئيلة فان الحكومة تكون دائما ضعيفة لا تستطيع القيام بتغييرات اقتصادية شاملة.

ولقد حصلت هذه الأحزاب على هذه الأغلبية الضئيلة فى انتخابات فبراير سنة ١٩٤٦ ومما يعقد الموقف السياسى فى البلجيك أن الفلمنك نظموا أنفسهم وهم أغلبية ويزداد تعدادهم دائما فى حين أن الڤالونيين المتكلمين بالفرنسية يقل عددهم مما قلب الأوضاع، بحيث بدأت حركة وطنية من الڤالونيين، مشابهة للحركة التى كانت قائمة بين الفلمنكيين من قبل.

ومع ذلك فان البلجيك تسير سيرا مرضياً من الوجهة الاقتصادية، فليس فيها عطلة، والانتاج والاصدار يزدادان زيادة كبيرة، ووسائل المعيشة أحسن منها فى بلاد أخرى. ولكن الجماهير غير راضية. وقد وقفت الحكومة زيادة أجور العمال بحيث لم تعد كافية.

أما فى السياسة الدولية فلم يعد لبلجيكا سياسة خارجية. وهى تابعة اقتصاديا للولايات المتحدة، وعلى ذلك فهى تابعة لسياستها. والعلاقات بينها وبين فرنسا طبيعية، وعلاقاتها بهولندة غير ودية، فموقفها إذن موقف المنتظر المترقب.

ظهر حديثا

ديكارت تأليف الدكتور عثمان أمين طبعة ثانية مزيدة ومنقحة (مكتبة عيسى البابى الحلبىّ بالقاهرة) .

هذه هى الطبعة الثانية لكتاب الدكتور عثمان أمين الذى ظهرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٩٤٢ . وقد ذكر المؤلف أن الطبعة الأولى نفدت فى بضعة شهور . على أنه لم يكن من المتيسر طبعاً فى ذلك الوقت أن يعيد المؤلف طبع كتابه . وكان مما اهتم له أن عمل على تنقيحه ، فقام ببعض بحوث تكميلية وأجرى تعديلات وزيادات ، فوسع فصل شخصية ديكارت ، وأرجأ باب تأويل الفلسفة الديكارتية إلى ما بعد الفراغ من عرض تلك الفلسفة ، وأضاف فصلا جديداً عن ديكارت والمجتمع ، ووسع باب أثر الفلسفة الديكارتية ، كما أضاف تعليقات وهوامش ومراجع .

فالطبعة من هذه الجهة تكاد تكون بمثابة كتاب جديد . ولا ريب فى أن الاقبال على هذا الكتاب فى طبعته الأولى دل على حاجة شديدة فى العالم العربى إلى المؤلفين الذين يضعون الكتب فى مختلف العلوم والفنون عن دراسة ومعرفة جديرين بثقة القراء . ولا ريب أيضاً فى أن الدكتور عثمان أمين برهن فى هذا الكتاب على أنه من خير الذين يصلحون لتعريف الناس بالفلاسفة ، وبسط آرائهم بأسلوبه السهل الجميل ، وحسن تبويبه لموضوعه كما يتبين فى هذا الكتاب . كما أن هذا الاقبال دل على نماء حب البحث بين جمهور القراء ، إذ أقبلوا على الكتاب الذى يفسر فلسفة شيخ الفلاسفة العقليين .

ولا شك فى أن ديكارت جدير بأن يكون زعيم مدرسة العقليين هذه . وللمذهب العقلى فى الفلسفة غيره فى جوانب أخرى من المعارف ؛ فليس معناه ، كما يتبادر لذهن الباحثين فى الديانات ، أنه يعبر عن جحود للاسرار الدينية يبلغ أحياناً حد الالحاد ، بل قد يكون معناه فى فلسفة ديكارت عكس ذلك أو ما يصل إلى العكس . فهو فى مجمله ، أن العقل يحتوى على عدد من المبادئ الثابتة ، وأننا إذا فكرنا سائرين على هذه المبادئ استطعنا أن نستكشف الحقيقة الكاملة لجميع الأشياء . فكما أن الرياضى يستطيع ان يستنبط جميع قواعد الرياضة باتخاذ بديهية أو بديهتين، كذلك الفيلسوف يستطيع أن يستكشف جميع الحقائق لو سار على هذا المذهب . فكأن العقل إذن ، من غير الاختيار والتجربة ، يستطيع أن يمدنا بالمعرفة الفلسفية وهى المعرفة الصادقة . ولكن هل العالم منظم كالرياضة ؟

لعل ما دفع ديكارت إلى هذه الفكرة أنه كان رياضياً ، وله فى هذا الجانب من المعرفة نظريات قد لا تكون أقل شأناً من نظرياته الفلسفية .

وكل ما نريده من هذا العرض أن نبين أهمية هذا الكتاب ، وأن نقول إنه سد فراغا فى المكتبة العربية .

اللغة اليونانية تأليف الأستاذين أمين سلامة وصمويل كامل عبد السيد (مكتبة النهضة المصرية).

لو أننا ذكرنا أن الحضارة الأوروبية، وهي الحضارة المؤثرة والسائدة الآن في جميع أنحاء العالم، قد بدأت بالاقبال على دراسة اللغة اليونانية وعلى قراءة الكتب التي خلفتها الحضارة اليونانية، وقد نقلت عند ما أطبق الاتراك على بيزنطة إلى إيطاليا وغيرها من بلدان أوربا ـ لو أننا ذكرنا ذلك لما كنا مبالغين، بل بالعكس كنا منتقصين للدور الذي لعبته الحضارة اليونانية في تاريخ العالم منذ ازدهار هذه الحضارة. فما لا ريب فيه أن الحضارة اليونانية كان لها التأثير الأكبر في حضارة روما. بل نستطيع أن نقول إن الحضارة الرومانية في جوانبها الثقافية إن هي إلا تقليد للآثار الفكرية التي خلفها اليونان.

والحضارة الاسلامية التي سيطرت على جزء كبير من العالم في العهد الاسلامي كانت في أزهر عصورها، وصارت أشمل وأكثر إنسانية عند ما أقبلت على مخلفات الفكر اليوناني.

لذلك كان سرورنا كبيراً حقاً عند ما نشر هذا الكتاب عن اللغة اليونانية، وهي اللغة التي يجب ان نقدر أهميتها إذا أردنا ان يكون لنا مجال في عالم الفكر.

وهذا الكتاب إذا كان مفيداً لمن يريد تعلم اللغة اليونانية، فهو مفيد كذلك لأنه أحاط بجميع قواعدها بحيث يصلح للمبتدئ والمتقدم في هذه الدراسة. وهو يشرح هذه القواعد باللغة العربية شرحاً وافياً بأبسط لغة وأحدث طريقة. ولعله كما قال الأستاذ محمد شفيق غبريال بك في مقدمته: «أن يبدأ (المؤلفان) أو من يريد من تلامذتهما في كلية الآداب من حيث انتهيا في هذه الأجرومية دراسة مقارنة لخصائص الأجروميتين العربية واليونانية. تتفق في هذا الكتاب جهود أعضاء قسمي اللغة العربية والدراسات القديمة بتلك الكلية إلتقاء مباركا مثمراً ... ويصبح اللواء الذي رفعه وحده طه حسين عند ما كافح لاثبات حق الدراسات القديمة في كلية الآداب لواء من ألوية الكلية الخفاقة».

هيرودوت في مصر للأستاذ وهيب كامل (دار المعارف بمصر).

قد يصح أن نلقب هيرودوت أبا التاريخ أو لا يصح، وإنما الواقع أن المؤرخ اليوناني هيرودوت، بما في تاريخه من شمول لبلاد كثيرة، وروح قصصية، ومهارة في السرد ومعرفة بالاستفادة من المواقف المؤثرة، هو أجدر المؤرخين اليونانيين بهذا اللقب، على أنه لا يعرف بأنه أقدمهم وإنما يعرف بأنه شيخهم.

وهذا الكتاب ينقله اليوم الأستاذ وهيب كامل إلى اللغة العربية هو الجزء الخاص بمصر من كتابه في التاريخ، فقد زار مصر على الراجح بين ٤٤٨ و ٤٤٥ ق م، كما أشار المؤلف في مقدمته، ومكث فيها نحو ثلاثة أشهر ونصف شهر، قام فيها برحلة من شمال البلاد إلى إلى جنوبها وبجولة في وسط الدلتا وشرقيها، وكان يستقصي أنباء البلاد وتاريخها من افواه

الذين يتابلونه من الأعيان ورجال الدين ، مستعينا على الاتصال بهم بتراجمة ينقلون إليه هذه الأخبار على الغالب مشوبة بكثير من الخرافات والأحاديث السائرة ، فيدونه بلغته الأيونية وأسلوبه البديع فى القصص الجدير بمن كان من مواطنى الكتاب والشعراء الاغريقيين ، حتى لتجدهذا الكتاب قصة من ألذ القصص .

ومن مزايا هيرودوت أنه يعنى بالجانب الجغرافى ويحفظ له مكانه فى التاريخ . وهذا الجانب ، وإن كان على قول الأستاذ وهيب كامل أضعف جانب فيه ، يدل ، بمجرد عنايته به ، على فهم للتاريخ غير فهم أضرابه من المؤرخين له .

وإنا لنرجو فى القريب أن نرى الأستاذ وهيب كامل ، وقد نقل هذا التاريخ بأكمله إلى اللغة العربية ، فيسدى بذلك يداً كبيرة .

حسن محمود

فى مجلات الشرق

حرفة التعليم !

توشك « حرفة التعليم » أن تبلغ فى شهرة ما ينال صاحبها من التعاسة ما بلغت « حرفة الأدب » . فلا نزال نقرأ فى صحف مصر وسوريا والعراق — من شرق البلاد العربية إلى غربها — مقالات بأقلام المعلمين ، أو غير المعلمين ، يرثون فيها للمعلم ، وما يناله من سوء التقدير وقلة الجزاء وضعف المركز المادى فى الحياة الاجتماعية . بل لعل ما نسمع من شكوى حال المعلمين لهذا العهد فى كل بلد عربى أن يوقع فى وهم كل قارئ أن « شؤم الحرفة » قد نال المعلمين بأسوأ مما نال الأدباء من حرفة الأدب .

وهذا مقال للأستاذ خليل هنداوى فى العدد الأخير من مجلة « الأديب » ببيروت يصف فيه حديثاً جرى بينه وبين ولده فى أول مرحلة من مراحل دراسته العالية . قال ولده :

— ومهنتى ماذا تكون بعد أن أرجع « من البعثة » ؟

— أظن أنك تكون أستاذا !

نظر إليه ولده نظرة ملؤها العنف والتوبيخ ، وقال :

— أى شئ — فيك — يحملنى على أن أمتهن هذه المهنة ؟ أقيمتك المادية أم قيمتك المعنوية ولك أكثر من سبعة عشر عاما ، فماذا تركت وراءك ؟ لقد أشقيت نفسك وأشقيتنا ، بعبادتك لهذه المثل العليا الكاذبة التى رحت تؤمن بها . إن التضحية واجبة حين يقدر الناس معناها ، أما التضحية بالحياة والسعادة عند قوم لا يدركون فضلها فما هى إلا جنون . . .

ويمضى الأستاذ خليل هنداوى فى رواية ما كان بينه وبين ولده من حوار حتى ينتهى إلى أن يقول :

« ألا رحم الله ذلك الزمان الذى كنا نعيش فيه أعفة الضمائر ، نكتفى بشرف المهنة دون النظر إلى ما تعطيه من فوائد ؛ ولعن الله هذا الزمان الذى أفسد قلوب الناس فانتقلت القيم وتبدلت المقاييس وماتت البقية الباقية من صلاح موروث . . . »

ليت شعرى : أجرى هذا الحوار بين الأستاذ هنداوى وولده حديث فم إلى فم ، أم نجوى عينين إلى عينين ؟

وهل بلغت « حرفة التعليم » بأصحابها هذا المبلغ من الشؤم حتى حملت الأولاد على أن يجبهوا آباءهم بمثل هذا الرأى ، أم هى مبالغة فى التخيل وأسلوب من أساليب الشكوى ؟

وقد كان صاحب هذه المختارات يوما معلماً ، ونالته هذه الحرفة بشؤمها بضع عشرة سنة ؛ فانه ليستطيع أن يصف عن خبرة مقدار ما يلقاه المعلمون من قلة التقدير المادى والأدبى فى هذا الشرق ؛ والشرق اليوم على أبواب نهضة لا يمكن أن تبلغ أهدافها إلا على كواهل المعلمين . فأى خيبة تنتهى إليها لو شاع مثل هذا القول على ألسنة المعلمين وامتلأت به نفوسهم حتى صار حديثاً بين الأب وبنيه وبين المعلم وتلاميذه ؟

ألا ما أحوجنا اليوم إلى أن نحاول محاولة لتأمين « استقلال المعلمين » على مثال ما صنعنا لتأمين « استقلال القضاة » !

إن العلم هو الذى يبنى الأمة ويصنع لها تاريخها ويحدد لها منزلتها فى الغد ، وإن العدالة هى التى تمنع بناء الحضارة أن يتهدم ؛ فما أحرانا أن نهيئ للبناة من عوامل الاستقرار والأمن بمقدار ما نبذل لتوقى عوامل التهدم ، وما أحرانا أن نوقن بأن الذين يبنون لا ينبغى أن يكونوا أقل حظاً من رعاية الدولة والشعب من الذين يرممون الأبنية المتداعية أو يمنعونها من الانهيار !

شباب الشعر فى العراق

« شاعر الحى لا يطرب ! »

مثل سمعناه فى مصر ، وأحسب له نظائر فى كل بلد عربى وغير عربى !

فهذه صحف العراق لا تكاد تفتح واحدة منها حتى ترى مقالا ينعى فيه كاتبه على شعراء العراق وكتابه تخلفهم وقصور أدواتهم وضعف إنتاجهم بالقياس إلى ما تنتجه سائر البلاد العربية . وتقرأ صحف الشام فلا تكاد ترى واحدة منها خالية من حديث للتنويه بشاعر عراقى ، أو كاتب عراقى . هو « داء الجار » إذن لا غيره ، وهو حكم كل حى على شاعره !

وهذا مقال فى مجلة « الأديب » كذلك بقلم مير بصرى عنوانه « شعر الشباب فى العراق » يتحدث فيه عن « طلائع نهضة شعرية — بالعراق — تبشر بالخير » . والغريب أن كاتب المقال بغدادى ، فكأنه حين تخلص من « داء الجار » لم يجرؤ على أن ينشر رأيه بين « الجيران » فاختار مجلة فى بيروت .

وفى المقال عرض طيب لانتاج طائفة جديرة بالتنويه من شعر الشباب فى بغداد ، للشعراء الشبان : يحيي الدراجى ، وبلند الحيدرى ، ويعقوب بلبول ، وإبراهيم يعقوب عوبديا .

يقول الأستاذ بصرى :

« إن خير نعت لهذه الحركة الشعرية هو أنها وجدانية واقعية رمزية . ومن الجلى أن إطلاق اسم الحركة هنا من قبيل التوسع لا غير ، فليس هناك حركة منظمة ولا مقررة ، بل هى فورة آتية فى نفوس فريق موهوب من الشباب تقارب بينهم أرض واحدة وعصر واحد ، فأوحت إليهم شعراً متوافقاً فى سماته ، متباينا فى أصواته ونغماته . . . »

دفاع مشترك !

ويشغل حديث مجلس الدفاع المشترك من مجلات الشرق مثل ما يشغله من صحف مصر ، وعناية صحف لبنان به أظهر . وليس عجيباً أن تحتفل صحف الشرق بقضية مجلس الدفاع المشترك لا لأنه جزء من قضية مصر ، الشقيقة الكبرى ، فانه فوق ذلك جزء من

قضية كل بلد عربى . أليست الدولة التى اخترعت كلمة « الدفاع المشترك » تريد أن تتخذ هذا الوضع منفذاً تنفذ منه إلى نوع من السيطرة على البلاد التى تجاور مصر ؟ فقضية مجلس الدفاع المشترك إذن هى قضية كل بلد عربى من جيرة مصر ، القريب منها والبعيد ، وقضية كل وطن عربى يحرص على مقومات استقلاله ويأبى أن يكون للاستعمار « مقراً أو ممراً » . فعناية صحف الشرق بهذه القضية هى إذن عناية ذاتية تنبع من رغبة أصيلة فى الاستقلال والحرية الذاتية .

وهذه مجلة « الطريق » اللبنانية تنشر فى صدرها مقالا بقلم رئيف خورى عنوانها « مجلس دفاع مشترك ، أم توريط لنا فى مشاريع حربية عدوانية » يقول فيه :

« إن بلدان هذا الشرق العربى إنما طمحت دائماً إلى تحقيق هذا الاستقلال الذى لا يقيده قيد من وجود جيوش أجنبية على أرض الوطن ، والذى لا يقيده قيد «شرعى» من معاهدة يفرضها الجانب القوى على الجانب المستضعف .

« إن الذى يعنينا — أولا وأخيراً — هو ألا يفرز الاستعمار وتاده فى أرضنا باسم الدفاع المشترك ، وألا يتاح له تجنيدنا وسوقنا إلى حرب اعتدائية لا تلبث فيها بلادنا أن تتحول إلى مسرح حرب مدمرة نكون نحن فيها الخاسرين على كل حال ! »

ولا ينتهى حديث مجلة الطريق عن « الدفاع المشترك» بانتهاء مقال الأستاذ رئيف خورى ، فثمة مقال آخر بقلم وصفى البنى عنوانه « الاسكندرونة فى كفة المساومات من جديد» يتحدث فيه عن موقف بريطانيا منذ سنين وفى هذه الأيام من قضية لواء الاسكندرونة ، ويعرض بعض الأقوال البريطانية فى هذا الشأن ثم يقول :

« إن رائحة المساومة تفوح من هذا الكلام . ولا ريب أن « بعض الأوساط » التى تحاول أن تحشر سوريا ولبنان فى جوف القلعة العسكرية والسياسية التى يجرى العمل لاقامة أسوارها حول الأقطار العربية جميعا لقمع نضالها الوطنى والديمقراطى بقوة الحديد والنار والدسائس باسم « الدفاع المشترك » ، لا ريب أن هذه الأوساط المعروفة الراغبة فى ضم تركيا نهائيا إلى حظيرة الدفاع المشترك هذه تحاول أن تسوى الخلاف السورى التركى بأسلوبها التقليدى ، أسلوب المساومة والمناورة والتهديد بالخطر الأحمر . . . »

اقتصاديات أوربا !

فى العدد ٤٣٦ من مجلة « المكشوف » يروى ضابط بريطانى الوقائع التالية التى تصور ما بلغته اقتصاديات أوربا فى هذه الأيام من التقلقل وعدم الاستقرار الذى ينذر بالشر . والقصة بعد فى غنى عن كل تعليق ، قال الضابط :

« وفدت بمهمة رسمية إلى الدانمارك ، فامتطيت طائرتى وقمت بالرحلة إلى المكان المعين ، وكان معى عشر لفائف تبغ ، قايضت بها أحد المزارعين على دجاجتين حملتهما معى إلى بلجيكا حيث بعتهما لقاء ألف لفافة تبغ . وما لبثت أن تلقيت الأوامر بالذهاب إلى كوبنهاجن حيث أتيح لى أن أشترى جهازاً لاسلكيا جديداً (راديو) بألف سيكارة ؛ وما هى

إلا أيام حتى عدت إلى بروكسل فى مهمة مستعجلة فتخلصت منه بطريقة من الطرق لقاء ٣٦ زجاجة شمبانيا ، فدعوت بعض الرفاق إلى « سكرة » شربنا فيهـا ست زجاجات فقط . . . على نخب مقـدرتى التجارية ، ونجاحى المنقطع النظير فى هذا الحقل ، وعدت إلى لندن فبعت الزجاجة الواحدة من الزجاجات الثلاثين الباقية بأربعة جنيهات لحصل لدى ١٢٠ جنيهاً .

« أرأيت كيف أن عشر لفائف تبغ إذا ما أحسن صاحبها استعمالها والتصرف بها تدخل عليه ١٢٠ ليرة استرلينية ؟ . . . »

قرآن بالأسبانية فى أمريكا

وتروى « المكشوف » أن دار الطباعة العربية فى الأرجنتين أصدرت أخيرا ترجمة أسبانية للقرآن الكريم ، من عمل الأستاذ سيف الدين رحال مدير دار الطباعة ، بمعاونة الدكتور سنتياجو بيرالتا . وتشتمل تلك الترجمة على مقدمات وافية وشروح هامة استنفد إعدادها وقتـا طويلا وجهوداً جبارة .

انهضة أم انحطاط

ويسأل الأستاذ جورج مصروعة فى العدد السادس من مجلة « الفكر » التى تصدر عن دمشق هذا السؤال . فيقول :

« هل نحن فى عصر نهضة أدبية أم فى عصر انحطاط وخمول ؟

« هل نشهد فى دنيا الفكر والقلم استعداداً للانطلاق والتحليق ، أم انحداراً ينذر بالركود والجمود ؟ »

ثم يصف ما تقدمه المطبعة العربية لقرائها فى هذه الأيام من جيد الأدب أو رديئه ، ويعود فيسأل :

« انى هـذا النشاط دليـل عـلى النهضة . . . وهل فى هذا السيل من الانتاج الأدبى ما يبشر بعصر جديد يصح أن يدعى عصر الحقيقة والفن والجمال ؟ »

ويبدو فى جوابه لون من التشاؤم وسوء الظن ، لا منكرا على المنتجين من اهل الأدب ، بل على القراء الذين لا يكادون يحفلون بالانتاج الجيد ولا يقبلون عليه ؛ لأنهم لا يقرءون إلا للتسلية واللهو وإزجاء الفراغ ؛ لأن مقاييس الانتاج الأدبى عند جمهرة القراء غير المقاييس عند أهل الفن ، فيقول :

« إياك إذن يا أخى القارئ أن تسألنى بعد اليوم عن نهضة الأدب فى عصرنا هذا ، لأنك أنت مشجعها وموقد نارها ، وأنت عاملها الأكبر والأوحد .

« لا نهضة للأدب ولا رجاء للأديب ما دمت تعد صفحات الكتاب قبل أن تشتريه كأنك تبتاع ورقا « للصر » ، ولا أمل للنهضة بالنشوء والارتقاء ما دمت تقرأ للتسلية وقتل الوقت وجلب النوم إلى رأسك المتعب ! »

قول يقوله كاتبه لقرائه فى سوريا ولبنان . فكيف لو عرف قراء مصر !

المؤلفون فى مصر

ويتحدث الأستاذ محمد كرد على فى المجلد الحادى والعشرين من مجلة « المجمع العلمى العربى » بدمشق عن المؤلفين فى مصر ونشاطهم فى الانتاج، فيصنفهم طوائف طوائف ومذاهب مذاهب ، ويذكر الذين يعرفهم من المؤلفين المصريين بأسمائهم ومعاهد تخرجهم ومذاهبهم فى الانتاج ، ويوازن بين إنتاجهم هذا الحاضر الذى يخرجون به إلى الناس ، وما كان من إنتاجهم قبل نصف قرن ، ويخص خريجى دار العلوم ومدرستى المعلمين العليا والقضاء الشرعى الملغاتين بمزيد من التنويه بآثارهما فى نهضة التأليف المعاصرة فى مصر .

ويتحدث عن طه حسين وأحمد أمين والرافعى والزيات والعقاد والمازنى ، وعن مؤلفى الكتب المدرسية ، وعن الشيوخ والشبان ، وعن الرجال والنساء ، وعن أهل الجد والفكاهة ، ذاكرا الأسماء ، منوها بكل ذى فضل ؛ لم يند عن خاطره أحد ممن تدور ألسنتهم على الأفواه أو تنشر لهم الصحف والمجلات ، أو تخرج المكتبة المصرية كتباً بأسمائهم ؛ فهو مقال ولكنه سجل واف حافل ومعجم واسع له قيمته فى اليوم وفى الغد . ولا يزال الأستاذ محمد كرد على صاحب فضل على الأدب وتاريخه . ولا يكاد الأستاذ يبلغ آخر المقال حتى يستدرك فيقول :

« ولو ضعفت شهوة الاستخدام فى بعض النفوس المصرية ربما زاد عدد الباحثين المجودين وتضاعفت جمهرة من ينتفع الناس منهم نفعاً عاما ، وربما كان تغير بذلك وجه المدنية العربية . وليس من الغرابة فى شىء أن يكون معظم مؤلفى مصر فى هذا العصر من الذين اتصلوا بالحكومة مباشرة ، وقل أن رأينا ذا نعمة وسعة من العيش حاول نفع الناس بقلمه وبيانه . . . »

فى مجلات الغرب

من باريس

« لانيف » أكتوبر ١٩٤٦ La Nef . مقال للأستاذ ارمان هوج Armand Hoog الذى كان مدرساً بكلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول قبل الحرب الأخيرة عنوانه : « إميلى برونتى أو العلاقة بين الجنة والجحيم » (١) وهو فصل قصير يحاول فيه الكاتب أن يجيب على هذا السؤال : « كيف استطاع النقاء أن يفهم الجحيم ؟ » وهو يحاول أن يفسر الجو البغيض الذى يصوره كتابها « ربا وذرنج » (٢) وهو يجد التفسير فى الخيال البارع الذى امتازت به المعلمة صاحبة هذا الكتاب . وهو يروى بهذه المناسبة قول الشاعر الفرنسى السورياليست أندريه بروتون A. Breton « أيها الخيال العزيز إن أخص ما أحب فى صفاتك هو أنك لا تعفو » . وفى المقال اختلاط لا يكاد يبين لنا عن الموضوع ، بل نحن نسأل أنفسنا أمن الضرورى أن يبين هذا الموضوع ؟

وفى العدد نفسه قصة قصيرة للكاتب المعروف فرنز كافكا عنوانها : « الحكم » (٣) وفى هذه القصة نجد بعض الخصال المميزة لكافكا ، ولاسيما جو الغموض والشك بحيث نسأل أيحدثنا الكاتب عن حقيقة أم عن خيال ؟ أينبؤنا بأخبار أشخاص وجدوا أم هو الخيال قد اخترع الأشخاص والأحداث التى أجراها على أيديهم ؟

وقد وقفت المجلة صفحات فى هذا العدد على العلاقات الفرنسية البلجيكية :

١ — تقلبات الجو المعنوى بين فرنسا وبلجيكا (٤) ويكفى أن نثبت فى هذا المقال جملة يرويها الكاتب فى خطاب ألقاه الملك ألبير فى حفلة عشاء « بمجلة العالمين » بباريس وذلك قوله حين كان يتحدث عن اللغة الفرنسية : « إن هذه اللغة تفيض عن وحى لا يفيض ، وهى تتقدم فى جراءة على كل مغامرة ، وتحافظ فى الوقت نفسه على القصد والاعتدال . »

٢ — العلاقات الثقافية بين فرنسا وبلجيكا (٥) ولنلاحظ هذه الأسطر الأخيرة التى يسخر فيها الكاتب البلجيكى من الجامعات البلجيكية : « نعم هذه الصفوة التى لا تشبه إلا قليلا أمثالها فى البلاد الأخرى فى لندن وباريس وروما بل فى ستوكهلم ، تطمئن راضية إلى شىء من الخمول . » (بديع !)

ونلاحظ تقديراً للحياة العقلية فى بلجيكا

---

(١) *Emily Brontë ou les relations du ciel et de l'enfer.*

(٢) *Wuthering Heights.*

(٣) Franz Kafka, *Le verdict.*

(٤) Louis Piérard, *Vicissitudes du climat franco-belge.*

(٥) Willy Koninckx, *Les relations intellectuelles.*

أن مسرحية « اوديب » لأندريه جيد [1] قد مثلتها فى أنفرس لأول مرة فرقة بيتوئيف Pitoëff قبل أن تمثل فى إيطاليا بل فى باريس نفسها .

٣ — العلاقات الأدبية بقلم روبير جييت[2] وهذا الفصل يحاول كاتبه أن يثبت أن هناك أدباء بلجيكيين ينشأون فى اللغة الفرنسية ، كما أن هناك أدباء فى إقليم اللورين أو شمبانيا ، ولكن ليس هناك أدب بلجيكى خاص ، ثم تنتهى هذه الفصول الشاحبة بدراسة موجزة للعلاقات الاقتصادية بين البلدين .

وفى العدد نفسه مقال بقلم هنرى موندور عضو المجمع اللغوى الفرنسى عنوانه : « بول ڤاليرى ودفاتر أندريه ڤالتر »[3] وفيه مقتطفات لم تنشر . ولا نكاد نفهم لماذا وضع اسم بول ڤاليرى أو لماذا وضع وحده فى رأس هذا المقال ؛ فهذه الصحف التى خصصها الكاتب لظهور الأثر الأول فى آثار اندريه جيد لا تذكر بول ڤاليرى وحده ، وإنما تذكر معه أكثر الأسماء سطوعا فى هذا العصر .

فالكاتب يقص علينا التاريخ المشوق الذى نعرف بعضه فى يوميات أندريه جيد وفى كتابه « إذا لم تمت الحبة »[4] لتصور هذا الكتاب وإنشاءه ونشره . ويقول هنرى موندور إن هذا الكتاب الأول فى كتب أندريه جيد قد ظهر مضافا إلى اسم مستعار ولم يكد يخفى على القراء ، ونجح نجاحا عظيما إذا نظرنا قيمة التصفيق على ضوضائه .

فقد رضى عنه قبل ان يتم إنشاءه الكاتب الممتاز بيير لويس P. Louys صديق المؤلف ورفيقه فى الدرس ، فلما نشر أثنى عليه الشاعر الشاب بول ڤاليرى ، وأعجب به الكاتب الشاعر البلجيكى العظيم ميترلنك Maeterlinck وكتب إلى جيد « إن هذا الكتاب فى بعض مواضعه خالد ككتاب « الاقتداء بالمسيح »[5] وكتاب مارك أوريل[6] وكهذه الكتب النادرة التى تحيا حياة عضوية خاصة . . . » وكتب إلى غير المؤلف يقول : « إن هذا الكتاب أثر ممتاز لا يبارى ، ولعل له على الجملة هذه الخصائص التى لا تختص بعصر ولا يصل إليها الفناء والتى تمتاز بها روائع الأدب الفرنسى » . وقد قرظ هذا الكتاب أخيراً هنرى دى رينييه ، وريمى دى جورمون[7] . أما بول ڤاليرى فقد اكتفى بأن يشعر المؤلف باعجابه فى كتاب خاص والهم ناقداً غيره مقالا قليل الحظ فى البراعة . وإذا قرأنا ما فى كتاب ڤاليرى من الاعجاب الشديد فهمنا حزن أندريه جيد لأن صديقه لم يرد أن يظهر هذا الاعجاب فى مقال يذاع فى القراء . وقد كتب جيد إليه يقول : « إنك تثير فى نفسى أسفاً شديدا ايضاً حين تحدثنى عن المقال البرىء الذى كتبه ريدونيل Redonnel وحين أوازن بينه وبين المقال الذى كنت أنت خليقا أن تكتبه ! . . . ولكنك تعرض الآن كتابة هذا المقال ... وا أسفاه إنك لتملأ نفسى أسفا » . ومن الطبيعى أن جيد كان يود

(١) André Gide, *Œdipe.*

(٢) Robert Guiette, *Les relations littéraires.*

(٣) Henri Mondor, *Paul Valéry et Les cahiers d'André Walter.*

(٤) *Si le grain ne meurt.*

(٥) *L'Imitation de Jésus-Christ.*

(٦) Marc-Aurèle.

(٧) Henri de Régnier et Rémy de Gourmont.

لو يقرأ الجمهور هذا الثناء الجميل الذى كتبه إليه بول ڤاليرى : « وفى كتابك يمكن أن يعتصر أنه يجب أن نبتكر ، يجب أن نحب ، يجب أن نؤمن » . والخلاصة أن قيمة هذا المقال الذى لا يخلو من بعض الاختلاط أنه يصور لنا أولية كاتب ممتاز ، وينشر لنا مقتطفات خطيرة لم تكن معروفة من قبل الآن .

واقرأ فى العدد نفسه مقالا عن « فوست » لبول ڤاليرى بقلم ا . رولان دى رونيڤيل (1) ونحن نعلم أن القصة تنحل آخر الأمر إلى قصتين : إحداهما « لوست » والأخرى « الوحيد » (2) وكلتاهما نشرت قبل أن تتم ، ومات الشاعر العظيم دون أن يتمهما . وهذه الدراسة تجمع بين الدقة والنفاذ والوضوح ، وتمتاز بأنها تحدد الصلة بين هذا الأثر الأدبى وشخصية الكاتب تحديداً . واقرأ ما يقول صاحب البحث : « لقد استكشف ڤاليرى هذا التشابه بين موقفه الخاص من هذه القوة الخفية المظلمة المقومة لضمير الانسان والتى كان يريد أن يظهرها للعقل واضحة . وبين موقف فوست فى جهاده لما نسميه فى لغتنا الحديثة بالضمير اللاشعورى . وقد صور جوته Gœthe هذا اللاشعور فى صورة أسطورة سماها مفيستوفيليس Mephistophélès . وقد ألح هذا الاستكشاف على ڤاليرى حتى اختار الأشخاص البارزين فى قصة جوته واستعارهم لشرح جهاده ، بحيث أصبحت هاتان القصتان اللتان انشئتا ونشرتا فى آخر حياة المؤلف ولم تتم واحدة منهما أشبه شىء بالاعتراف والحكم الأخير على حياته وإنتاجه . »

« مجلة باريس » La Revue de Paris أكتوبر ١٩٤٦ .

وهذا العدد يحدثنا أيضاً عن بول ڤاليرى فى صفحة من يوميات شارل دى بوس (3) فقد زار بول ڤاليرى فى يوم الثلاثاء ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣ ويروى لنا الكاتب ما دار بينهما من الحديث فى ذلك المساء . ولسنا فى حاجة إلى أن نبين المتعة التى يجدها القارئ لحديث بين صديقين أحدهما شاعر « المقبرة البحرية » (4) فكل سطر من هذا الحديث يزيد فى علمنا بالشاعر وتقديرنا لتفكيره . فقد حاول دى بوس أن يقيسه إلى ملارميه Mallarmé فيتخلص ڤاليرى من هذه الموازنة قائلا : « على أن هناك فرقاً آخر بين ملارميه وبينى ، فقد كان هو يرى أن الأدب هو كل شىء . » ، وكلمته المشهورة : « إن العالم كله إنما خلق لينتهى إلى كتاب ممتع » تصوره تصويراً صادقا . أما أنا فلم أر فى الأدب قط هذا الرأى ولم أضعه قط هذا الموضع من الجد » . ويضيف دى بوس : « إن ڤاليرى نموذج الفيلسوف كما يراه جروتويزن Grœthuysen : « رجل لا يهمل العالم أبداً » (5) فليست الحياة وليس الانسان ، بل ليس الأدب والفن تكون الوحدة عنده ، وإنما الوحدة عنده هى العالم أو بعبارة أصح القوانين التى يستنبطها العقل منه . »

ولندع هذا الميدان الصارم ميدان الفلسفة إلى ميدان آخر أشد منه ابتهاجا وليس أقل منه خصباً ، وهو ميدان الموسيقى والموسيقيين . فنحن نقرأ فى هذا العدد صفحات جميلة عن الحياة فى باريس أثناء القرن الثامن عشر .

---

(1) A Rolland de Renéville, *Le Faust de Paul Valéry*.

(2) *Lust* et *Le solitaire*.

(3) Charles du Bos, *Pages de journal*.

(4) *Le cimetière marin*.

(5) *Ein Mensh der nie die Welt vergiesst*.

وهى «مذكرات الشوڤالييه كريستيان دى مانليخ Christian de Mannlich وهو ألمانى ولد فى ستراسبورج وقد كتب مذكراته بالفرنسية « تظرفا » كما يقول ناشر هذه الصحف . وهذه المذكرات التى تنشرها « مجلة باريس » تقص علينا حياة الموسيقى الألمانى جلوك Gluck فى باريس وكان يعيش مع مانليخ تحت سقف واحد وقد اشتهر بقصته الموسيقية « ايفيجينى » Iphigénie وامتاز بقصته الموسيقية الأخرى « أورفيه » Orphée وهو إنما وفد على باريس لينشئ هاتين الآيتين . والكاتب يقص علينا فى فصاحة باريسية وجد ألمانى كيف كان هذا الفنان يعيش فى الجماعة الباريسية، وكيف كانت هذه الجماعة تلق الحيوية الهائلة التى كان يمتاز بها « الأب جلوك » . وقد تلق الأستاذ بمناسبة قصة « ايفيجينى » هذه الرسالة التى سحرته عباراتها كما سحره إمضاؤها :

« سيدى الشڤالييه

لقد شهدت تجربة قصتك « إيڤيجينى » فعدت مسحوراً ، فقد حققت ماكنت أعتقد إلى الآن أنه مستحيل . فتقبل تهنئتى الخالصة وتحياتى المتواضعة .

باريس فى ١٧ أبريل ١٧٧٤

جان جاك روسو »

وكانت السوق السوداء رائجة فى ذلك العهد ، فقد بيعت تذاكر الأوبرا فى طرفة عين ولكن الذين اشتروها باعوها بعد ذلك بثلاثة أمثال قيمتها فى الشوارع والقهوات! والحديث كله يكاد يكون معاصراً وإن كان فيه من الماضى عطر شائق .

واقرأ فى هذا العدد مقالا رائعاً لمارسيل تيبيو Marcel Thiébaut عنوانه : « بين الكتب » وكان أحرى أن يكون للعنوان : « بين الكتب الأمريكية » . تحدث فيه حديثاً ممتعاً عن « القصاص الواقعيين » ارنست هيمنجوى ، وهنرى ميللر Ernest Hemingway et Henri Miller وعن « الكتاب المؤدبين » بيتى سميث Betty Smith وويله كاثر Willa Cather ووليام ساروين Saroyan William .

كما يسمى أولئك وهؤلاء بهذين الاسمين موريس كواندرو « موجز عن الأدب الامريكى » (١) .

واقرأ هذه النتيجة التى يختم بها الناقد مقاله القيم : « نشعر بأن هذه الآداب التى لم تتصل جذورها بالأدب التقليدى قد نشأت من تصادم الشعوب فى عصر السرعة والكوكتيل والسينما ، فهى منشأة لتعجب الذين يحبون الألعاب الرياضية العنيفة، أنشأها قوم علموا أنفسهم وهم مع ذلك موهوبون فينقصها فى كثير من الأحيان القصد والذوق . وهؤلاء القصاص كما هم يتفوقون على زملائهم الاوربيين بالقوة والخيال ... فحسبهم يسحرنا ولكن نأمل أن يتيح لهم تقدم الزمن أن يرسلوا إلى قرائهم رسائل لاتفقد طرافتها ولكنها تحوى شيئاً من الفائدة . »

مجلة Les Cahiers du Sud « كاييه دى سود » المجلد الثانى سنة ١٩٤٦ .

خير ما فى هذا العدد صفحاته الأولى لسببين : الأول أن القارئ يجد فيها ثروة عظيمة . الثانى أنها تروى لنا نصوصاً أدبية لها قيمة استثنائية . وعنوان هذه الصفحات « الدم الأسود » . وقد فهمت بالطبع من هذا العنوان أن النصوص كلها منسوبة إلى السود سواء نسبت إلى جماعات معروفة أو إلى أشخاص بارزين أو كانت شعبية ليس لها مصدر معروف . وهذه

(١) Maurice Coindreau, *Aperçus sur la littérature américaine.*

النصوص مرتبة على النحو الآتى : نصوص إفريقية ، نصوص أمريكية من البرازيل والانتيل Antilles والولايات المتحدة . وبين النصوص الافريقية قصيدة أنشأها بالفرنسية الشاعر الأسود ليوبولد سيدار سانجور عنوانها « آه ، النسيان . . . » (١)

واقرأ منها آخرها فقط :

« فى الدفء النق لهذا الربيع أريد أن أعتقد أنها تنتظرنى هذه العذراء كأن أديمها الحرير الأسود . »

واقرأ لبعض السود الامريكيين هذا الشعر القصير الذى يمزق القلوب :

القمح نزرعه والذرة نعطاها
الخبز ننضجه والكسرة نعطاها
الدقيق ننخله والنخالة نعطاها
وعلى هذا النحو يسخر منا
اللبن نمخضه والفضلة نعطاها
مع هذه الكلمة « هذا كاف للسود ! »

من لندن

المجلة « The Geographical Magazine الجغرافية » أكتوبر ١٩٤٦ .

مع أن هذه المجلة متخصصة للجغرافيا كما يدل اسمها على ذلك ، فهى تقدم لنا مقالا لا يقتصر نفعه على المختصين بهذا العلم وحدهم . موضوع هذا المقال آثار مستكشفة سنة ١٩٣٩ تعرض الآن فى المتحف البريطانى . وقد استكشفت هذه الآثار فى ساتون هو Sutton Hoo وهى وودبريدج الآن Woodbridge حيث وجد قبر يرجع تاريخه إلى منتصف القرن السابع ، للمسيح . وهذا القبر (وكان خاليا من الجثة) يصور سفينة . يصفه صاحب المقال س . و . فيلبس م . ا . ف . س . ا . C.W. Phillips, M.A., F.S.A. وصفا دقيقا كما يصف الأشياء التى وجدت فيه . وهذه الصورة من صور القبور قد يظن القارئ غير المختص أنها من آثار قرصان اسكانديناقيا Vikings نظراً لأمثالها المشهورة التى وجدت فى النرويج وفى غيرها والتى يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع والعاشر بعد المسيح ، ولكنها أقدم جداً من ذلك ، وأقرب جداً إلى الشعب الانجليزى ، ولكن الكاتب لا يفسر هذا تفسيراً مطولا .

وبعد ملاحظات تاريخية يعود الكاتب إلى موضوع مقاله ويعلل خلو السفينة من الجثة بفرضين : فاما أن يكون صاحب القبر قد هلك فى البحر ، وإما أن يكون قد هلك فى موقعة لم يمكن العثور بعدها على جثته .

ولكن الأشياء التى وجدت تدل فى وضوح على أنه كان من أهل الطبقة الممتازة . وهذه الأشياء ترجع إلى أصول مختلفة ، بعضها يأتى من السويد ، وبعضها يأتى من بلاد الغال فى العصر الميروفنجى ، وبعضها يأتى من البحر الأبيض المتوسط ومن شرقه بوجه خاص .

واختلاف هذه الأصول يتيح للمؤلف ملاحظات قيمة حول العلاقات بين انجلترا

(١) Léopold Sedar Senghor, *Ah! oublier...*

والعالم الخارج فى ذلك العصر البعيد » .

وهو يختم مقاله بهذه النتيجة : « وكذلك يلتقى القديم والجديد فى قبر ساتون هو . فالآثار السويدية التى وجدت فيه كانت بقايا عصر بربرى بعيد ، والآثار التى جاءت من بحر الروم وإن تكن متواضعة القيمة تحمل رسالة مستقبل أقرب إلى الحضارة . »

مجلة « العالم اليوم » The World Today

أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

اقرأ فى هذا العدد مقالا قيما نفاذاً بإمضاء (د . م . ب) يحاول أن يشق لنا طريقاً فى هذه الغابة الملتوية التى تصور الحياة السياسية فى فرنسا اليوم . وعنوانه « الأحزاب والدستور فى فرنسا » .

وقد كتب هذا المقال قبيل الاستفتاء الثانى . فإذا قرأناه الآن بعد أن تم الاستفتاء ووضع الدستور وجرت الانتخابات دهشنا لنفاذه وخيل إلينا أنه كان متنبئا . وهو يبدأ بعرض صحيح لمصاعب الحياة السياسية الفرنسية : « لم يكن بد من أن تكون الحياة شاقة فى ظل الحكم المؤقت ، ولكن انتخابين عامين فى سبعة أشهر مع انتظار انتخاب ثالث فى شهر أكتوبر ، أى ثلاثة انتخابات فى عام واحد ، كل هذا جعل العصر معركة انتخابية مستمرة ، يزيد فى مرارتها تنافس الأحزاب الثلاثة المتعادلة القوة فى الحكومة . فى هذه الظروف لم يكن محيص من أن تصبح مواد الدستور نفسها أساحة للجهاد » .

ثم يعرض الكاتب الأحزاب المختلفة ومواقفها من الدستور المقترح . ويوجز فى دقة وإتقان موقف الجنرال دى جول وما نتج عنه من رد الفعل ويقول : « إن هذا الموقف مضافا إليه هجوم الجنرال دى جول على الشيوعيين وإلى شكوك اليساريين فى مطامعه السياسية قد يعيد إلى الشيوعيين بعض المترددين الذين هموا أن يتركوهم نفورا من سياستهم التى تسرف فى انتهاز الفرص ، ولكنه بوجه عام سيزيد حدة الخلاف بين اليمين واليسار ، وقد يقوى جدا أحزاب اليمين » .

ثم يختم (د . م . ب) فى كثير من الاصابة : « ومن الواضح أن هذا المشروع الجديد للدستور ستأتى قيمته من روحه وتطبيقه أكثر مما تأتى من نصوصه ، كما هى الحال بالقياس إلى الدساتير كلها » .

مجلة « القرن التاسع عشر ومابعده » The Nineteenth Century and After

أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

نجد فى فهرست هذا العدد عنوانين يلفتا ننا « الفرنسيون فى كندا » بقلم جيمس كير James Kerr « ومعرض الكتب » . ومقال جيمس كير عن كندا قصير ممتع فيه ثناء على الذين ورثوا الفاتحين الأولين لكندا ، ويقدم إلينا معلومات قيمة عن النظام والحياة فى إقليم كيبك . وهو يعرض علينا فى أول مقاله السبب الذى دعاه لكتابة هذا المقال « فالكندى الانجليزى المتوسط يعتقد أن هناك علاقات مازالت قائمة بين وطنه وبين انجلترا ، ويود لو يرى الكندى الفرنسى يشاركه فيما يكن من الحب والاكبار لمركز الامبراطورية على حين يعتقد الفرنسيون أن الكندى الفرنسى يجب أن يفكر فى فرنسا ، وهم واثقون بأنهم لن يجنوا من ذلك إلا خيراً . أما الكندى الفرنسى نفسه فلا يفكر فى فرنسا ولا فى انجلترا ، وإنما ينظر إلى ماحوله ويذكر غناء آبائه : « أى كندا وطنى موضوع حبى » (١) . فإذا نظرنا نحن

(١) «O Canada, mon pays, mes amours.»

إلى ما حـوله لم ندهش لهذا الشعور. »

وكذلك يقودنا جيمس كير فى سياحة فى كندا الفرنسية ، لا عيب لها إلا أنها قصيرة .

أما « معرض الكتب » فيعرض لنا الكتاب الذى خصصه هارولد نيكلسون Harold Nicolson لمؤتمر فيينا ١٨١٢ — ١٨٢٢ . يقول كاتب المقال ج. هولتون J. Holton معتمدا على المؤلف نفسه : « موضوع هـذا الكتاب الذى أصدره المؤلف أخيرا ، ووصفه فى تواضع هو تسجيل ما كان من تجمع ثم تفرق ثم تجمع . . . فهو ليس تاريخـا عسكريا ، وإنما هو امتحان لما مضى من الأحداث التى أثارت ويمكن أن تثير الاختـلاف بين الدول المستقلة حين تأتلف ائتلافا مؤقتا لضرورة ما . »

ولكن الناقد يرى أن الكتاب يتجاوز الحدود المتواضعة التى رسمها له المؤلف فيقول : « إنه كتاب نافع جدا الآن ، إذ تردد الشئون الدولية صدى ما يكون من تصادم المنافع بين الدول الكبرى وما يكون من اختلاف الأحداث التى تنشأ عن تفاوت الأوربيين فى الفهم والتقدير ، وصدى هذه الحروب التى لا تفصلها الا أعوام قليلة تسمى أعوام سلم . فالمؤلف يكشف لنا فى أسلوبه الحى البسيط عن مناظر رائعة لمواقع ثلاث ، ولمفاوضتين أوليتين ، ولثلاثة أنواع من الصلح ، وخمسة مؤتمرات . »

وعلى الرغم من تأكيد المؤلف أن « التاريخ لا يعيد نفسه » فان قراءة كتابه تكاد تثبت عكس هذا الرأى ، بل تكاد تثبت أنه « إنما ألف كتابه متأثرا أشد التأثر بالأحداث المعاصرة » . ثم يحاول ج. هولتون أن يستق من الكتاب أمثالا يقارب بها بين عصر مؤتمر فيينا وعصرنا الحاضر ، وبين سياسة الطمع لبعض الأمم إذ ذاك ومطامع هـذا البعض الآن .

« مجلة الحياة والأدب » Life and Letters أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

تقرأ فى هـذا العدد دراسة قيمة دقيقة الاستقصاء بقلم جاك لينديسه J. Lindsay عنوانها « الآلهات المشنوقات » وهى تتصل بالأساطير وبالأساطير اليونانية خاصة . والكاتب يستقصى شئون الذين ماتوا شنقاً من اليونانيين فى عصر الأساطير . فيستعرض أحداث هذه الظاهرة التى يمكن أن نسميها — إن جاز لنا أن نمزح حول هذا الموضوع الخطير — مركب الحبل . فهناك الحبل الذى علق به أوديب من رجليه إلى شجرة على جبل كيتيرون Cithéron وهنـاك الحبل أو الخيط الذى استخدمته أريان Ariane لتقود به تيسيوس Thésée فى اللابيرانت ثم لتشنق نفسهـا به . . . الخ

وعلى كل حال فان القارئ الذى يعنى بدرس الأساطير اليونانية يجد فى هذه الدراسة ملاحظات قيمة يستطيع الاخصائيون وحدهم أن يقدروا قيمتها العلمية .

وفى معرض الكتب من العدد نفسه يلقى ماكس شابمن Max Chapman هذا السؤال فى أول نقـده لكتاب رينير ماريا ريلكه Rainer Maria Rilke عن رودان Rodin : « أقادرون نحن على أن نقوم أثر الفنان بعد أن نحلل النظرية الفنية التى أنشأته ؟ » يجيب الناقد على هذا السؤال : « لا ، لأن النظرية إذا كانت أساسية بالقياس إلى الفنان لتحقيقها الصلة بين فلسفته الخاصة وبين الصور الخارجية التى يتخذها مادة لفنه ، فقيمتهـا بالقياس إلى الذى يقوم الآثار الفنية تنتهى عنـد إشعاره بأن لها أثراً خفياً فى قيمة العمل الفنى . فالمهم هو الأثر الفنى نفسه ، بل من الممـكن أن يقبل الأثر وتنكر النظرية التى أنشأته » .

وأهم ما يجعل لهذا الكتاب قيمة ذات

خطر ان « هذه الصورة كغيرها من الصور (إشارة إلى صورة بلزاك Balzac التى صورها رودان) هى على الأقل صورة للفنان نفسه إلى جانب تصويرها لبلزاك ، بحيث يمكن أن تقسم بينهما نصفان . وكذلك يرجع إلى هذا الكتاب للتحقق من خصائص مؤلفه الشاعر كما يرجع إلى صورة بلزاك للتحقق من شخصية رودان » .

أمينة طه حسين